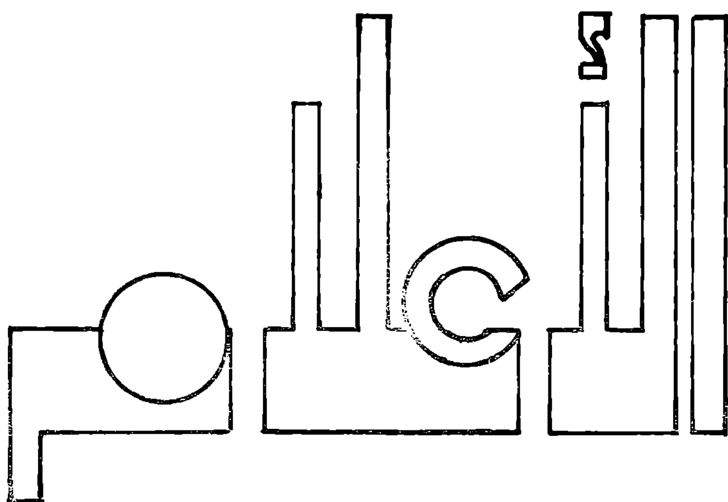
61

عبد الله يوركي حلاق

عشت مع هؤلاء الأعلام

عبد الله يوركي حلاق

عشت مع هؤلاء



هدية

مجلة الضاد ـ حلب

لقرائها ونصرائها في الوطن والمهجر

بدلاً من الاعداد (٨ — ٩ — ١٠) لعام ١٩٨٨



عبدالله يوركي حلاق في مكتبته

تصدير

بقلم : رياض عبدالله حلاق

تتألق في آفاق الأدب والفن ، أسماء اعتلى أصحابها قمم المجد والشهرة ، حتى غدوا أعلاماً . وكثيراً ما يلجأ رجال الأدب إلى ترجمة هؤلاء الاعلام ، فيتحدثون عن حياتهم وآثارهم وبيئتهم ومؤلفاتهم ، فيصيبون كبد الحقيقة حيناً ، ويدورون حولها حيناً آخر ، لأن معظم معلوماتهم عن هؤلاء الاعلام ، قد تكون من مصادر بعيدة عن الحقيقة ، أو أنها بنيت على مجموعة افتراضات ، لكن عبدالله يوركي حلاق رجل الأدب والشعر ، اقتحم هذا الميدان بشكل جديد في كتابه «عشت مع هؤلاء الاعلام» فترجم لأناس عظام عرفهم عن كثب ، وشاركهم في النضال القومي والأدبي ، فكتب عنهم من خلال لقاءاته المتكررة بهم ، معتمداً على شعرهم ونثرهم ، وكتاباتهم التي زينوا بها صدر مجلته «الضاد» عبر ثمانٍ وخمسين عاماً عاشتها هذه المجلة شامخة كالطود عالية كالسروة الماردة لا تزيدها الرياح الهوج ، إلا رسوخاً في أعماق الارض ، وارتفاعاً في كبد السماء .

يحتوي هذا الكتاب على سبع عشرة ترجمة لبعض أعلام الأدب والفن في عصرنا الحاضر ، الذي نحاول فيه بناء مجتمع التقدم والتحرر في مختلف مجالات حياتنا ، فلقد كان أصحاب هذه الترجمات رجالاً شجعاناً ، أعطوا أمتهم عصارة أدبهم وفنهم لتحيا شعوب هذه الأمة عزيزة كريمة .

ولم يكن المؤلف عبدالله يوركي حلاق ، إلا واحداً من هؤلاء الذين تركوا بصمات واضحة في سجلات الأدب والوطنية والقومية والانسانية ، وحري بنا أن نقدر صنيعه ، وأن نفتتح كتابه بكلمات قليلة نحاول من خلالها إنصافه ، لأن قلمه أنصف عدداً كبيراً من أعلام الأدب والفن في هذا القرن .

لن أحاول هنا أن أكتب عن عميد « الضاد » ولا أن أقدمه إلى القراء ، لأنه غني عن البيان والتعريف ، ولأنه عمل منذ مطلع فتوته في الحركة الأدبية في حلب ، وسار في ركاب الكتلة الوطنية في سورية ، وناهض الانتداب الفرنسي بقلمه وعقيدته الوحدوية الراسخة ، فأوقف مراراً ، وضُرب مراراً أخرى ، ولكنه بقي شامخاً في عروبته ، أميناً لوطنه .

وفي عهد الوحدة بين سورية ومصر ، فاز في انتخابات الاتحاد القومي ، وغدا عضواً في المكتب التنفيذي في محافظة حلب . وبتاريخ ١٨ تموز ١٩٦٠ اختير عضواً في مجلس الأمة الاتحادي في القاهرة ، فكان ذا نشاط واسع جعل زملاءه النواب ينتخبونه في ٨ شباط ١٩٦١ عضواً في لجنة الدستور ، وهو اليوم عضو في اتحاد الكتاب العرب ، واتحاد الصحفيين ، واتحاد الجمعيات الخيرية في محافظة حلب .

بدأ الشاعر عبدالله يوركي حلاق حياته الادبية منذ كان في السادسة عشرة من عمره ، فقرض الشعر ، وكتب المقالة والقصة والمسرحية ، ونشر في جريدة « التقدم » ـ التي كانت تصدر في حلب ـ كثيراً من الروايات المتسلسلة ، وتسلّم تحرير مجلة « الكلمة » وأصدر مجلة سماها « الضاد » غذاها بنتاج قلمه وبما كان يكسبه بكد اليمين وعرق الجبين . ولم يطل الأمر ، حتى غدت [الضاد] ميداناً لأقلام

خيرة الأدباء والشعراء ، وجسراً يصل بـــين أدبنا في المشرق وأدبنا العربي في المهجر الامريكي ، فكان ممـن ساهموا في تحرير « الضاد » كبار شعراء المهجـر أمثال : ايليا أبو ماضي ، وشفيق المعـــلوف ، والشاعر القروي ، والياس فرحات ، وجورج صيدح ، ونظير زيتون ، وشكرالله الجر وميشيل مغربي والياس قنصل ، وزكي قنصل وغيرهم .

وأصدرت « الضاد » خـلال مسيرتها ، أعداداً ممتازة خاصة ، منها عدد عن الشاعر فـوزي المعلوف عام ١٩٣٥ ، وعـدد عن القضية الفلسطينية في أيار عام ١٩٤٧ نبهت فيـه إلى مخاطر الصهيونية وأهدافها التوسعية ، وعدد عن أديب الشهباء سامي الكيالي عام ١٩٧٢ وعدد عن الدكتور سامي الدهان عام ١٩٧٥ وعدد عن جاليتنا العربية في فنزويلا عام ١٩٨٠ .

ولم تكتف « الضاد » بذلك ، بل اهدت إلى قرائها عدة كتب أدبية بقلم عميدها عبدالله يوركي حلاق منها ديوانه الأول « خيوط الغمام » الذي طبـع مرتين في سنة ١٩٤٢ ، وحصاد الذكريات ديوانه الثاني عام ١٩٦٦ ، وكتابه المشهور « من أعلام العرب في القومية والأدب » عام ١٩٧٨ و « قطاف الخمسين » عام ١٩٨١ وكتاب « حلبيات » عام ١٩٨٣ وكتابه الاخير هذا « عشتُ مع هؤلاء الأعلام » .

وللمؤلف عدة كتب مطبوعـة منها « الزفرات » مجموعة قصص قصيرة ، (وفي حمى الحرم) رواية طـــويلة ، و (وضوح الاملاء) كتاب مدرسي طبـع ثلاث مرات .

ومن كتبه التي تطبع الآن : كتاب (الثورات السورية الكبرى في ربـع قرن) وديوانه الثالث (عصير الحرمان) من منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي .

وفي جعبة الاستاذ الحلاق مؤلفات كثيرة لم تطبع بعد ، منها ديوانان هما « أغاني الوحدة » و « أهازيج الروح » ونحو ثلاثين كتاباً نأمل من الله أن تظهر إلى النور عما قريب .

والمعروف أن لعميد « الضاد » شعراً تتراءى فيه عواطفه السامية النبيلة وعقيدته القومية الاصيلة الصافية ، ونثراً لا يقل عن شعره جودة ومتانة وجمال اسلوب وروعة بيان ، كما ترك لنا على صدر مجلته «الضاد» عدداً من المقالات الأدبية والثقافية والتاريخية والاجتماعية ، جمعتْ كماتها بلاغة نثرية ، ومعجزة شاعرية تحلى بها عبدالله يوركي حلاق ، فأوقد من خلالها قنديل الكلمة الساحر ، وحرك فيض المشاعر والخواطر .

فالمؤلف بارع في مضمار الشعر والنثر ، لا يكتب قصيدة أو مقالاً ، إلا إذا كان متأثراً ومحتاجاً إلى التعبير عن مشاعره ، ولهذا اتسمت أعماله الادبية بالصدق في التعبير ، وامتازت كتاباته بالعفوية والانسجام ووضوح الفكرة وإشراق الديباجة .

وتقديراً من السيد رئيس الجمهورية البطل الرمز الرفيق حافظ الاسد راعي العلم والعلماء ، والأدب والأدباء ، فقد تفضل ومنح عميد « الضاد » وسام الاستحقاق السوري ، وتلطفت السيدة الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة والارشاد القومي بتقليده هذا الوسام في حفل أدبي كبير أقيم في رحاب جامعة حلب واشترك فيه كبار أدباء القطر والوطن العربي والمهجر الامريكي ، فكان تظاهرة أدبية رائعة لم تشهدها حلب الشهباء من قبل . وفي هذا الاحتفال شدت السيدة نجاح العطار قائلة في صاحب « الضاد » المحتفى به : « الاستاذ عبدالله يوركي حلاق منذ خمسة وخمسين عاماً يصطاد الكلمة . يفتح في جليد الأيام ثقباً ويطرح صنارته المباركة ، متحملاً البرد والحر ولزوجة حبر المطابع وهدير آلاتها ،

وفوق ذلك يتحمل نقد النقاد ، وأمزجة القراء ، في سبيل أن يصنع من مجلته وجبة دسمة لا يعرف صعوبتها ، بل شقاء إعدادها ، إلا من عانى حرفة الادب ، ومن قدر عليه أن يقتنص ، كالفراشات ، كلمات ملونة يصنع بها قوس قزح للناس »(١) .

وبنشوة الفرح ، جادت قريحة الشاعر عبدالله يوركي حلاق بقصيدة عصماء نقتطف منها هذه الابيات :

شدّي على وترِ الرَّبابِ وغردي	اليومُ يا شهباءُ يبدأ مـولدي
اليومُ يفترُ الرجاءُ وكنتُ في	ساحِ الرجاءِ كنائهٍ في فَدْفدِ
اليومُ صرَّفني الزمانُ ولم يكنْ	من قبلُ مغموز الاصالةِ محتدي
اليومُ ألبسني الربيعُ قميصهُ	وسخا لجـاد عليَّ بالورد الندي
شكراً لحافظِ أمتي وفخارها	شكراً يُصاغُ له بذوب العسجدِ
شكراً نجاحُ فأنتِ بلبلُ يعربِ	يا بانة النثرِ البليـغ تأودي

وبعد أن زينّ الوسام صدر عميد « الضاد » أنشد قائلاً :

لا تسلني متى أزور الشآما	ها هيَ الشامُ طلعةً وقواما
أقبلتْ تلثمُ الزهورُ خطاها	والقـوافي تُلقي عليها السلاما
حرتُ والله كيف أعلن شكري	وامتناني وقد عييتُ كلاما
« كرموا الشعرَ حينما كرموني »	إنني زدتُ بالقريض هياما
هاك صدري عليه أحلى وسامٍ	دُمتِ في عروةِ الفخار وساما

ويسرُّ أسرة « الضاد » بلسان مديرها المسؤول رياض عبدالله حلاق أن تهدي إلى قرائها الكرام في الوطن العربي والمهجر الامريكي كتاب عميدها « عشتُ مع هؤلاء الاعلام » ليكون عربون محبة ووفاء واخلاص .

---

(١) كلمات ملونة ، د. نجاح العطار ـ من مقال صيد الكلمات ص ١٢٤ ـ ١٢٥

إهـــداء

الشهداء أكرم من في الدنيا وأنبل بني البشر
حافـــظ الأســـد

الشهيد

إلى شهداء أمتنا العربية أقدم هذا الكتاب
المـؤلف

ليسَ الطريقُ إلى الخلود بعيدا — إنْ كُنتَ تبغي الخلدَ فاقضِ شهيدا
ناضِلْ عن الحقِّ المهيضِ جناحُهُ — إنَّ المناضلَ لنْ يكونَ وحيدا
لا تخشَ أعداءَ السّلامِ ولا تكنْ — في الروعِ إلاَّ الباسلَ الصنديدا
أمطرْهُمُ ناراً ودُكَّ حصونَهُمْ — واجعلْ عقابَ المعتدينَ شديدا
بالحربِ لا بالسلمِ تمتحنُ القُوى — بالحرب نُرجِعُ حقَّنا المفقودا
يا حافظاً احفـظ كرامـــة أمةٍ — ما أنجبت إلاَّ الأباةَ الصـــيدا

* * *

جيلَ الحجارةِ أنتَ أكرمُ باذلٍ — وأعزُّ أهـــلِ المشرقين جدودا
ارْجُمْ عدوَّكَ فالحجار كثيرةٌ — وتحـــدَّ غازاً خانقاً وحديدا
وادخُلْ سُجونكَ بالحديد مقيّداً — فغداً نفكُّ عن الزنودِ قيودا
لا بُدَّ منْ كأس المنيّةِ فاشربَنْ — كأساً بها يَغدو الفناءُ خلُودا
منْ قالَ «هتلرُ» مثلُ «شاميرٍ» فقد — ضلَّ الصوابَ وأخطأ التحديدا
«شاميرُ» سفّاحُ الدماء تخالُهُ — يُرضِ الطغاةَ ويقرأ [التلمودا]

عبد الله يوركي حلاق

المقـدمـة

بقـلم : عبدالله يوركي حلاق

عرفتُ مجلة الضاد ، قبل أن أعرفَ زوجتي وأولادي ، وآثرتُها بالحب والاخلاص ، لأنها كانت كلَّ هـــدفي في الحياة . و « الضاد للعرب خاصةً ، وليس له حـرفٌ يقابلهُ في باقي لغات الساميين (١) » وأنا قبل كل شيء عربي وحدوي ، تستهويني لغةُ الضاد ببلاغتها وتراثها وروعة أدبها ، ولا سيما بشعرها الحافـــل بأجمل الصور الفكرية ، وأبعد الأخيلة الوجدانية ، وأشرف المعاني الانسانية .

كنتُ على مقاعد الدراسة ، عندما فكّرتُ في إصدار مجـــلةٍ أدبيـة شهرية تحمل اسم الضاد ، وتجاهـــد في سبيل عروبتنا وتراثنا ومجتمعنا . واضطررت إلى ترك المدرسة ، وأنا في ربيعي السادس عشر ، والتحقت بعمل لا يمتُّ إلى الأدب بأيّةِ صلة ، وفكرة إصدار المجلة تلاحقني ولا تبرح مخيلتي . ولكنْ ما العمل وسنّي لم تصل يومئذٍ إلى التاسعة عشرة ، وقانون المطبوعات ينص على أن يكون صاحب امتيـاز أيّة صحيفة ، قد أتمَّ الخامسة والعشرين من عمره .

وسرعانَ ما وجـــدتُ الحلَّ ، عندما رضـيَ الاستاذ يوسف

---

(١) كتاب « محيط المحيط » للمعلم بطرس البستاني . الطبعة الأولى ١٨٧٠ ج٢ ص ١٢٢٩ .

شكرالله شلحت ، رحمه الله ، أن يصدر امتياز [الضاد] باسمه ، على أن يُنقل الامتيازُ إلى اسمي ، حين أبلغُ السنّ القانونية .

ومرت الايام ، وغدوتُ صاحبَ الضاد ورئيس تحريرها المسئول . وحملتُ جميع أعبائها المادية والأدبية بمفردي . وكثيراً ما كنتُ أتأبط رزماً من أعدادها ، وأصعد السلالم العالية ، لأوزع على المشتركين آخر ما صدر من [الضاد] فقد كنتُ المحرِّرَ والمصحِّح والموزع في وقت واحد ، ولم أكن استمدُّ العون إلاّ من الله ، ومن عزم الشباب ، وقوة الارادة والتصميم ، ومن ذلك الحب العارم المتدفق من قلبٍ متيمٍ بلغته وأمته ووطنه .

ويوم ثقل عليّ العبء ، هرعَ لمساعدتي الاستاذ عبدالقادر النجار ، وابني الثاني رياض ، فكانا لي خيرَ سند في مسيرتي الشاقة المضنية .

ولولا ايماني بالله عزّ وجلّ ، وبعدالة قضايانا القومية والوطنية ، وشعوري العميق بأنّ الصحافةَ رسالةٌ لا مهنة ، لهجرتُ القلم ، وابتعدتُ عن متاعبَ تنهك الروح ، وترهقُ الجسد ، وتطيح بالمال الكثير .

وكان هدفي واضحاً كلّ الوضوح ، حين أعلنتُ مراراً ، أن غذاءَ الصحافة ، ذوب القلب ، وعصير الدماغ ، ونور المقلتين ، فعلى من يخوض غمارها ، أن يهيمَ بها ، ويخلص لها ، ويستسهل كل ما تجرُّه عليه من صعاب ، فالصحفي الحقيقي في نظري ، من يعشقُ الصحافة ، ويعطيها كلّ وقته وجهده وماله ، لا من يتخذها سلماً يوصله إلى ما يصبو اليه من جاهٍ أو مال .

ويشهدُ قراء [الضاد] في الوطن والمهجر ، أنني أخلصت لها ، واعتبرتها ابنتي الوحيدة المدللة ، فكنتُ في أيام الضيق ، احرم نفسي ، واقتّر على أفلاذ كبدي ، لأشبعَ نهمَ المطابع الفاغرةِ الأفواه لطلب المزيد من الاجر .

وأحمد الله ، أنني وجدتُ بعد خمسين عاماً من الجهاد المتواصل ، قلوباً طيبة تقدر العاملين المخلصين في حقل الفكر ، وأياديَ كريمةً تمتدُّ لمساعدة الصحافة والثقافة والفن . فالعهد الذي نحن فيه ، عهد خيرٍ وبركة ، يرعاهُ ويسهر على أمنهِ ورقيّهِ وازدهاره ، الاب الرمز الرئيس حافظ الاسد ، مكرّم العلم والعلماء ، والادب والادباء ، والشهادة والشهداء .

في هذا العهد ، بدأت أنشق عبقَ الكرامة الادبية ، وأشعر أن هناك عيوناً حانية تنظر إلى [الضاد] باعتبارها مجلة عربية الاسم والقلب والوجه والمحتوى ، استقطبت أقلامَ نخبةٍ ممتازة من أقطاب علمائنا وكتابنا ومفكرينا العرب ، وكانت مدرسةً للعديد ممن اشتهروا اليوم بالكتابة الرصينة ، والشعر الجميل .

وبالرغم من مظهر [الضاد] المتواضع ، وضآلة مواردها ، وقلة عدد جهاز تحريرها وتوزيعها ، فقد استطاعت أن تقف أمام عواصف المحن ، كالسنديانة الراسخة الجذور في أعماق الارض وثنايا الصخور ، وأن تكون سجلاً دوّن ، بمنتهى الدقة والصدق والامانة ، أهمّ أحداثنا الوطنية والادبية والاجتماعية منذ ثمانٍ وخمسين سنة إلى اليوم .

ويؤكّد المتعمقون في تاريخ الصحافة ، أنّ العالم كلّه لم يعرف من قبلُ ، صحفياً بقيَ على رأس صحيفته هذه المدة الطويلة ،

وهذه نعمة من الله أحمدُه عليها ، وأعدُّ نفسي سعيداً بها .

ولعلّ ميزة [الضاد] الاولى ، أنها كانت منذ بدء ظهورها في عام ١٩٣١ ، جسراً فكرياً ربط أدبنا المقيم ، بأدبنا المغترب ، وجعل عباقرة شعرائنا ومنشئينا وراء البحار ، يخصّون هـــذه المجلة بأروع ما جادت به قرائحهم الخصبة المبدعـة . فما كاد الشاعر القروي يتابـع قـــراءة بعض أعـدادنا ، حتى أعرب عن اعجابـه باسمها ومحتواها وقال ما نصّه بالحـرف الواحـــد : « ... ويسرني أن أكون أحد المشاركين في رسالتك الادبية الهادفة إلى خدمة الحق والفكر والمروبة ».

وقال الشاعر العربي الكبير الياس فرحات : « ... نحن هنا في البرازيل نحترم صحيفتك الصغيرة بحجمها ، الكبيرة بمادتها وجهادها ، ونضع أقلامنا مع قلمك ، لتكون يداً واحدة تصفع الاستعمار وتطرد المستعمرين ».

وقال شاعر عبقر شفيق المعلوف : « ... كانت الضاد صوتاً للأدب الحي ، ونحن نراها اليوم شعلةً فكرية تدلّ المجاهدين على طريق الفوز ، وتفتح أعين الراقدين من أبناء أمتنا على ما يحاك لهم في الخفاء ».

وقال حبيب مسعود – وكان رئيساً لتحرير مجلة العصبة في سان باولو البرازيل – : « أصبحت الضاد زادنا الروحي في مغتربنا البعيد ، نشبع به جوعنا الى الادب المشرق ، ونترقب هـذه المجلة ، كما نترقب رسائل الامهات والاخوة » .

وقال ايليا أبو ماضي : « تصلـني الضاد فأقرأ فيها الادب الذي أحبه ، والفكر الذي أقدر مراميه » .

وقال جورج صيدح : « للضاد عندي مقام لا يعدله مقام ، فهي

صوت العروبة الناطق باسمها ، والمعرب عن مقاصدها ، والحامل إلى الناطقين بالعربية ، أروع الشعر ، وأبلغَ النثر .

وقال ميشيل مغربي - وكان شاعراً مهجرياً كبيراً - : « ضادك يا أخي عبدالله تثير مشاعري إلى الأدب العربي الأصيل البعيد عما بدأنا نراه الآن من أنماط كتابية غامضة مبهمة يستحقُ كاتبوها الاشفاق (١) » .

وهناك أقوال كثيرة مماثلة ، تثبت أن هذه المجلة ذات المظهر البسيط ، جذبت قلوب أعداد وافرة من رجالات الفكر ، وحملة مشاعل المعرفة ، ودخلت اليابان وكبريات المكتبات العالية كمكتبة الكونغرس ومكتبة جامعة ميشيغن ومكتبة جامعة برنستون ومكتبة معهد العالم العربي في باريس ، فضلاً عن مكتبات جامعاتنا العربية كالجامعة الاردنية وجامعة حلب وبعض جامعات المملكة العربية السعودية ، ودوائر وزارة الاعلام في الكويت .

وكثيراً ما أنسى متاعبي ، حين أذكر أنني عرفت وصادقتُ بواسطة [الضاد] أكثر من مئة علَمٍ من مشاهير مفكرينا وعباقرتنا ، نوهتُ بأعمال بعضهم في كتابي [من أعلام العرب في القومية والأدب] وأنوّه بنبوغ بعضهم الآخر ، في كتابي هذا .

لقد عرفتُ معرفةً شخصية وثيقة ، خمسةَ عشرَ علماً ممن دوّنت سيرَهم هنا . أما الآنسة مي زيادة ، فقد رأيتُها مرةً واحدة في دار صديقنا أمين الريحاني بالفريكة - لبنان ، وكانت في ضيافته ، بعد خروجها من المصحّ ، وبدت لي كئيبةً جامدة العينين . وحين دنوتُ

---

(١) الضاد العدد ١ كانون الثاني ١٩٨٥ ص ٢٧ - ٢٩ .

منها وسلّمتُ عليها ، لم تنبس بكلمة ، بل هزّت رأسها ، وراحت تنظر إلى الأفق البعيد ...

وأمّا علي محمود طه صاحب قصيدة « الجندول » فلم أحظَ بلقائه، ولكنني عرفته بشفافية روحه ، وجزالة شعره ، ورهافة حسّه ، وروعة خياله ، وجدّة معانيه ، فأحببته وعشتُ مع دواوينه أوقاتاً ممتعة ، تذوّقتُ فيها صهباءَ الفن ، وحلاوة النغم الشاعري الخلاّب .

بقيَ أن أذكرَ ، أنني لم أنوّهْ في هذا المؤلف ، إلاّ بأصحاب الأخلاق المتينة ، والاقلام المبدعة . أما منْ كان يلعب على كل حبل ، ويمالىء كلَّ ذي حولٍ وطول كصالح جودت ، فقد أعطيتُه ما يستحق، ليكون عبرةً لسواه . ولولا أن يكون صالح ذا شعر جيد، لما اهتممتُ به ، ولا تعرّضتُ له في كتاب يزدان بأسماء كريمة متألقة في سماء البقاء .

حلب في ١٥/١٠/١٩٨٨

عبد الله يوركي حلاق

الشاعر القروي
رشيد سليم الخوري

شاعر القومية العربية الأول

لا نعرف في تاريخ الادب العربي ، شاعراً أعطى أمته ما أعطاها الشاعر القروي من روائع الشعر ، وملاحم البطولة والاباء .

لقد عرفناه معرفةً تامة ، فرأيناه كتلةً تتقد حبّاً وإخلاصاً لعروبته ووطنه ولكلّ ناطق بالضاد ، يبذل في سبيل قوميته ، أغلى ما يملك في هذه الدنيا ، وهل يملك الشاعر الصادق المترفع عن المادة ، غير روحه يقدّمها رخيصة على مذبح الفداء .

عرفناه على مقاعد الدراسة ، وسورية تنوء تحت وطأة الانتداب الفرنسي ، والعلم المثلث الألوان ، يخفق في سمائنا الصافية ، والمستشار ذو العينين الزرقاوين ، صاحب الأمر والنهي في كل دائرة كبرى من دوائر الدولة المغلوبة على أمرها .

وكنا كالحمم الكامنة في قلب بركان على وشك الانفجار . كنا نتفاعل ونغضب ونثور ونملأ الآفاق أناشيد حماسية ، هي أبلغ وأروع ما وضعه شعراء الرعيل الأول من بني جنسنا .

ومظاهرات الطلاب ، كانت شيئاً عادياً ، والافواه كانت تزمجر كالرعد بسقوط الاستعمار ، الذي سموه انتداباً ، حين اصطدموا بمعارضة توما ويلسن WILSON في مؤتمر الصلح بفرساي (١) .

لقد خدعوا ذلك الرجل الطيب المحب للسلام ، وأوهموه أن الانتداب شيء مؤقت يُهيأ فيه الشعب المنتدَب ، لممارسة حقه في الاستقلال والسيادة .

ولم تجز هذه الخدعةُ السياسية على أبطالنا الأشاوس ، فتصدوا لها وقاوموها بقوة السلاح في جبال اللاذقية ، وفي جبل الزاوية بالقرب من ادلب ، وفي السويداء وجبل العرب ، وغوطتي دمشق ، وسهول حلب وحماة وحمص ، وفي كل مكانٍ تمرُّ به كتائب الجيش الفرنسي ، أو قوافل تموينه .

أما نحن الطلاب ، فكان سلاحنا الحجارة والاناشيد ، وكان العبيد السود ينهالون علينا بالهراوات وقضب الخيزران وأعقاب البنادق فلا نرهب ولا نخاف بل نصيح بملء أصواتنا :

نحن الشباب لنا الغدُ ومجدهُ المخلَّدُ
نحنُ الشبابْ

شعراؤنا في المهجر الجنوبي

كان لنا في اميركا الجنوبية ، ولا سيما في البرازيل ، شعراء قوميون من الطراز الأول . وكان أكثرهم حميةً وطنية ، الشاعر

---

(١) ولد ويلسن عام ١٨٥٦ وتوفي عام ١٩٢٤ وانتخب في سنة ١٩١٣ رئيساً للولايات المتحدة الاميركية وظل في سدة الرئاسة حتى سنة ١٩٢١ .

القروي رشيد سليم الخوري والياس فرحات ، وكانا يمدان الوطن السوري، بقصائد ثورية توقد في نفوسنا النخـــوة ، وتشعرنا أننا شعبٌ سُلِبَ حقّه ، واغتصبت أرضه ، وطويَ علمه . ولم يبق أمامه إلا الجهاد . فالحديد لا يفلّه إلا الحديد، والمستعمر لا ترهبه سوى وحدة الأمة ، واجماعها على مقارعته .

الأعـاصير

في عام ١٩٣٣ ـ وكنتُ قد أصدرتُ مجلة الضاد ـ أرسل إليَّ الشاعر القروي ديوانه [الاعاصير] وهي مختارات من شعره الوطني نحاها عن سائر أشعاره لتعصِفَ في جـوٍّ وحـــدها . إنها خواطرُ جامحة وأفـكار ثائرة ، افتتحها بتحية الأندلس ، فأنشد :

خبّرينا كيفَ نقريكِ السّلاما
طيّبَ النشر كأنفـاسِ الخزامى
والشذا المحيي بسوريا العظـاما
غادرَ الشامَ وبـيروتَ وهـاما
في بلادٍ حرّةٍ لم تحنِ هـاما
وأنوفٍ لم يقبّلـــنَ الرغاما
خبّرينـا كيفَ نقريكِ السلاما

وكانت الرقابـةُ مفروضة على الشعر المهجري المتدفق من قريحتي فرحات والقروي ، ولكنَّ الديوان وصل ، وانتقل من يدٍ إلى يد ، وحفظتُ مقطوعات عديدة منه ، كما حفظتُ بضع جمـــل من مقدمتهِ البليغـة التي يقول فيها القروي : « فلنصافح السيوف ، فاذا تحـررنا ، فلنصافح الاعداء » ثم يحمل على الاستعمار ، فيعرّيهِ ويبيّن معايبهُ ويدعو الى الكفاح المسلّح ، فبه وحدَهُ يكونُ الخلاص .

دواوين الشاعر القروي

للشاعر القروي عدة دواوين منها: البواكير والزمازم والازاهير. وفي أول آب ١٩٥٢ جمعها في ديوان واحـــد سمّاه [ديوان القروي] وتفضل في ٣١ كانون الأول من تلك السنة، فأهدى إليَّ نسخةً منه، مهرها بعبارة في منتهى البلاغة، وزيّنها بخطه الجميل بهـــذه الأبيات البديعة يليها توقيعه:

بـدّدتُ روحي ثمَّ لـملمتُها	حفظاً لذكري قبلَ يوم الرحيلْ
ما كلُّ سطرٍ من كتابي سوى	شعاعةٍ من نور قلبي الضئيل
إنْ أفلَتتْ نجمةُ عمري فقد	تطـلعُ في الأرواح مع كل جيل

حقاً ان روح الشاعر القروي حيةٌ خالدة خلود شعره وذكره. إنه شاعر عبقري أدى رسالته القومية على أشرف وجـــه، واطرف الفصحى بشعر رقيق أنيق، هو ذوب العاطفة البكر، وزبدة الوحي المصفى، وخلاصةُ الروعة والبيان المشرق السلسال.

لا إخال أديباً نابهاً صادقاً، يجهل هذا الشاعر الفريـــد الذي أطرب المسامع بشدو روحهِ، وصُداح قلبه، وأهازيج قوافيه، ولا أظنُّ عربياً مؤمناً بعروبته، ينكر جميـلَ هذا العلم الخفاق في أوج المجد التليد. إن الشاعر القروي رمز العقيدة الوطنية الراسخة كالجبال، ومثال المبدأ الانساني الحر الرفيع، ورسول الابتـكار الطلي المستحبّ، حمل قيثارة القريض، وسار في خمائل الالهام، وراح يسـكر الارواح بسُلافة فنه، ويخلب الألباب بسحر بيانـه، ويؤجـج في الصدور، نارَ الحميّة والحماسة، بخرائد فرائد كلها عزّة وشمم وإباء.

والاباء غريزي في نفس الشاعـــر القروي، أصيل في طبعه،

متمكّن من حواسه ، تستشفّه في معظم آثاره الشعرية والنثرية ، فهو يلهب العزائم بشرر فكره ، ويهيب بالضعفاء أن يتحرروا من قيود الضعف والاستسلام ، وأن يكونوا أحراراً لهم شأنهم ورفعتهم تحت الشمس .

ولعلّ العروبة لم ترَ شاعراً ناضل في سبيلها نضال القروي ، ولا كافح من أجل رقيّها واتحاد ابنائها مثل كفاحه ، فأبناء الوطن العربي ، اخوة يجمعهم الدم واللسان والتاريخ المشترك والاهداف القومية الموحّدة .

ومن يستعرض ديوان القروي ، يرَ آياتٍ بيّنات في الوطنية المستمدة من معينِ الحبّ الشامل . فهو لبناني المولد والنشأة ، ولكنه عربي الروح ، سوري النزعة ، أحبّ العرب كلهم حباً جمّاً خالصاً ، ملك عليه قلبه وفكره ، وألهمه صوراً شعرية ستظل إلى الأبد ، أغاريد الفخر في ثغر الزمن ، وزغاريد الحماسة في معترك الجهاد .

الشاعر القروي وحدوي أصيل

كانت الوحدة العربية أمنية الآباء والاجداد . وكان أحرار العرب وما زالوا ينادون بها ويرون فيها قوتهم وخلاصهم من الارهاب الاستعماري . فاتحاد مئة وعشرين مليون عربي له وزنه في الحساب الدولي . وعندما أعلنت الوحدة في شهر شباط [فبراير] سنة ١٩٥٨ بين سورية ومصر ، فرح القروي وبدأ يهيىء قصيدته العصماء التي مطلعها :

حشّامَ تحسبُها أضغاث أحلامِ سبّحْ لربكَ وانحَرْ أنتَ في الشامِ

ولم يطل به الوقت ، حتى وافته دعوةٌ رسمية لزيارة الاقليمين

العربيين المتحدين ، فركب الباخرة من البرازيل إلى اللاذقية ، وهو يردد بيتيه المشهورين :

بنتَ العروبةِ هيئي كفني أنا عائدٌ لأموتَ في وطني
أأجودُ من خلف البحار له بالروحِ ثمَّ أضنُّ بالبدَنِ ؟

وفي صباح يوم الأحد ٣ آب [اغسطس] ١٩٥٨ وصل شاعرنا إلى ثغر اللاذقية ، فاستقبلته وفود رسمية وأدبية تمثل كبريات المحافظات السورية . وكان وفد حلب مؤلفاً من سامي الكيالي وخليل هنداوي وعبدالله يوركي حلاق ، وقد تناول المستقبلون معه طعام الغداء في مصيف صلنفة .

وبالغت سورية ومصر بالاحتفال بالشاعر القروي ، وكرّمته حلب في حفل أدبي كبير ألقى فيه كاتب هذا المقال قصيدة وصفت بأنها من عيون الشعر العربي . ووضع محافظ المدينة العميد عادل الميري تحت تصرف أستاذنا القروي سيارة فخمة تطوف به وبالصديق المغترب نظير زيتون - أمين سر العصبة الاندلسية في سان باولو - معالم مدينتنا العريقة في تاريخها والغنية بآثارها . وبينما كنا ذات يوم في طريق حول المدينة ، أشار الشاعر القروي إلى السائق أن يقف قليلاً ، فوقف ونزل الشاعر من السيارة ، وانحنى على الأرض وأخذ حفنة من التراب ، ورفعها إلى أنفه وشمّها كما يشمُّ باقةً من البنفسج الشذيّ ، ثم قبلها بضع قبلات وقال : من يدري ؟ لعلَّ قدمي المتنبي وطئتا هذا المكان . وحذا الاستاذ نظير حذوهُ واستنشق حفنةً من التراب وقال : ولعلَّ سيف الدولة سار في هذا الموضع أيضاً .

جريمة الانفصال

عندما وقعت جريمةُ الانفصال في صباح اليوم الثامن والعشرين من ايلول [سبتمبر] ١٩٦١ شعر القرويُّ بحزن عميق على هذه الوحدة الرائدة التي ما كادت ترى النور وتنعم بالعزة ، حتى امتدت اليها يد أثيمة خنقتها في المهد ، وتركتها جسداً لا روح فيه .

وكان منَ المؤسف حقاً ، أن تقوم في دمشق ـ وهي عرينُ العروبة ـ معالم الزينة ، وأقواس النصر ، وأعياد شعبية أمر باقامتها الانفصاليون الخونة واجراء الاستعمار .

في ذلك اليوم ثارت مشاعر الحزن الشديد في نفس القروي ، وأحسَّ كأن نفسهُ تتمزق لوعةً وحسرة لانفصال الاقليمين الشمالي والجنوبي فقال متسائلاً بكل كآبته :

لمنْ عيدُ انفصالكِ يا دمشقُ فتلْ أبيبَ منك بهِ أحقُّ
أنشربُ والعجوزُ من الندامى ونرقصَ وابنُ غريونٍ يدق

هذان البيتان سمعناهما من فم الشاعر القروي نفسه ، في بيته المطلّ بقرية البربارة على شرقي البحر المتوسط . وقد أكَّدَ لنا يوم اسمعنا اياهما أنه لم ينشرهما في صحيفة .

جمال عبدالناصر والشاعر القروي

كان الشاعر القروي يحبُّ الرئيس جمال عبدالناصر حبًّا عظيماً ، ويراه بطلاً ملهماً يؤمَّل أن تتحقق على يديه الوحدة العربيةَ الكاملة الشاملة . وقد خصَّه بكثير من أروع قصائده القومية ، ووصف ما اتصف به جمال من جرأة وبسالة واخلاص عجيب للعرب وجمع شملهم في نطاق

من المحبة والاخاء . وعندما انتهى جمال من بناء سد اسوان فاضت قريحة القروي بهذه القصيدة الفريدة وعنوانها [جمال عبدالناصر] :

حليفكَ ربٌّ ناصرٌ أنتَ عبدهُ ... وجندكَ إن دارت رحى الحرب جندهُ

وحسبُكَ من يوم السويس شهادةً ... بأنكَ عضبٌ يفلقُ الطودَ حدُّهُ

فلا ترهبنَّ الغيبَ والله حاضرٌ ... ولا تخشينَّ الضدَّ والله ضده

ولا عارَ في اغمادِ سيف شهرتَهُ ... على « البدر » إن كان ابنَ غريون غمده

وجيشٍ باطراف البلادِ موزّعٍ ... تحوّلهُ عن زحفهِ لا تردّه

فهذا الرباطُ المالىء الجوَّ رهبةً ... لصهيونَ لا للمسلمينَ تُعده

وأعجبُ من سدٍّ على النيل شدّتَهُ ... بأسوانَ ، سدٌّ عند يافا تهدّه

وهـذه القصيدة سمعناها من فم الشاعر القروي في بيته بالبربارة وهي على ما نعتقد غـير منشورة في ديوانه الجديد ، لأنه بعد حرب ١٩٦٧ تغيَّر عما كان عليه ، واعتبر جمالاً مسئولاً عن انكسار العرب . وقد حاولنا أن نقنعه بأنـه على خطأ ، وأن اميركا هي المسئولة ، فلم نفلح ، رغم ما بيناه من براهين ، وسقناه من أدلة دامغة .

لقد لعبت الخيانـة دورها في تلك الحرب ، كما أثبتت بعد ذلك الوقائع الكثـيرة المتلاحقة . وفي جعبة التاريخ حقائق ، تدلُّ على أن جمال عبدالناصر ، كان في قمة الاخلاص ، ولكنَّ بعض من كان حوله كانوا في وحول الخسّة ، ومستنقعات الدناءة .

مولد الشاعر القروي

وُلد شاعرنا في قرية البربارة التابعة لقضاء جبيل [لبنان] ليلة عيد الفصح في الخامس من نيسان ١٨٨٧ . ويملق الشاعر القروي في

مقدمة ديوانه المطبوع في سان باولو عام ١٩٥٢ على تاريخ مولده فيقول: « فاذا أضفنا الفرق بين الحسابين : الشرقي والغربي ، وهو في القرن الماضي ١٢ يوماً ، كان تاريخ ولادتي بالضبط ١٧ نيسان ، وهو عيد الجلاء في سورية . وقد ارتجلت بهذا الاتفاق السعيد ، بيتين افتقدتهما ولا أذكر غيرَ الثاني وهو :

إنْ فاخرَ الناسُ بأعيادهمْ فعيدُ ميلاديَ عيدُ الجلاءْ

أسرة الشاعر ودراسته

أبوهُ سليم الخوري ، وأمُّه تقلا الرحباني . وكان جدُّه طنوس طبيباً ، نقلَ عن ابن سينا عدة كتب وجلدها بيده ، وكان يضيف اليها كلَّ ما يقع عليه من مستحدثات الطب (١) . وقد تلقى رشيد دروسه الابتدائية في مدرسة قريته . ولما ناهز الثالثة عشرة من عمره، تلقّى علومه الثانوية في مدرسة الفنون الاميركية بصيدا ، وفي مدرسة سوق الغرب ، وفي الكلية الانجيلية ببيروت . ثمَّ انصرف إلى التعليم في عدد من المدارس والمعاهد في جملتها الكلية الشرقية في زحلة، وكان متضلعاً من قواعد الفصحى ، ملماً الماماً واسعاً بآراء كبار علماء الصرف والنحو . ولهذا كانت لغتهُ قوية سليمة من كل خطأ .

هجرته الى البرازيل

في أول آب ١٩١٣ غادر لبنان إلى البرازيل ، يصحبه أخوه قيصر وزوجته وطفلتهما ، فوصلوا إلى مدينة مريانا التابعة لولاية ميناس حيث يقيم عم رشيد وقيصر وكان قبطاناً في الجيش البرازيلي ، وهو

---

(١) مقدمة [ديوان القروي] الصفحة (ط) .

الذي رغّبَ رشيداً في السفر وأرسل اليه نفقات الطريق .

وبدأ رشيد يكافح في سبيل العيش الحر الكريم ، ويقول الشعر الوطني المستحب . وكان يلبس الجوخة الانكليزية فقاطعها منذ انفضاح وعد بلفور سنة ١٩١٧ ولم يقبلها هـدية من صديق . وفي هذا الوعد يقول :

الحقُّ منكَ ومن وعودكَ أكبرُ فاحسبْ حسابَ الحقّ يا متجبرُ
لو كنتَ من أهل المكارم لم تكنْ من جيبِ غيركَ محسناً يا بلفَر
يا عربُ والثارات قد خلقت لكم اليومَ تفتخرُ العلى إن تثأروا
يدعوكَ شعبُكَ يا صلاحَ الدينِ قمْ تأبى المروءةُ أن تنامَ ويسهروا

والقصيدةُ كلها على هـذا الطراز البديع من القوة والحماسة والاهابة بالعرب إلى أخذ الثأر ومحو العار .

وتحببت اليه فتاة انكليزية اسمها [مود] فجابهها بهذه القصيدة :

ولو لم تكوني فـرنجيّةً لكنتِ سعاديَ قبـل سعادْ
ولكنني عربيُّ المـنى عربيُّ الهوى ، عربيُّ الفؤاد
لعمركِ يا « مودُ » لولا ذووكِ لما ميّزَ الحبُّ بين العباد
ولا أكرهوا شاعراً أن يقولَ هذي البلاد وتلك البلاد
فهمْ أوغروا بالعداءِ الصدورَ وهمْ أضرموا النارَ تحت الرماد
فلا تعذلي شاعراً زاهداً وكم هامَ بالحبِّ في كل واد
فاني حرامٌ عليَّ هـواكِ وفي وطني صيحةٌ للجهاد

والشاعر عربي قح لا يميز في العروبة بين مذهب وآخر . وهو يرى النبيَّ العربيَّ ﷺ حاملاً رسالة الهداية والايمان والوحدة العربية .

وفي حفلة أحيتها الجمعية الخيرية الاسلامية في سان باولو سنة ١٩٣٣ ألقى قصيدة بمناسبة عيد الفطر السعيد ، جاء فيها :

أكرِّمُ هذا العيدَ تكريمَ شاعرٍ يتيهُ بآياتِ النبيِّ المعظَّمِ
ولكنني أصبو إلى عيد أمَّةٍ محرَّرة الاعناق من رقِّ أعجمي
إلى علَمٍ من نسج عيسى وأحمد و « آمنةٌ » في ظلِّهِ أختُ « مريم »

وكان الشاعر القروي انسانياً ، لم يجاره في انسانيته شاعر ، ولم يسبقه في ميدان الاريحية والكـــرم أديب . ومن أروع نفحاته المتضوِّعة بشذا المحبة والايثار قوله :

يا منْ قبضتَ عن الندى يُمناكا من حبَّةِ القمح اتخذ مثلَ الندى
هي حبةٌ أعطتكَ عشر سنابلٍ لتجـــودَ أنتَ بحبَّةٍ لسواكا
حلمتْ بأن ستميشُ في خبز القرى فتراقصت للموتِ تحتَ رحاكا
وكأنما الشقُّ الذي في وسْطها لكَ قائل نصفي يخصُّ أخاكا

ومن أوائل منظوماته قصيدة لم يخطر موضوعها على فكر شاعر ، فهي من المبتكرات الخالدة على الزمن . إنها قصيدة [حضن الأم] وفيها أن شاعراً شرقياً ملهماً ارتكب المحـرمات ، ولكن برُّهُ بأبويه خلصه من نار جهنم ، ونقله إلى حضن ابراهيم . بيد أنه تبرَّم وشكا وبكى بكاءً كاد يصير الفردوس مأتماً . وحنا عليه ربُّهُ فلم ينفع معه الحنان، بل بقيَ على تذمره وشكـواه ، حتى طلب أخيراً إلى رب العباد ، أن ينقله لحضن تلك التي غمرته بحبِّها ورفقها ورعايتها . يقول الشاعر :

فأطرقَ سيِّدُ الاكوانَ طرْاً لشكوى شاعر الغبراء واهتَمْ
وقال لنفسهِ هذا محالٌ .. أيعلمُ شاعرٌ ما لستُ أعلَم
أينعمُ خاطئٌ في الأرض قبلي بما أنا لستُ في الفردوس أنعَم

لأكتشفنّ هذا السرَّ يوماً ولو كلّفتُ أن أشقى واعدَمْ
وكانت ليلةٌ وإذا صبيٌّ صغيرٌ نائمٌ في حضن مريم



الشاعر القروي مع عبدالله حلاق وزوجته

شاعرية القروي

من يتعمّق في دراسة شعر القروي ، يجده نابعاً من ذوب قلبه الطيّب ، ومن عصارة حسّه المرهف ، ومتألقاً بنور مقلتيه المشعتين بأضواء العبقرية . إنه يصور بريشة الوحي المصفّى ، الاشباح المتلاطمة في أعماق النفوس ، ويسمعك بوضوح عجيب ، ما يدمدم في صدور الشعوب المرهقة المتحفزة ، من أعاصير الآلام المبرّحة ، ويجعلك تلمس بأصابع عينك ما حفرته سياط الظالمين على جباه الضعفاء ، وظهور المستضعفين من أخاديد وجراح لا تبلسمها إلا انتفاضة الكرامة ، ووثبة الثأر .

كان الشاعـــر القروي ، يستطيـع أن يقبّل ألف أسخريوطي يحتال على صلبه ، ويقوى على جـرف العداوات كلها بما كان يغمر قلبه من عاطفة سمحة ، ولكنه لم يكن يستطيـع أن يتهاون في حق أمته ، أو يصبر لحظة واحدةً على ما ينال من سيادتها ، أو يخدش سمعتها ، أو يشوّة تاريخها ولغتها التي أنزل بها القرآن الكريم .

كان الشاعـــر القروي ، أبعد الناس عن الانانيـة والغرور ، وأقربهم إلى التضحية ونكران الذات . فعرش شهرته في الوطن وخلف البحار ، لم يقم في قلب كل عربي مؤمنٍ بقوميته ، إلا دعائم وطيدةً أرساها بنثار وحيه ، وأصالة عروبته ، ونتاج قريحةٍ سخية ، تتدفق شلالات من الشعر الوجداني والوطني والانساني ، وتسقي تربة الآبـاء والأجداد بالعطر والحب الطهور .

أما أدبه الرصين ، فقد علّمنا ، ونحن تحت وطأة الانتداب ، أروع دروس الوطنية ، وجعلنا نحـذو حذوَه في حب بلادنا ، والسعي لتوحيد أمتنا ، وتعزيز مكانتها بالعلم والقوة والنضال المرير .

وفاة الشاعر القروي

وفي يوم الاثنين ٢٧ آب ١٩٨٤ ، انتقل رشيد سليم الخوري إلى الرفيق الأعلى ، بعد أن عاش سبعاً وتسعين سنة ، ملأ خلالها الوطن العربي ، شعراً قومياً مرصعاً بأغلى وأبهى وأندر جواهر الحكمة والبلاغة والتأنّق الفني .

إنّ إنساناً كالشاعر القروي ، لا يمكنُ أن يموت ، بل ينتقل من منازل الأموات ، إلى عوالم الاحياء ، وتحت إبطهِ الايسر ، قيثارة الابتكار ، وبين أصابـع يمناه مفاتيـح الخلود .

ناسك الشخروب

ميخائيل نعيمة

بسكنتا

بسكنتا قريةٌ لبنانية جميلة وادعة متوسدة على سفح جبل صنين المثلَّث الشكل والمرتفع عن سطح البحر بـ / ٢٦٢٨ / متراً . وبسكنتا نفسها ترتفع عن الأزرق الرجراج ، بـ ١٣٥٠ متراً ، وتمتاز بكرومها الخصبة ، وببساتينها الزاهرة ، وبمناظرها الطبيعية الخلاّبة ، وبمن أنجبت من فحول الشعراء والكتاب من أمثال : شكري وخليل غانم وكمدي فرهود كمدي وقريبه ميخائيل نعيمة ، الذي يُعدُّ اليوم ، عميدَ الأدب العربي ، ورجلَ الفكر المبدع ، والقلم الخلاّق ، وسيِّدَ البيان المشرق الوضاء .

كيف عرفت ميخائيل نعيمة

عرفتهُ منذ أكثر من نصف قرن ، وكنتُ في بسمة العمر ، وزهرة الصِّبا ، وكانت مشاعري تتفتَّح للأدب والحياة ، وتعشق تلك الروائع الشعرية الحاملة من المغرب إلى المشرق العربي ، صوراً وأخيلةً تمتاز بالجدة والرقة والجزالة . وكانت قصيدة [النهر المتجمد] التي نظمها نعيمة أولاً باللغة الروسية ، ثم ترجمها إلى لغته العربية . كانت هذه القصيدة سبب معرفتي به ، وإعجابي بخصب شاعريته ، وسمو معانيه ،

وقدرته الفائقة على اصطياد الأخيلة المصيبة ، وصبها في قالب شعري رشيق أنيق .

النهر المتجمد

كان نعيمة طالباً في كلية بولتافيا التابعة لأوكرانيا بروسيا ، حين رأى في السهل الأوكراني ، نهراً جمَّده البرد الشديد ، لم يعد يُسمع له خرير ، ولا يُرى له جمال ، فقال الطالب العربي اللبناني يصف ذلك النهر الصامت الحزين :

يا نهرُ هل نضبت مياهك فانقطعتَ عن الخريرْ
أم قد هرمتَ وخار عزمك فانثنيتَ عنِ المسير
بالأمسِ كنتَ مرنّماً بين الحدائق والزهور
تتلو على الدنيا وما فيها أحاديثَ الدهور
بالأمسِ كنتُ إذا أتيتُكَ باكياً سلّيتني
واليومَ صرتُ إذا أتيتك ضاحكاً أبكيتني
ها حولكَ الصفصافُ لا ورقٌ عليه ولا جمال
يجثو كئيباً كلما مرّتْ بهِ ريحُ الشمال
والحورُ يندبُ فوقَ رأسك ناثراً أغصانهُ
لا يسرحُ الحسونُ فيه مردّداً ألحانه
قد كانَ لي يا نهرُ قلبٌ ضاحكٌ مثلَ المروجْ
حرٌّ كقلبك فيه أهواءٌ وآمال تموج
يا نهرُ ذا قلبي أراهُ كما أراكَ مكبّلا
والفرْقُ أنك سوف تنشطُ من عِقالكَ وهو لا ...

بهذه القصيدة القوية في معناها ومبناها ، عرف الأدب العربي ، شاعراً مجدّداً ، مهر أدبنا ما كان يتوق اليه من حداثة الأسلوب وحسن الصورة ، وأثبت أنّ شعرنا قادر بأوزانه وقواعده الخليلية ، على استيعاب كل ما يطمح اليه المجدّدون ، من أفكار وأخيلة صعبة المنال .

ولنعيمة مقطوعة تفوح بشذا التفاؤل ، وتتيه ببرود قشيبة من الجمالية الروحية الحقة . وقد استهل ديوانه [همس الجفون] بتلك المقطوعة الهازئة باليأس ، والمبشرة بالخير والرجاء :

إذا سماؤكَ يوماً تحجّبَتْ بالغيومْ
أغمضْ جفونكَ تبصرْ خلفَ الغيومِ نجوم
والأرضُ حولكَ إمّا توشّحتْ بالثلوجْ
أغمضْ جفونكَ تبصر تحت الثلوج مروج
وإنْ بليتَ بداءْ وقيل داءٌ عياءْ
أغمضْ جفونكَ تبصر في الداء كلَّ الدواء
وعندما الموتُ يدنو واللحدُ يفغرُ فاهْ
أغمضْ جفونك تبصر في اللحدِ مهدَ الحياة

وهذه الروح التفاؤلية في شعر نعيمة ، تشبه كلّ الشبه ، تلك الروح الباسمة المرحة الخافقة في شعر ايليا أبي ماضي :

قال السماءُ كئيبة وتجهّما قلتُ ابتسم يكفي التجهّمُ في السما
قال الصبا ولّى فقلتُ له ابتسمْ لن يرجعَ الأسفُ الصبا المتصرّما
قال الليالي جرعتني علقماً قلتُ ابتسم ولئن جرعت العلقما
فلعلّ غيركَ إن رآكَ مرنّماً طرحَ الكآبة جانباً وترنما

ومنذ صباي رحت أطالع بشغف كل ما تبدعه براعة نعيمة من شعر ونثر وقصص، حتى أتيح لي في الخمسينات، أن اجتمع به تحت سماء الشهباء، وأن استمع إلى محاضرة قيمة ألقاهـــا في دار الكتب الوطنية، التي كان يتولى ادارتهـا أديب الشهباء الكبير الأستاذ سامي الكيالي. وعلى أثر المحاضرة، دعانا المحامي سامي ناقوز إلى تناول طعام العشاء على مائدته.

كنا ستة أشخاص: صاحب الدعوة والسيدة قرينته، والأستاذ المحاضر، والاستاذ الكيالي، والطبيب الشاعر الدكتور علي الناصر، وكاتب هذا المقال. وكان الاستاذ نعيمة على ارتياح شديد، لما لمسه في مستمعيه من تجاوب روحي، واندماج فكري في ما بسطه عليهم من نظريات وآراء قد تكون جديدة بالنسبة لبعضهم، ولكنه استدرك فقال: أتيت إلى حلب، وأنا على يقـــين تام، بأن أهلها يستسيغون هذه الألوان المطعمة بالفلسفة المبسطة، والمحلاة بفضائل المحبة والتضامن والايثار. ألم تكن حلب عاصمـة الأدب في العصر الحمداني؟ ألم يجتمع بباب أميرها سيف الدولة، نسور الشعر، وأقطاب الفن والبيان؟ وعلى رأسهم مالىء الدنيا وشاغل الناس أبو الطيب المتنبي؟

في منزل نعيمة

دارت الأيام، وأطل صيف ١٩٧٢. وكنا في مزرعة كفرذبيان في لبنان، وعلى بعد عشرة كيلومترات من بسكنتا. ومن يزر لبنان، ولا يهرع لزيارة ميخائيل نعيمة، فكأنه لم يحظ بزيارة الجبل الاشم.

وأسرعنا إلى بسكنتا، لنكحل عيوننا بالفيلسوف الاديب القابع في منزله المحاط بغابة صغيرة من الأشجار، والمطل على أحد شوارع القرية الوادعة.



نجوى الغروب

كان نعيمة في ذلك الوقت ، عاكفاً على تأليف كتابه [نجوى الغروب] فقام لاستقبالنا بقامته الفارعة وابتسامته الحلوة ، ورحب بي وبمن كان معي ترحيباً جعلنا نشعر كأننا نعرفه منذ طفولته .

ودارت علينا القهوة العربية الطيبة المذاق ، ودار الحديث عن الأدب في حلب ، وعن سيف الدولة وشاعره المتنبي ، وعن مجلة

ميخائيل نعيمة وصاحب الضاد في بسكنتا

[الضاد] وصلتها الوثيقة بالأدب المهجري . وكم شعرنا بالاعتزاز حين ظفرت منه صحيفتنا بكلمة ثناء وتشجيع .

وتكرم نعيمة فأسمعنا بصوت متمهل ولهجة متزنة ، يدخلان القلب ويحركان فيه اسمى مشاعره ، بعض ما فاض به خاطره ، من أفكار انسانية تعزف كلها على وتر المحبة : محبة الله والوطن والناس جميعاً . فالحقد والكراهية ناجمان كما قال : عن جهلنا لمن نحكره فنحقد عليه .

و [نجوى الغروب] حافل بكثير من الخطرات الروحية والفلسفية،

التي مرّت بفكر نعيمة فسجلها قلمـــه مظهراً فيها علاقته بالله وبالحياة وبأبناء الحياة ، ورأيه في المال وفي الحكم وعلاقة البشر بعضهم ببعض، ووصوله في نهاية المطاف ، إلى أن المحبة وحدها هي المفتاح لكل ما أغلق على الانسان من أسراره وأسرار الكون معاً .

وأشهد أن نعيمة في منتهى اللطف والتألّق الروحاني ، وطبعه ذو شفافية خارقة ، وبنعومة لامتناهية . وقد لمستُ فيه ـ رغم عظمته الادبية ـ براءة الأطفال ،وتواضع البنفسج ، وشذا الايمان ، وجاذباً سحرياً يشدك اليه برفقٍ ويدخلك في أعمـــاق ذاته ، ويجعلك تحبّه وتحترمه وتقدر آراءه مـع ما في بعضها من تطرّف يدعو إلى التساؤل والحيرة والتفكير العميق في مزايا هذا الانسان الكبير بعلمه وفكره وصوفيته .

شخصية نعيمة

ولد نعيمة في بسكنتا عام ١٨٨٩ ودرس في مدرستها الابتدائية، وظهرت عـليه علامات النجابة والذكاء منذ نعومـة أظفاره ، فـكان الأول في صفه .

وعندما بلغ ربيعه الثالث عشـر في عام ١٩٠٢ ، أرسل في بعثة إلى مدرسة المعلمين الروسية في الناصرة بفلسطين ، فبقيَ فيها أربع سنوات والتفوّق حليفه الدائم .

وتوقعت ادارة مدرسة المعلمين ما ينتظر هـذا الفتى من مستقبل باهر إذا هـو أكمل دراسته ، فأرسلته عام ١٩٠٦ إلى كلية [بولتافا] باوكرانيا ، فظلّ في تلك الكلية خمس سنوات درس خلالها الآداب والعلوم العالية وبرّز فيها كلها .

وفي سنة ١٩١١ توجّه إلى ولاية واشنطن حيث كان يقيم اخواه

في مـــدينة صغيرة تدعى [والا والا] ودرس الحقوق والآداب في جامعتها إلى عام ١٩١٦ وهناك قرأ [الأجنحة المتكسرة] وهي رواية لجبران خليل جبران ، فنقدها بمقال أرسله إلى مجلة [الفنون] التي كان يصدرها في نيويورك الشاعر السوري نسيب عريضة (١) . وبعد أن بيّن ما في رواية جبران من نقص فني من حيث تحليل العوامل النفسية ، وتصوير الاشخاص ، وتنسيق الحوادث وتطبيقها على الحياة ، انتقل إلى الحديث عن اسلوب الكاتب فقال : إنه أدرك سرّ الألوان والانغام في الكلام ، وسرّ التأليف بين تلك الأنغام والألوان ، وأنهى نعيمة مقاله بهذه العبارة المنصفة : « هناك فجر عصر أدبي جديد يطلّ ، والكاتب له مستقبل كبير في عالم الأدب » (٢) .

وأعجبَ بهذا المقال نسيب عريضة ، وبعض شعرائنا وأدبائنا المغتربين ، وبينهم جبران نفسه . وقد صاح يومئذٍ : من هـــو هذا ميخائيل نعيمة ؟ وأين كان مختبئاً حتى اليوم ؟ » ...

وتوالت مقالات نعيمة في النقد الأدبي إلى مجلة [الفنون] لعريضة ، و [السائح] لعبد المسيح حداد ، وكانا زميلي ميخائيل في المدرسة الروسية في الناصرة .

---

(١) ولد في حمص سنة ١٨٨٧ وتوفي في بروكلين ـ نيويورك ١٩٤٦ تعلّم في المدرسة الروسية بالناصرة ثم سافر إلى نيويورك وأسس فيها مجلة [الفنون] له ديوان شعر عنوانه [الأرواح الحائرة] وهو محفوظ في مكتبة صاحب مجلة الضاد .

(٢) شاكر الدبس ـ مجلة الضاد ص ٤٦٦ سنة ١٩٧١ .

مولد الرابطة القلمية

كان انشاء [الرابطة القلمية] في اليوم العشرين من شهر نيسان عام ١٩٢٠ ايذاناً باشراق شمس الأدب المهجري بمعناه الصحيح في أميركا الشمالية . ففي ذلك اليوم اجتمع . في بيت عبد المسيح حداد كلٌّ من : جبران خليل جبران ، ونسيب عريضة ، وندرة حداد ، ورشيد أيوب ، وميخائيل نعيمة ، وايليا أبو ماضي ، فتألفت منهم حلقة أدبية اطلقوا عليها اسم [الرابطة القلمية] سرعان ما انضمّ اليها وليم كاتسفليس ، ووديع باحوط والياس عطا الله ، ولم ينضم اليها أمين الريحاني مع أنه كان في نيويورك ، ولكنه كان كثير الأسفار ، صعب الشكيمة والقيادة .

جبران رأس الرابطة

كان جبران خليل جبران رأس الرابطة وقطب دائرتها ، وكانت مهمتها منحصرة في تجديد الصلة بين الأدب والحياة ، وإقامة مقاييس جديدة محلّ المقاييس القديمة في الأدب ، وتوسيع آفاق الانتاج الادبي في المقال والقصة والملحمة والنقد .

دستور الرابطة

كان للرابطة دستور وضعه نعيمة الذي لعب الدور الرئيسي في تركيز الأدب على دعائم الجِدّة والسلاسة ووضوح التعبير ومرونة الأداء . وخلاصةُ ما جاء في ذلك الدستور :

« ليس كل ما سُطّرَ على قرطاس أدباً ، ولا كل من حرّر مقالاً ، أو نظم قصيدة موزونةً بالأديب . فالأدب الذي نعتبره ، هو الأدب الذي يستمدُّ غذاءه من تربة الحياة ونورها وهوائها . والاديب

الذي نكرمه ، هو الذي خصّ برقة الحس ودقة الفكر وبعد النظر في تموّجات الحياة وتقلباتها ، وبقدرة البيان عما تحدثه الحياة في نفسه من التأثير .

وجاء في ذلك الدستور ، أنّ غاية الرابطة هو بثّ روح نشطة في جسم الأدب العربي وانتشاله من وهدة الخمول والتقاليد . ورسم جبران بريشته الساحرة ، شعاراً جميلاً للرابطة نُقشت فيه هذه الآية : [لله كنوز تحت العرش ، مفاتيحها ألسنةُ الشعراء] (١) .

وعرف أدبنا في هذه الرابطة ما كان يصبو اليه من تجديد وابتكار وتألّق في أثار إعجاب الناطقين بالضاد في كل مكان . وأقبل العرب في مختلف أقطارهم ، على قراءة آثار جبران ونعيمة وأبي ماضي ورشيد أيوب ونسيب عريضة وندرة حداد ، ولمسوا فيها الأدب البكر ، والتعبير الوجداني الصادق ، والصور الانسانية المستمدة من صميم الواقع ، والمعبرة في معظمها عن الشوق والحنين إلى الوطن الأول ، وإلى من لهم فيه من أحباء . وكان نعيمة وجبران وأبو ماضي أكثر رفاقهم انطلاقاً في آفاق الابداع والسمو الفني ورسم الاحاسيس البشرية بتفوق بعيد عن المغالاة وتخطي حدود الغلوّ والاغراق . وكان نعيمة على الأخص ، مشهوراً بالتعمق الروحي ، والتحليل النفسي ، والتصوّف الذاتي ، الذي اكتسبه في أثناء دراسته في معهد السينار [المعهد الديني] في مدينة بلتافيا الروسية .

---

(١) أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الاميركية لجورج صيدح ص ٢٢٦ .

ناسك الشخروب

الشخروب كهف منحوت في قلب احدى الصخور البالغة النقاوة، الصافية اللون في جرود صنين ، كان يلجأ اليه نعيمة في عهد طفولته ، ثم طفق يمضي فيه بعض أيام الصيف حيث يطلق لأفكاره العنان ، وحيث يجد في سكونه طمأنينةً نفسية مريحةً وحالمة ، ويرى أمامه الاودية السحيقة الممتدة حتى البحر الأبيض المتوسط .

لهذا لقّبه توفيق يوسف عواد مؤلف قصة [الرغيف] بناسك الشخروب ، كما لُقِّبَ بشاعر [همس الجفون] وهو الديوان الوحيد الذي طبعه في دار صادر ببيروت وأودعه مجموعةً من الشعر الوجداني المحلّى بأرق ما عرفه القريض من الوصف الصادق ، والعواطف المرهفة النابضة بالمحبة المجردة عن شوائب الانانية ، والخافقة بالنزعة الفلسفية اللابسة ثوب التعمق والشمول والالفاظ السهلة الممتنعة .

ويلاحظ ، أن نعيمة تأثر بالأدب الروسي ، أكثر مما تأثر بالأدب الانكليزي الذي درسه في الولايات المتحدة الاميركية . وفي كتابه [الغربال] الذي طبعه في مصر عام ١٩٢٣ ، اعلن الثورة الأدبية على القديم البالي ، واستهلَّ مؤلفه هذا بالمثل السائر : « من غربل الناس نخلوه » ولم يسلم أمير الشعراء أحمد شوقي من نقد نعيمة ، فقد هاجم قصيدته [بعد المنفى] وهذا مطلعها وبعض أبياتها :

أنادي الرسمَ لو ملكَ الجوابا ... وأجزيه بدمعيَ لو أثابا
نثرتُ الدمعَ في الدِّمن البوالي ... كنظمي في كواعبها الشبابا
رأى ميلَ الزمان بها فكانت ... على الأيام صحبتهُ عتابا

وعاب عليه وقوفه على رسوم الاندلس ، وسكبه الدموع عليها،

وشبّهَ قوله بقـول امرىء القيس [قفا نبكِ] وقول لبيـد [عفت الديار] وقول طرفة [لخولة أطلال] . لقد ودّ نعيمة لو ابتعد شوقي عن هذه الاساليب القديمة ، وطلع على الفصحى بمعان تمور بالجديد المبتكر من الشعر .

نعيمة يتأثر بجبران

في العشرينات من هـذا القرن لمع نجم جبران خليل جبران في سماء الأدب والفن . وملأ اسمه الوطن والمهجر ، وعشق الناس اسلوبه الكتابي ، وأفـكاره الجديدة ورسومه الرمزية المدهشة . وكان جبران يؤمن بنظرية التقمص وتناسخ الارواح ، فتأثر نعيمة بهذه النظرية التي ظهرت في الهند منذ زمن طويـل ، وأصبح من المنادين بها في العديد من مقالاته ورواياته وكتبه ، وخصوصاً في كتابه [مرداد] .

نعيمة في لبنـان

بعد وفاة جبران خليل جبران في نيويورك عام ١٩٣١ ، انفرطَ عِقد الرابطة القلميـة فعاد نعيمة إلى مسقط رأسه بسكنتا عام ١٩٣٢ ولزم الشخروب صيفاً وبيتـــه شتاءً وعكف على التأليف والتصنيف وتحبير المقالات . وكانت كبريات الصحف تتهافت على نشر نتاجه الفني بالافـكار الملهمة ، والخيالات المجنحة ، والأسلوب الرافل بحلل الاناقة والرشاقة والبلاغة المحببة إلى القارىء .

ونعيمة يغالي بحاسته الانسانية ، وبفلسفته الروحانية الهادفة إلى اصلاح المجتمع البشري بقوة الروح الـكامنة في أعماق الجسد .

يقول جورج صيـــدح في كتابه : [أدبنا وأدباؤنا في المهاجر

الاميركية] : « هـذه الفلسفة إن لم تخلد نعيمة ، يخلده أدبه كنـاقد وقاص وشاعر » .

مؤلفات نعيمة

أغنى نعيمة المكتبة العربية ، بمؤلفات كثيرة جليلة حسبنا أن نذكر بعضها . فمن كتبه ـ ومعظمها طبع عدة مرات ـ زاد المعاد . البيادر . لقاء . الاوثان . جبران خليل جبران . في مهب الريـح . صوت العالم . النور والديجور . مرداد . دروب . كـرم على درب . أبعد من موسـكو وواشنطن . اكابر . أبو رية . سبعون في ثلاثة أجزاء . اللقاء الاخير ، وعرّب كتاب النبي لجبران ، ودوّن كتاباً عن رحلته إلى روسيا بدعوةٍ خاصة من حكومتها . ونجوى الغروب . وله مئات من المحـاضرات والمقالات المنشورة في كـبريات المجلات وأمهات الجرائد ، ومسرحية (الآباء والبنون) نشرها يوم كان في أميركا .

نعيمة الشاعر

لم يكثر نعيمة من قـول الشعر ، ولـكن شعره مشبع بالفن الاصيل ، والذوق المترف ، والحس المرهف . وهو فوق ذلك ، غزير المادة ، جياش العاطفة ، مصور بارع لدقائق الحياة ، طلع على الفصحى بما هزّ عطفيها طرباً ، وملأ نفسها نشوةً ومسرةً وفخاراً . ولغة نعيمة صحيحة واضحة لا يمتورهـا الابهام . ويعدُّ كما يقول استاذنا الراحل رشاد عـلي أديب : « أقل شعراء العربية في المهجر خطأً في شعـره ونثره » .

عقيدة نعيمة المحبة والايثار

يبشر نعيمة بعقيدته في كل ما يكتب ويخطب ، فهو يريد أن

نوسّع أبواب أرواحنا كيلا يظلّ أحد خارجها ، وألا نبغض أحداً من الناس ، وإن كان لا بدّ لنا من البغض ، فلنبغض ما في الناس من ضعف وإثم .

يريدنا أن نبغضَ الشرّ لا الشرير ، لاننا إن أبغضنا الشرير أصبحنا أشراراً مثله . أما إذا أبغضنا الشر فقد نقتله ونهتدي إلى الخير.

يريدنا أن نكرهَ الظلم لا الظالم ، لأننا إن كرهنا الظالم ، كنا ظالمين مثله ، وإن أحببناه ، عرفنا العدل ، ورددنا الظالمَ اليه .

يريدنا أن نهرب من الجهل لا من الجاهل ، لانّ هربنا من الجهل اقتراب منَ المعرفة .

الناس عند نعيمة كالازهار الشائكة ، ان جئناها مغتصبين أدمت أيدينا ، وإن جئناها كالنحلة فتحت لنا قلوبها ، وأعطتنا كلّ ما فيها من حلاوة .

هذه شذرات من فلسفة نعيمة ، وهي قائمة على السلام والمحبة والتعاون والايمان بعمل الخير ونشر الرفق واذاعة المعروف . وكتبه كلها تبشر بصنع الجميل والتضحية في سبيل المجموع .

وخلاصة ما يقال في ميخائيل نعيمة ، إنه أديب عالمي ، وقف على قمة المجد وبيده مفتاح الخلود .



السيدة أم كلثوم


السيدة أم كلثوم

كيف عرفت أم كلثوم

كنتُ على موعد مع الحظ ، حين التقيت صدفـةً ، بكوكب الشرق السيدة أم كلثوم، وبنخبة ممن كان معها من شعراء وممثلات وممثلين ، اذكر منهم : أحمد رامي وصالح جودت وصلاح ذو الفقار وماجدة ونجاة الصغيرة .

تمَّ اللقاء في دارة صديقي خوجه شهاب الدين سفير الباكستان في القاهرة في صيف عام ١٩٦٠ ، وكنتُ يومها عضواً في مجلس الأمة في عهد الوحدة بين سورية ومصر · وتفضل سيادةُ السفير ، فقدمني إلى السيدة أم كلثوم ، بصفتي نائباً عن حلب ، وباعتباري ـ على حدّ قوله ـ أحد شعراء سورية المرموقين .

ولاحظت من المطربة الكبيرة لفتةً خاصة إلى الناحية الشعرية ، واهتماماً بارزاً بالأدب الوجداني . وكنتُ أعرف أنها منذ أمّت القاهرة في أوائل صباها ، بدأت بدراسة اللغة والشعر والأدب ، وطالعت عدداً



في منزل سفير الباكستان في القاهرة : من اليسار سفيرالباكستان وحرمه ـ أم كلثوم ـ ماجدة ـ صلاح ذو الفقار وعبدالله يوركي حلاق واقفاً

وافراً من أمهات الكتب العربية من أمثال : « الاغاني » لأبي الفرج الاصبهاني ، و « الامالي » لأبي علي مقالي ، و « مروج الذهب » للمسعودي و « العقد الفريد » لابن عبد ربه ، و « يتيمة الدهر » للثعالبي ، كما قرأت ديوان « الحماسة » لابي تمام ودواوين المعري والشريف الرضي ومهيار الديلمي والمتنبي وشوقي ورامي وغيرهم من الشعراء القدامى والمحدثين أصحاب الفكرة المبتكرة والديباجة الناصعة واللفظ الرشيق الأنيق.

نشأة أم كلثوم

أم كلثوم ريفية المنبت ، ولدت في قرية [طماي] من أعمال [الدقهلية] التابعة لمديرية المنصورة في شمال القطر المصري . وقد رأت المولودة

نور الوجود في ٣٠ كانون الاول « ديسمبر » عام ١٩٠٩ ودعيت [أم كلثوم] تيمناً بأم كلثوم احدى بنات النبي محمد ﷺ .

كان أبوها السيد ابراهيم قارىء قــرآن اشتهر في بيئته برخامة صوته ، وبراعة تجويده ، وحسن إنشاده ، ووفرة صلاحـه وتقواه . وكان يعلم ابنه الكبير تجويد القرآن الكريم ، وترتيل المدائح النبوية ، ليساعده بالانشاد في المناسبات الدينية التي كان يكثر الناس من اقامتها في ذلك الزمن ، والتي كان يعيش مما تدره عليه من أجر .

موهبة جديدة

في ذات يوم ، بينما كان الأب السيد ابراهيم على مقربــة من داره ، سمــع صوتاً لا عهد له بمثله ، فخيل اليه لاول وهلة ، أن ملاكاً يرتل بعض آيات الذكر الحكيم . فدنا الاب من مصدر الصوت ، فاذا بابنته ترتل انغاماً سحرية تملأ القلب خشوعاً . ولما سكتت اقترب منها وسألها بكل ما فيه لطف وحنان : « من أين تعلمت هذا الانشاد الجميل ؟ » فأجابته ابنة العشر سنوات : « منك يا أبي ، فقد سمعتك تعلم أخي فأحببت الكلام والنغم » .

ـ حسناً فعلت ، فان في صوتك عذوبة لا بد أن تثير إعجاب العمدة وكبار أهل المنطقة .

وعرض عليها أن يسمع العمدة صوتها ، فأبت وقالت إنها لا تريد أن تغني أمام أحد من الناس .

وتيقن السيد ابراهيم ، أن الله منحه مورداً جديداً ، يضاعف دخـــله ، ويجعله يحيا مع أسرته في بحبوحة وسعة . وظل بابنته حتى اقنعها بأن أداء المدائح النبوية مشرف .

ولم يكن من عادة الفتاة الريفية أن تغني أو تنشد القصائد في ذلك الوقت، وفي تلك البيئة الضيقة المحافظة ، فقنع الأب ابنته الصغيرة بقناع الفتيان . وهكذا حلّ المشكل ، وأخذ سكان [طماي] والقرى المجاورة لها يتحدثون عن هذا الصبي ذي الحنجرة الذهبية ، ويهرعون زرافات زرافات إلى سماع صوته الملائكي الفتان .

أم كلثوم في القاهرة

كانت القاهرة مباءة الفن والأدب معاً ، فعلى من يريد النجاح أن يشدّ اليها الرحال ، وأن يتعلم فيها أصول العزف والغناء . ففي تلك المدينة العربية الكبرى ، يجد المتفنن القدير من يسمعه ويقدره ويغدق عليه المال ، وفي القاهرة يظفر الناجح بصحف تمدحه وتبث له الدعاية الواسعة ، فيصل اسمه إلى أقصى أطراف المعمور .

وحتى يومنا هذا ، يصبو كل فنان ناشيء إلى القاهرة ، التي تضم معهداً للموسيقى ، وملحنين من الطراز الأول ، وأشهر الموسيقيين والعازفين ، بالاضافة إلى جماهير المستمعين .

وانتقل السيد ابراهيم وأسرته إلى القاهرة . وكانت ابنته في عمر البدر ، وقد قوي صوتها ، وحلت نبراتها ، وشرعت انوثتها تكتمل ، فطرحت القناع وراحت تصحب أباها وأخاها لاحياء الحفلات .

وشعرت امّ كلثوم بأنها يجب أن تدرس أصول الغناء ، لتستطيع أن تظهر في معظم الحفلات الرسمية والاهلية ، من دون أن يبدو منها أقل خطأ ، فدرست على محمود رحمة ، وعلى أبي العلاء محمد ، وكان رخيم الصوت رائع الاداء . وقد أشرف على ثقافتها الموسيقية منذ عام ١٩٢٤ . وبفضل ذكائها الحاد وموهبتها الفنية ، أتقنت العزف على العود ، وأحاطت

احاطة كاملة بضروب الاصوات ، وعلم الانغام ، وإنشاد الموشحات . وكانت في أول عهدها تعزف على العود وتغـــني ، ثم اختارت الغناء وانصرفت اليه بكليتها .

شهرة أم كلثوم

نستطيـع أن نقول ، إن شهرة ام كلثوم على مستوى الوطـــن العربي بدأت في عام ١٩٢٤ . ففي ذلك العام سُجلت على أقراص الحاكي القطع الغنائية التالية :

١ ـ خايف يكون حبك لي شفقة عليّ .
٢ ـ لي لذةٌ في ذلتي وخضوعي .
٣ ـ ما لي فتنتُ بلحظكِ الفتاكِ .
٤ ـ أيها الفُلكُ على وشك الرحيل . وهذه الأغنية من تلحين أم كلثوم نفسها .

وقد لاقت هذه الاغاني من الاقبال ، ما يعجز عن وصفه اللسان والبيان . ولا سيما قصيدة [ما لي فتنت] فقد كنا نسمعها في كل مكان ، فنطرب لها ، ونحسُّ بنشوةٍ سحرية تغمرنا وترنح منا الاعطاف .

أمّا الموسيقيون الذين لحنـــوا لام كلثوم بعد ذلك التاريـخ ، فأشهرهم الاساتذة : محمد القصبجي وزكريا أحمد ورياض السنباطي ومحمد عبدالوهاب ومحمد الموجي وبليـغ حمدي وسيد مكاوي . وأكثر الملحنين الكبار لصوقاً بفن أم كلثوم هو الموسيقار رياض السنباطي المتوفى في صباح اليوم التاسع من شهر ايلول « سبتمـبر » ١٩٨١ مخلفاً تراثـاً من أبدع الالحان وأكثرها عذوبة ورقةً وجمالاً(١) .

---

(١) ولد رياض السنباطي سنة ١٩٠٦ في قرية فارسكور الواقعة جنوبي غربي دمياط



السيدة أم كلثوم ورياض السنباطي

كيف تعرف رياض السنباطي بأم كلثوم

كثيراً ما تلعب الصدف دوراً مهماً في حياة المرء، ومن غرائب المصادفات، أن رياضاً كان في أحد أيام ١٩٣٤، في مقر شركة [اوديون] يسجل أغنية كان قد لحنها لينشدها بصوته وهي أغنية «على بلد المحبوب» وبعد قليل حضرت أم كلثوم فأسمعها مدير الشركة الاغنية فأعجبت بها غاية الاعجاب. وأبدت رغبتها في ادخالها في فيلم [وداد] وقد غنتها بالفعل في ذلك الفيلم (١).

يقول الاستاذ سمادة: «ومنذ ذلك اليوم بدأ التعاون بين رياض

(١) الاستاذ جبرائيل سمادة. مجلة الضاد العدد ١ ص ٢٦ عام ١٩٨٢.

السنباطي وأم كلثوم وقد لحن لهـا بين سنة ١٩٣٤ وسنة ١٩٧٣ ستاً وتسعين أغنية وقد أجمعت كلـــة أقطاب الفن ، أن السنباطي لم يبلغ منزلته الحقة بين المـوسيقيين الكبار ، ولم تأخذ شهرتهُ مداها ، إلا عندما أصبح يلحن لأم كلثوم (١) .

أم كلثوم تنتخب رئيسة لنقابة الموسيقيين

في سنة ١٩٤٠ ، انشئت في مصر نقابـة للموسيقيين ، فانتخبت أم كلثوم رئيسة لها وبقيت مشرفة عليها حتى عام ١٩٥٣ . ولا شك أن تلك النقابة قد ازدهرت في عهد سيدة الغناء .

وعندما وقعت كارثة فلسطين : جعلت أمُ كلثوم صوتها في خدمة القضية الفلسطينية ، وأحيت العديد من الحفلات ، رصدت ريعها لتلك القضية القومية . والمقربون منها يعرفون كم كانت طيبة القلب ، وافرة الاحسان إلى الطبقة الفقيرة . وكان لابناء قريتها الرقيق الحال ، نصيب واسع من عطائها ومحبتها واهتمامها بتحسين وضعهم الاجتماعي .

والحقُ أن لقائي بها تحت سماء القاهرة ، كان أقصى ما أتمناه . وقد عددت نفسي محظوظاً وهي تمدُ يدها لمصافحتي ، والابتسامة الرقيقة مرتسمة على شفتيها .

وكنت أعرف أن السيدة أم كلثوم ، بنت ابراهيم السيد ، وهذا اسمه الحقيقي ، متعددة المواهب ، ذات فطرة أدبية تدعو إلى الدهشة ، وصاحبة احساس مرهف تلمسه في نـبرات صوتها ، وحركات يديها ، أما ذوقها الفني ، فمن الصعب أن يوصف وصفاً أميناً صادقاً في بضع

---

(١) المصدر السابق .

صفحات . انها كتلة من المشاعر ، ومجموعة من الذكاء الوقاد ، والوعي المتصدي لكل خطأ أو نشاز . ولا شكّ أن استظهار القرآن الكريم في طفولتها ، هو ما حسّن مخارج ألفاظها ، ومكّنها من امتلاك ناصية النطق المنسجم ، واتقان الالفاظ اتقاناً لا تدانيها فيه مطربة مهما سخت عليها الدعاية بالألقاب الرنانة .

أم كلثوم ناقدة ادبية ممتازة

هذه العبارة سمعتها من فحول الشعراء في القاهرة . فقد كانت أم كلثوم تقرأ القصيدة مرةً واحدة ، فتعرف ما فيها من جمال ، أو ضعف في المعنى والمبنى . فاذا أعجبها الشعر نقلت نفسها إلى موضع السامع ، وأخذت تغربل كلمات القصيدة ، كما يفعل الناقد الحصيف ، وكثيراً ما كانت تستعين بأحمد رامي ، أو أحمد شوقي أحياناً ، على تغيير الفاظ لم تعجبها ، أو شطر بيت لا يلائم النغم . ونحن نعرف عدداً لا يستهان به من القصائد التي شملها التحوير والتبديل ، فجاءت على ما أرادت سيدة الغناء أن تجيء . ومن القصائد التي أصابها التحوير قصيدة [هذه ليلتي] للشاعر جورج جرداق .

أخلاق ام كلثوم

كانت أم كلثوم في منتهى الرصانة والرزانة والوقار ، ولم تكن على علوّ مقامها ، وبعد صيتها ، وذيوع شهرتها على شيء من الكبرياء ، بل كانت في غاية اللطف تفرض احترامها على الجميع ، وتجيد اجادةً بارعة الحديث في الأدب والتاريخ والاجتماع ، وإذا جاءتها نكتة لطيفة روتها بطريقة محببة .

من نكات أم كلثوم

أقام أحد كبار المصريين حفلة ساهرة أبدعت فيها أم كلثوم بغنائها وفنها . وبعد أن انتهت الوصلة الاولى من الغناء ، قام الجميع إلى المقصف . وسارت أم كلثوم بين حسين باشا رشدي وأحمد بك شوقي وكلاهما شيخ مقوّس القامة .

وقال لها أحد الحاضرين مازحاً : أنتِ الآن يا آنستي محروسة بعظيمين خطيرين .

فضحكت الآنسة ونظرت إلى يمينها ويسارها وقالت : نعم ، أنا محروسة لأني بين قوسين .

أم كلثوم تشهد ببراعة الحلبيين بالموسيقى

دار الحديث بين أم كلثوم وبيني عن الموسيقى والغناء فقالت : « إن أهل حلب ذوو آذان موسيقية سليمة تميز النغم الصحيح عن النشاز ، فهم فنيون بالفطرة يصغون اصغاءً تاماً للصوت الرخيم ، واللحن الجميل ، والاداء المتقن . وقد أطلعت حلب نوابغ الموسيقيين من أمثال : كميل شمبير والشيخ علي الدرويش وسامي الشوا . وقد رافقني سامي كثيراً بعزفه على كمانه المبدعة ، فكنت أظنه أحياناً يردد صوتي بواسطة قوسه وأوتاره ، فأعتزّ بمهارته ، وأشعر بموجة من الخشوع تغمرني ، عندما كنت أسمعه يعزف الأذان الكريم : « الله أكبر ، الله أكبر ، حيّ على الفلاح » . وإني لأذكر جيداً ، أن كثيراً من الحلبيين كانوا يتكبدون مشقات السفر ، ويأتون من الشهباء إلى هنا ، ليحضروا حفلاتي الشهرية ، وكنت ألمح وأنا على المسرح ، أن عيونهم وقلوبهم

وأذهانهم معي ، وأنهم أكثر الحاضرين تأثراً بنشوة الصوت والموسيقى والايقاع » .

معجزة الفن

كان سامي الشوا نفسه ،يرى أنّ أم كلثوم معجزةُ الفن ، وأن الاجيال لا يمكن أن تخلّف واحدةً مثلها إلا نادراً جداً . فطبقات صوتها في أعلى ذروة من السموّ والابداع . أما قرارها فآية لا يستطاع وصفها ، فهي تتحكم بصوتها كما تشاء ، وتتلاعب بنبراتها مثلما يحلو لها أن تتلاعب ، فلا البلبل يضارعها بتغريده ، ولا العندليب يدانيها بصداحه . فان قالت يا ليل ، شدّت اليها الافئدة ، وملكت المسامع والخواطر ، وان تتالت منها الآهات ، حارت الحساسين ، وخجلت الهزارات ، وانصتت نجوم السماء .

ام كلثوم في باريس

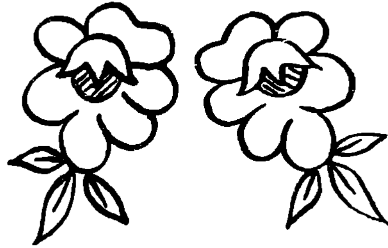
يوم غنت أم كلثوم في باريس ، سمع النقاد صوتاً لا عهد لهم بمثله رقةً وحناناً ورخامة . وقد كتب أحد النقاد الفرنسيين يقول : « لم أفهم الكلام ، ولكنني أؤكد ، أن حنجرة أم كلثوم ، كوّنت بعناية إلهية خاصة ، مكنتها من الشدو الملائكي العجيب » .

وقال ناقد فنيّ كبير : « من مهد حضارة عريقة باذخة ، سمعنا صوتاً حمل الينا نشوةً روحية عذبة تثبت لنا أن الشرق الذي أعطى العالم الانبياء والمرسلين ، أعطى أم كلثوم موهبة الصوت النازل من السماء » .

وقال ناقد صحفي آخر : « كنتُ أتمنى أن أفهم تغاريد هذا

البلبل الآتي ليس من عالمنا هذا ، بل من عالم مجهـول ، لأستطيـع أن أدرك أو أصف جمال الكلمة ، وروعة المعنى ، وسمو هذا الصوت الذي لفّني بموجة من الخشوع القدسي ، ونقلني على أجنحة النغم الشرقي ، إلى روحانية الشرق وصفائه » .

إن أقلّ ما يمكن أن يقال عن السيدة أم كلثوم ، إنها حافظت إلى آخر لحظة من حياتها ، على قدسية الفـــنّ ، وتمسكت بقوة ، بالاصالة العربية واللحن الجميل المنبعث من أعماق الروح الشرقية ، وترفعت عن كل ما يخـدش سمعتها أو يسيء إلى كرامتها ، وكرامة النهـج الفني الرفيـع الذي سلكته ، والذي كتب لها بعد رحيلها عنا ـ في يوم الاثنين ٢٢ شباط [فبراير] ١٩٧٥ ـ أروع وأشرف آيات المجد والخلود .



الآنسة ميّ زيادة

مي لا ماري



الآنسة مي زيادة

لم تحظ أديبة عربية في النصف الأول من القرن العشرين ، بمثل ما حظيت به الآنسة مي زيادة من شهرة ذائعة ، ومكانة اجتماعية سامية .

لم يكن اسمها ميًّا ، بل ماري ، وهو الاسم الذي أطلق عليها عندما ولدت عام ١٨٨٦ . ولكنها حين ترعرعت ومالت إلى لغة الضاد ، لم يعجبها هذا الاسم الذي عليه مسحة غربية . فاسم والدة السيد المسيح [مريم] لا ماري ، فما ضرها لو أخذت الحرف الاول والحرف الاخير من ماري ، وجعلت اسمها [مي] وهو عربي لا غبار عليه ، وفي أدبنا « فتاه اسمها « مي » وأبوها طلبة بن قيس ، وكانت من أجمل نساء

زمانها وأظرفهنّ » (١) حتى أن [ذا الرمـة] الشاعر الامـوي الكبير اغرم بحبها وعُرفَ بها .

ووافقت الام على الاسم الجديد ، واستحسنه ابوها الياس زيادة. وابتداءً من عام ١٩١١ ، أي بعد انتقال اسرتها إلى القاهرة ، صارت تعرف بهـذا الاسم الجميل . وقد وقعت بـه أول مقال عربي كتبته في انتقاد ما رأته في بعض النساء من تفاهةٍ تدعو إلى الاسى .

في مدرسة الراهبات الاجنبيات

تلقت مي دروسها في مـدرسة الراهبات الاجنبيات بعينطـورة بقضاء كسروان ـ لبنان ، وعرفت منذ صغرها بحدّة ذكائها ، وقـوة ذاكرتها ، وبراعة انشائها ، وحسن إلقائها ، وطلاقة لسانها . وكانت ادارة مدرستها تعهد اليها بدور البطلة ، في كل مسرحية تمثّل بمناسبة انتهاء الدراسة وبدء العطلة الصيفية ، فـكانت (ماري) ـ وهذا كان اسمها في ذلك الوقت ـ تبدع غايةَ الابداع ، في تأدية الدور الذي يسند اليها ، وكانت تميل إلى اللغـة الفرنسية وتجيد قـواعدها أكثر مما تجيد لغتنا · وهذا امر طبيعي في المعاهد الأجنبية .

أزاهير حـلم Fleurs de Rève

أول مـــــؤلفات تلك الفتاة ، كان ديوان شعر فرنسي عنوانـه [أزاهير حلم] لم تضع عليه اسم ماري الذي كانت تُعرف به ، ولـكنها وضعت [ايزيس كوبيا] . ولولا أن تغير ماري اسمها بعد ذلك ، لـكان من الممكن أن يبقى اسم ايزيس منطلقاً عليها . فايزيس ـ كما في التاريخ

---

(١) [مي أديبة الشرق والعروبة] لمحمد عبدالغني حسن ص ١٥

المصري القديم ـ أشبه في علاقتها بالاله بالسيدة مريم العذراء . وكوبيا هي بالفرنسية Copieux وبالانكليزية Copious وأصلها لاتيني يحمل معنى النماء والزيادة . فكأنها ترجمة لاسم جدها [زيادة] باللغة اللاتينية (١) .

بعد صدور هذا الديوان ، أخذ اسمها يظهر على صفحات الجرائد، ولا سيما في حفلة الكوخ الأخضر (٢) التي أقيمت لتكريم الفتاة اللبنانية ممثـــلة في [مي] باعتبارها فتاة موهوبة وخطيبة عميقة التفكير طليقة اللسان .

الياس زيادة ينتقل مع أسرته الى مصر

كان عام ١٩١١ نقطة تحوّل مهم في حياة « مي » وفي شهرتهـا كأديبة عـربية كبيرة أوجدت لنفسها مكانةً مرمـوقة بين رجالات العلم والفكر والادب ، في عاصمة تمجُّ بالكتاب والشعراء وأرباب الفن من كلِّ لون ومذهب .

تولى أبوها الياس اصدار جريدة [المحروسة] فبدأت مي تساعد أباها في تحرير بعض المقالات . ومنذ ذلك الحين انصرفت عن الكتابة بالفرنسية إلى الكتابـة بالعربية . وكان انطون الجميّل ـ وهو لبنـاني الأصل ـ يصدر مجلة [الزهور] فشجعها على الكتابة فيها لما وجده في أفـكارها من خامةٍ جديدة تبشّر بمستقبل أدبي زاهر .

وأكبت مي على دراسة العربية ، وقرأت بانهام طائفةً من أمهات كتبنا ودواوين شعرائنا القدامى من أمثال المتنبي والبحـتري وأبي تمام ،

---

(١) مي أديبة الشرق والعروبة ص ١٩ .
(٢) أقيمت الحفلة في ضهور الشوير بلبنان سنة ١٩١١ .

فوجدت فيها ما كانت تحبّه من أدب غـني مترف ، ورأت في كتب أبي العلاء المعري فلسفة صيغت شعراً وعبّرت عن أدق دقائق الحياة .

وصممت مي على أن تـكمل ثقافتها لتقتحم معاقـل الحياة مزودة بسلاح العلم ، فدخلت الجامعة المصرية القديمة ، واستمعت بكل ما تملك من وعي وانتباه ، إلى ما يلقيه أساتذتها من محاضرات قيمة تتعلق بالفلسفة والادب والتاريخ الاسلامي الذي أحبته كثـيراً وأولته المقـام الأول من نفسها .

مي والأديان

كانت مي على قدر كبير من التسامح ونكران الذات ، ولم تـكن تفرّق بين مذهب ومذهب ، وبين دين وآخـر . كانت تنظر إلى خُلُق المرء وعلمه ، ولا تنظر إلى ثروته وكـرم محتده . وكانت تؤمن بهذه الحـكـمة البليغة : « إذا ابغضتني لديني ، فقد خالفت دينـك » لأن الاديان السماوية كلها تأمر بالخير وتنهي عن المنكر ، ولأن الله تعالى هو ينبوع المحبة ، وما بُعِـثَ الرسل إلا لنشر الاخاء والوئـام والاحسان بين الناس .

ولدت مي في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر [١٨٨٦] على أرجح الأقوال ، في بلدة [الناصرة] بفلسطين من أب كاثوليـكي ماروني ، ومن أم أرثوذكسية ، وربيت في بيت وادع لم تسمع فيه كلمةً نابية من أحدهما ، ودخلت مدرسة تهتمُّ بالعلم والتربية المبنية على أسس انسانيـة وطيدة الاركان . ومن ذلك البيت ، ومن هذه المدرسة تشربت مي أصفى وأعذب المبادىء الخلقية . وحينما توجهت لمصر مع أبويها ، أحست في أعماق كيانها بشيء

خفي يدفعها إلى البذل والتضحية في سبيل اخوانا البائسين والمعذبين على الارض .

وأتاح الله لمي أن تجد بغيتها في السيدة هدى شعراوي ، زعيمة الاتحاد النسائي . فأخذت هذه بيدها ، وضمتها إلى صدرها وقبلتها قبلة الاعجاب ، وجعلتها في صفوف الحركة النسائية ، فقامت مي بالجهد الكبير ، والعمل العظيم ، وغدت من أقرب المقربات إلى أشهر سيدات مصر في ذلك الزمن .

شخصية مي

هل كانت مي جميلة الوجه ، ساحرة العينين ، هيفاء القوام ، صغيرة الفم والانف والاذنين ، حتى أحبها كل من رآها ، أو حضر منتداها أو سمع بها ؟

في الحقيقة ، لم تكن مي جميلةً بالمعنى الصحيح للجمال ، ولكنها كانت كما يصفها عارفوها – وسيمةً جذابة رائعة الذكاء رخيمة الصوت طلية الحديث . إذا نظرت اليك وهي تتكلم جذبتك اليها برفق ، ووجدت لها فسحةً في قلبك الخالي .

بيد أن حبَّ مي لم يتدنَّ يوماً ولم يعرف الاسفاف ، بل ظلَّ في أوج الكرامة والعفاف ، وجعل عدداً من مشاهير المصريين يسعون اليها مساء كل يوم ثلاثاء لينعموا بمجالستها ، وليشنّفوا آذانهم بأحاديثها الممتعة ، وبعزفها البديع على [البيان] وبما ينثره بعض الحاضرين ، من نكات طريفة لطيفة مستحبّة .

منتدى مي

ليست الندوة الادبية بدعة اختارتها الآنسة مي لتوسيع نطاق

شهرتها في ذلك البلد العربي الكبير ، الذي يعتبر بحق مركز اشعاع أدبي ، فيه تصدر أوسعُ الصحف انتشاراً ، وأجملها اخراجاً وطباعة، وفيه تطبع أثمن الكتب العلمية ، والدواوين الشعرية ، والمجلات الفنية المصورة .

لقد كان للشريفات المترفات من سيدات قريش ، منتديات يسودها الأدب والطرب ، وينشد فيها الشعر العفيف اللطيف . وأشهر تلك المنتديات ، كان منتدى سكينة بنت الحسين ، ومنتدى ولادة بنت المستكفي بالله في قرطبة بالأندلس ، ومنتدى الاميرة نازلي فاضل في القاهرة ، وكان يرتاده رهطٌ من أفذاذ العلماء والكتاب والشعراء من أمثال : الشيخ محمد عبده ، وقاسم أمين ، وأمير الشعراء أحمد شوقي .

أما منتدى مي فكان يحفل مساء كل يوم ثلاثاء بصفوة من رجال الفكر والصحافة نذكر منهم : خليل مطران وطه حسين وعباس محمود العقاد والدكتور مصطفى فهمي وانطون الجميّل ومصطفى عبدالرزاق وابراهيم عبدالقادر المازني وولي الدين يكن والدكتور شبلي شميّل والدكتور يعقوب صروف واسماعيل صبري باشا وأحمد لطفي السيد ومحمد حسن نائل المرصفي ومصطفى صادق الرافعي .

وكانت تحضر هذا المنتدى أحياناً السيدة هدى شعراوي ، وتجد فيه ما تصبو اليه نفسها من أدبٍ رفيع وحديث مفيد يدور عن العلم والثقافة ، وعن نهضة المرأة وأخذ حقها ووقوفها إلى جانب الرجل في معترك الحياة لكيلا يظل مجتمعنا واقفاً على رجل واحدة ، وعاملاً بيد واحدة .

كانت مي تجيد أربع لغات هي : العربية والفرنسية والانكليزية

والايطالية، ولكنها في منتداهـا كانت تفضل أن تتكلم بلغة عشيرتها . وكان يدور على الحاضرين شراب الورد المصنوع على الطريقة اللبنانية ، وكانت أمها تساعدها على العناية بالضيوف .

كان سرُّ جمـال مي كامناً في روحها ، وكان التماع عينيها يفتن الانظار ، وكأن في أعماقها شيئاً خفيـاً ، لعله هو الذي حيَّر الشاعر فقال :

شيءٌ بهِ فتن الورى غير الذي يُدعى الجمال ولستُ أدري ما هوَ

واتفق ان اسمـاعيل صبري ، كان بعيداً عن القاهرة في أحـد أيام الثلاثاء ، فأبرق إلى مي هذين البيتين اللطيفين :

روحي على بعض دور الحي حائمةٌ كظامىء الطير حـوَّاماً على الماءِ
إن لم أمتّع بمي ٍّ ناظريَ غداً لا كان صبحُكَ يا يومَ الثلاثاءِ

وكانت مي تدير الحديث بحلاوة لسانها ، ووفرة ذكائها ، وشمول ثقافتها الممزوجة برقة فطرية عجيبة . وكان الدكتور الشيـخ شبلي شميـِّل كثير الاعجاب بمي ، حريصاً على المشاركة في ندوة الثلاثاء ، وكان يصعد إلى منزلها بشارع مظلوم باشا على سلمٍ من نحو سبعين درجة ولا يتعب ، مع أنه كان ممنوعاً عـن زيارة بيت له درج . وكان الشميـِّل يعدُّ من فلاسفة الطبيعة . وقد أسمع ميّاً قصيدةً مطلعها :

هوَ الحبُّ اكسيرُ الحياةِ بلا ميرا ولولاهُ ما كانَ الوجودُ كما ترى

فابتسمت مي وقالت : صدقتَ ، ولـكن اعتراضي شديد على كلمتي [بلا ميرا] فاني أخشى أن يفتحَ القرّاءُ ميمها ، فتغدو [بلا مَيرا] وفي هذا ما يدلُّ على سرعة بديهة مي وبعد نظرتها .

مي وجبران

كانت مي تحبُّ التجديد في الصورة والنغم والخيال ، وقد لمست هذه العناصر الثلاثة في كتابات جبران خليل جبران ، فشغفت بها ، وبدأت المراسلة بينهما في سنة ١٩١٢ وكانت أول ما تسلمت من مؤلفاته كتاب [الاجنحة المتكسرة] . وقد شكرت له هديته ، وناقشته في موضوع الزواج الذي كان جبران يراه سلاسل ثقيلة حبكتها الاجيال ، مناقشةً لم تخلُ من الحدة والثورة لكرامة بنات جنسها .

هناك من يزعم ، أن عاطفةَ حبٍّ ثارت في قلبي مي وجبران . والحقيقة أن ميّاً أحبت أدب جبران وفنه ، ولم تحبَّ شخصه كما تُحِبُّ الحبيب رجلاً يريده رفيقاً لحياتـه . وفي رسالة مؤرخـة في ٦ ديسمبر « كانون الاول » ١٩٢٠ قالت مي لجبران : « لما كنتُ أجلس للكتابة كنت أنسى من وأين أنت ، فأكلمك كما أكلم نفسي ، وأحياناً كأنك رفيقةٌ لي في المدرسة ... إنما كانت تطفو على تلك الحالة المعنوية عاطفة احترام خاص لا توجد عادة بين رجل وفتاة » .

وتقول له في الرسالة نفسها : « وهل كان لديَّ وسيلة أخرى لاحولكَ عن هذا الموضوع ، وأذكركَ أني وحيدة ابوي » .

وتكتب له في موضع آخر من تلك الرسالة : « ... ثمَّ سطت عليك الكبرياء كبرياء الرجل ، فنسيتَ أن السكوت لا يحسن بنا على هذه الصورة نحن اللذين تكاتبنا أبداً كصديقين مفكرين .. نسيتَ أنَّ الموضوع الآخر جاء عرضاً ، وما دام أنه لم يكن الأصل ، فقد كان له أن يتلاشى ، دون أن يؤثر في علاقاتنا الادبية الفكرية » .

وبالرغم من رفض مي الزواج من جبران سنة ١٩٢٠ ، فقد

بقيت المراسلة بينهما مستمرة بضع سنوات ، ومن ذلك رسالة مؤرخة في يناير « كانون الثاني » سنة ١٩٢٥ تخبره فيها بأنها قصت شعرها الأسود المتموج الطويل .

تبادل الحب بين مي ومصطفى صادق الرافعي

كانت مي شديدة الاعجاب بالرافعي وبأسلوبه القوي المتميّز ، وبأفكاره العميقة الرائعة . وكان الرافعي حريصاً على حضور كل ندوة من ندوات مي ، وكانت مي تبالغ في إكرامه والحفاوة به . وفي الرسالة التالية ، تعرب مي عن حبها لذلك الكاتب المحلق الذي بادلها حبها العذري :

« أتذكر إذ التقينا وليس بيننا شابكة ، فجلسنا مع الجالسين لم نقل شيئاً في أساليب الحديث ، غير أننا قلنا ما شئنا بالاسلوب الخاص باثنين فيما بين قلبيهما » .

« . . . وشعرنا أول اللقاء بما لا يكون مثله إلا في التلاقي بعد فراق طويل ، كأنَّ في كلينا قلباً ينتظر قلباً من زمن بعيد .

« . . . ولم تكد العين تكتحل بالعين ، حتى أخذت كلتاهما أسلحتها ، وأثبت اللقاء بشذوذه ، أنه لقاءُ الحب ...

« وقلت لي بعينيك أنا .. وقلت لك بعيني : وأنا ... وتكاشفنا بأن تكاتمنا ، وعودت عينيَّ من تلك الساعة كيف تنظران اليك ... » .

والرسالة كلها على هذا النمط الرقيق البديع الذي فيه أبلغ رد على من ينكرون تبادل الحب بين مي والرافعي .

لقد كانت مي فتاةً من لحم ودم ، وكانت ذات عاطفةٍ جياشة ، وحس مرهف ، وقلبٍ متفتح للحب والجمال . وأذن المرأة كما يقولون أقصر طريق إلى قلبها . وكان الرافعي منشئاً بليغاً في كتابته عمق ، وفي حديثه جاذب يشد الافئدة ، فأحبته مي لهذه الصفات ، وأحبها الرافعي لرصانتها وأدبهـا وانسانيتها ، وفي اعتقادنا أن حبهما كان عفيفاً شريفاً لم تدنسه الاهواء ، ولا حامت عليه الشهوة ، فقد عصم الاثنان نفسيهما عما يخدش السمعة ، أو يسيء إلى قدسية الحب .

مي وأمين الريحاني

كان فيلـوف الفريكة أمين الريحاني بالنسبة للآنسة مي أكثر من صديق وفيٍّ مخلص . كان صديقاً وأخاً معاً . وبعد أن توفي والداها ، وأغلق منتداها ، وغالبتها الوساوس ، وهاجتها الهواجس ، ورجعت إلى لبنان تستشفي بجوه اللطيف ، ومناظره الطبيعية الساحرة ، لم تجد بقربها من يؤاسيها ، ويهوّن عليها محنتها ، إلا أمين الريحاني ، فقد وقف إلى جانبها ، وسعى في انقاذها واعادتها إلى مصر ، بعد أن قضت ثلاثة أعوام في مستشفى العصفورية ومستشفى ربـيز وفي ضيافة الريحاني بالفريكة . وقد كتبت له من القاهرة كتاباً في أربـع صفحات جاء فيه :

« وددتُ أن أصفَ لك مبلغ ما أشعر به من الشكر لما شهدته من همتكَ وأريحيتك في إنقاذي وفي مؤاساتي ، وفي تشجيعي إبان تلك المحنة كلها . ولكن شكري لـكم جميعاً هو الجو الذي يحيط بي ، وهي الروح التي تملي عليّ كل كلمة اخطها ، وهو التسبيـح الذي تسبـح فيه أيامي ولياليّ ، إنه رحيم شامل كنجدتـكم لي » .

اسلوب مي

امتازت مي بأسلوبهـــا الرقيق ، وبيانها المشرق ، وديباجتها الناصعة ، وما يحلّي ذلك من فكرة جديدة ، وابتـكار موفق . وقد زعم بعض النقاد أن هناك تشابهاً قريباً بين اسلوبها واسلوب جبران . ولكننـا نرى بعض التباين الواضح بين الاسلوبين ، فجبران يجنـح إلى الخيال ، ويهمل قواعد اللغة أحياناً كثيرة ، ويعبث بمفرداتها وألفاظها فيستعمل غـير الفصيح بـدلاً من اللفظ الفصيح السليم . وعلى سبيل المثال نورد بعض أخطاء جبران . قال في قصيدته [المواكب] :

فسارقُ الزهرِ مذموم ومحتقرٌ   وسارقُ الحقل يُدعى الباسل الخطِرُ

الصواب : (الباسلَ الخطر) بالنصب لأنّ الباسل مفعول بـه لفعل (يدعى) «والخطرا» نعت للباسل . واستعمل في القصيدة نفسها (مبتشر) بـــدلاً من (مستبشـر) واستعمل (تحممت) بـــدلاً من (استحممت) .

أما مي فانها متمكنة من لغتنا ، وفي كتابتها تبـدو شفافية نفسها وتعبر باسلوب جميل ومشوق ولطيف عن اغراض انسانية جليلة الفائدة . ولعلّ رسائلها أحسن ما كتبـت ، وأوضح ما عبّر عن شخصيتها أيام عزها ، وفي خلال محنتها القاسية . وقـد أغمضت مي عينيها عن هذا العالم الفاني عام ١٩٤١ بعد أن لجـــأت إلى محبسها الذي اختارته هي بنفسها لنفسها .

بعض ما قيل في مي بعد غيابها عنا

قالت السيدة هدى شعراوي رئيسة الاتحـاد النسائي في مصر :

« رأيتُ في مي انساناً غير عادي حباها الله - وهو واسع الفضل - بعقل كبير ، ولكنَّ قلبها كان أكبر من عقلها . فقد كان يتسع لمعانٍ شتى من الرحمة والعطف والحنان . وكانت مي عالية النفس ، فما عرفتها تدنت إلى دنيةٍ ، أو تنزلت إلى أسفل » .

وقال الدكتور طه حسين : « ... وما أشك في أن صالون مي قد أتخذ مثالاً لصالونات أخرى . ويظهر أني لن أنسى صوت مي حين كانت تغنينا أغنية لبنانية مشهورة [يا حنينة] وتغنينا في اللغات المختلفة وفي اللهجة العربية المختلفة أيضاً .

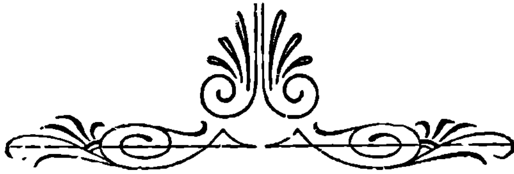
وقال عباس محمود العقاد : « الفرق بعيد بين مي وجبران خليل جبران ، فهو يتمثّل الخياليات ويسبح في الأثيريات . وليس في كتابات مي جنوح إلى الغموض ، أو ميل إلى اصطناع الأسرار على النحو الذي يشاهد في كتابات بعض أدباء المهجر وخاصةً جبران » .

وقال انطون الجميّل : « كانت مي على اطلاع واسع الحدود ، فسيح المعالم ، وكانت شخصيتها تشب مستقلة من خلال أفكارها وكتاباتها ، فما قلدت كاتباً ، ولا حاكت مؤلفاً ، ولكنها ترجمت خلجات نفسها ، ووحي ضميرها ، وسرَّ شعورها . وكانت رفيعة في نقدها ، رقيقة في مخالفة رأي غيرها ، فما آذت شعوراً ، ولا جرحت إحساساً » .

وقال الدكتور منصور فهمي : « ... ولقد أعجبت بالآنسة مي محاضرة كما أعجبت بها كاتبة ، ولا أعدو الحقَّ إذا قلت إنها كانت محاضرةً من أرقى طراز وأعلى غرار . فقد كان لها من عذوبة صوتها ، وحسن أدائها ، وحلاوة إلقائها ، ووسامتها وحسن سماتها معين على ذلك » .

وقال خليل مطران : « كلّ عناية مي كانت اصلاحاً في الاخلاق والآداب ، إصلاحاً في روح الأمم ومطالبها ، إصلاحاً في المعايشة بين الجنسين ، اصلاحاً في التربية - وخاصةً تربية الأطفال ، إصلاحاً في توزيع الاحسان وتدبير شئونه بدل أن يكون مقصوراً على صدقات تكاد تكون بلا قيمة » .

وقد عالجت مي في كتبها العديدة ، وفي خطبها ومحاضراتها كلّ هذه الموضوعات الاجتماعية والانسانية المهمة ، وكتب عنها كثير من الادباء ، ورثاها العديد من أقطاب الشعر والنثر ، ولكن أحسن كتاب صدر عنها هو [مي أديبة الشرق والعروبة] تأليف محمد عبدالغني حسن رحمه الله .



شاعر الاهرام
محمّد عبد الغني حسن

ألقاب الشعراء



شاعر الاهـــرام
محمـد عبد الغني حسن

درجت مصر في الثلث الأول من هذا القرن ، على تلقيب كبار شعـــرائها ، بألقاب تلائم مكانتهم الادبية، فلقبت أحمـــد شوقي بعد مبايعته بامارة الشعر عـام ١٩٢٧ بأمـير الشعـراء ، وأطلقت على حافظ ابراهيم شاعر النيل ، وعلى خليل مطران شاعـــر الاقطار العربية وعلى أحمـد رامي شاعر الشباب. وقد تنازع اللقب الاخير شاعران هما : رامي وعادل الغضبان . أما محمد عبد الغني حسن ، فقد عُرفَ بـ[شاعر الاهرام] .

شاعر الاهرام

لم يُلقب محمد عبد الغني حسن بشاعر الاهرام عبثاً ، فقد كانت شاعريته شامخةً كالاهرام ، واسعةً كالأفق ، عميقة كالبحر ، متألقةً بضياء الرقة والابداع والانسجام المطمئن . ولعل مصر لم تعرف بعد شوقي وحافظ ومطران ، شاعراً يجاريه في اصطياد الافكار الجديدة ، وسبك الألفاظ الملائمة لما يريد أن يقول ، ولما يحبُ أن ينظم من قلائد يزدان بها جيد الفكر والفن .

لقد خُلقَ محمد عبدالغني حسن ، وقيثارة الخليل بن أحمد الفراهيدي تحتَ إبطه ، وأنامله تُداعب برفق ، أوتار تلك القيثارة السحرية ، وتخرج منها أنغاماً علوية ، تترنح لها أعطاف الزمان ، ويبوؤها الخلود اسمى مكان .

كانت له قدرة المتنبي ، على الاتيان بالمعجز الفتان ، ولكنه لم يسعَ إلى قصور الامراء ، ولم يُعرف أنه تكسَّبَ بشعره ، أو مدح أحداً بما ليس فيه .

كان مخلصاً لشاعريته ، حريصاً على سمعته الأدبية ، يمتاز بعاطفة إنسانية صادقة ، وبحسٍ وطني مرهف ، وبنفَسٍ عربي قوي ، يجعل قصائده القومية قنابل تكافح أعداء العروبة . ولم يُسمع عنه أنه تذبذب كما تذبذب سواه من أدباء مصر كتوفيق الحكيم وصالح جودت اللذين بالغا في مديح الرئيس عبدالناصر . وعندما استأثرت به رحمة الله ، تمرَّغا على اعتاب الطاغية أنور السادات ، وتنكرا لقائد ثورة ٢٣ يوليو [تموز]١٩٥٢ تنكُّراً أقلُ ما يقال فيه ، إنه لا يصدر عن حملة أقلام يحترمون أنفسهم ، ويزنون كلامهم بميزان المنطق السليم .

لعنة الادب والامة

إن الأدب العربي والأمـة العربية ، يلعنان إلى الأبـد ، هذين الاديبين المنافقين ، اللـذين دفنا اسميهما في تراب الذل والهوان ، لأن كل واحد منهما كان ذا وجهين ، وذا لسانين ، ولم يكن على شيء من أخلاقنا وشيمنا نحن العرب الأوفياء .

محمد عبدالغني حسن يدخل المجمع العلمي

بهذا الاسم العطر ، وبهذا الماضي الحافل بالعلم والشعر والانتاج الأدبي الغزير ، دخل شاعر الاهـــرام ، مجمع الخالدين ، ورأس ماله خلق عربي أصيل ، ولغة متينة لا تخونه في معرض البحث والتدقيق ، وشعر يذكرنا بأكبر وأشهر من عرفتهم الضاد ، من بلابل القريض ، وعنادل التجديد ، وامراء الالهام .

دخل مجمع اللغة العربية في القاهرة متأخراً ، وكان من حقه أن يدخله قبل ذلك بزمن طويل ، لأنه يملك كل المقومات العلمية ، التي تؤهله أن يجلس بين شيوخ اللغة ، وسدنـة الفصحى ، والعلماء الملمين بما في معاجمنا من فصيح ودخيل وشارد .

وكان مجمع اللغة كريماً ووفياً لعضوه الراحل ، حين أقام له ، في يوم الاثنين ٤ [مارس] آذار ١٩٨٥ ، جـلسة علنية ، افتتحهـا الدكتور ابراهيم مدكور ، رئيس المجمع بكلمة بليغة أشار فيها إلى أن الاستاذ محمد عبدالغني حسن ، دخل المجمع في عام ١٩٧٨ ، وفي مؤتمر الدورة الخامسة والاربعين . وقـــد استقبله المجمع لأنه علم من أعلام اللغة والأدب ، ولأن المجمعيين كانوا حقيقة في حاجة ماسة اليه . وزاد الرئيس فقال : « ونأسف لأن الزمن تأخر بنا حتى انضم الينا » .

وراح الدكتور مدكور ، يُطري أعمالَ شاعر الاهرام ، ويذكر محاسنة وجهوده ، وما أداه للمجمع من خدمات جُلّى ، وعدّه بين الخالدين من أمثال : علي الجارم وعباس العقاد وعزيز أباظه . وبهذا منحه شيئاً من الانصاف . وهذا شأننا ، فاننا لا نلتفت إلى الأديب ، ولا نوليه أي اهتمام ، إلاّ بعد أن تمسي شمسُ حياته على أفق المغيب ، أو بعد أن تغيبه طبقات الثرى . وكم من أديب من حقه أن يتصدّر المجامع العلمية ، تلقاهُ في منأى عن كل تكريم ، وعن المجمع الذي يفيد من علمه ومعارفه . ولو سألت لماذا ؟ لعلمتَ أن أكثر رؤساء المجامع العلمية أو اللغوية ، يرون من أبراجهم العالية ، اندادهم صغاراً ، ويحسبون أنّ العلم محصور فيهم وحدهم ، لا يملكه سواهم من عباد الله تعالى .

شاعرية خصبة

كان شاعراً وجدانياً مبدعاً يختار لقصائده أجمل الموضوعات القومية والانسانية ، وينتقي لأبياته أرقّ الألفاظ وأكثرها فصاحة ، وأشدّها تأثيراً في القلوب والخواطر . وله في الطبيعة شغف خاص ، ولوحات فنية ، تكاد تسمع منها خرير السواقي ، وحفيف الاغصان ، وتغريد البلابل ، وترى على صفحتها ندى الفجر ، وبسمة الزهر ، وأسراب الغيوم الملونة بيد الشمس قبيل الغروب . فأسمعه يصف غابة يتعانق فيها الشجر ويفوح من جنباتها الشذا المنعش :

هذه الغابةُ فيها العيشُ - في ظلكِ - ناعمْ
إنّ رجْعَ النسَمِ العابرِ فيها كالحمائم
والشذا الفائحُ من أوراقها حلوُ المناسيم
والغصونُ اللدنُ تختالُ على رقصِ النسائم

وأنا الشاعرُ والوحي أمامــي فيك قائمْ
وأنا العابــدُ ، والقلبُ بمحرابكِ هـائم
آهِ لو دامتْ لنا الغابةُ هل في الكون دائم ؟
إنها الدنيا بســاطٌ ينطوي أو حلمٌ نائمْ ...

والطبيعة حبيبة إلى الشاعر الحقيقي يستمدُّ من مفاتنها مادةً غنية، ويجعلها المرآة الصافية الـتي تنعكس عليها شخصيته بـكل ما فيها من حسٍ وعاطفة . وها هو شاعرنا يتذكر [جيزة الفسطاط] فيتساءل في شوق مُلحٍ ولهفةٍ عارمة :

أينَ السواقي التي كانتْ مواجعُها كأنهـا بثٌّ ولهـــانٍ لولهانِ
وأينَ في الليلةِ القمراء مجلسنـا بالسفحِ من بنيةٍ دلَّتْ على الباني
كأنها وهي في الأجواء ضاربةٌ من صنعةِ الجنِّ لا من صنع انسان
وأينَ والزهرُ حلو في خمائلهـا وأينَ والظلُّ في أنحائهـا داني
أينَ الكرومُ التي قد كان يألفُها ويلتقي تحتَ ظلّيها الحبيبـانِ

واسمعه كيف يبدع في وصف الشمس البادية بأشعتها الذهبية بعد يوم مثلج ، وعندما تبزغ الشمس في البلاد الباردة ، تبعث فيها الحياة وفي أهلهـا النشاط :

الشمسُ تبدو في الثلوجِ كأنها زبَدٌ على بحـــرٍ عظيمٍ مزْبدِ
لاحتْ من الأفقِ البعيد كأنهـا أمـلٌ يـــلوحُ لراقبٍ مترصِّد
بعثتْ الى الوادي الحياة وأيقظت زُمرَ النيـامِ به وجمعَ الهجَّد
يتسابقونَ إلى الصعودِ كأنهم كانوا على بلجِ الصباحِ بموعدِ

ويقول في قصيدة [بحيرة دروانت] :

يا فضةً في الصخورِ ذائبةً بينَ الصخورِ الفســاح والمدَر

كأنما أنتِ فتنة رقدتْ تثيرُ فيها عواطفَ البشرِ
في نقرات الصخور جارية وتحتَ ظلّ الغصون والشجر
أناملُ الريح لاعبتكِ كما تلعبُ كفُّ القيانِ بالوتر
والماء ينسابُ في حشاكِ كما ينسابُ ذوبُ اللجين بالدرر
والعين ترتاحُ في رؤاكِ كما ترتاح عينُ السارينَ للقمرِ

ويقف شاعر الاهرام أمام البحر ، وعلى وجهه ألوان الحيرة ، وبين شفتيه أسئلة كثيرة لا يجد لها جواباً :

السحرُ في البحر أشكالٌ وألوانُ والحسنُ في البحر مفتونٌ وفتّانُ
يا ليتَ كنهكَ قد تدري بهِ فكري فالعقلُ في كنهكَ المخبوءِ حيرانُ

وتتجاذبه أيدي الحيرة ، وتتلاعب به الافكار والظنون ، ويغدو في تساؤله كمن قبضت يداه على الريح فيقول :

ظهرتْ على الأفق البعيد وخلفها دنيا مغيبةٌ الصوى لم تظهرِ
عجباً يلوحُ لنا القريبُ كواقعٍ ووراءهُ غيبٌ كسرٍ مضمر
من لي « بزرقاءِ اليمامةِ » علّني(١) أشتامُ ما خلف الستار الأكبر ؟

إن شاعرنا مفتونٌ بالطبيعة ، يهرع اليها ، ويستلقي في حضنها ، ويشوقه أن يناجيها كما يناجي الحبيب حبيبه . وها هو يقف أمام الساحل الرملي يخاطب الأزرق الرجراج ، بنبرةٍ وادعة صبَّ فيها كلَّ تساؤله :

يا واسعَ الصدرِ ، أسراري مكتّمةٌ فهل تصونُ صباباتي وأسراري ؟
وقفتُ والبحرُ قد جاشت ثوائرهُ كأنه قطرةٌ من مدمعي الجاري

(١) زرقاء اليمامة : لقب لامرأة في الجاهلية اسمها [حـذامِ] يضرب فيها المثل في حدة البصر .

والنسيم على عطفيه تمتمةٌ كأنها همسُ أطيارٍ لأطيارِ
وللطبيعة سحرٌ في شواطئه كأنما صنعتها كفُّ سحّارِ
وللعذارى على كثبان رملته مواكبٌ من جمال الصانع الباري
هذا هو البحرُ اوحت لي عرائسهُ عرائسَ الشعرِ من وحي وأفكار

وأستاذنا محمد عبدالغني حسن ، قانع بانسانيته وحريته وبما تحويه نفسه من قيم أخلاقية ، فاسمعه يقول على لسان عصفور ، لا مطمعَ له إلاّ بالانطلاق إلى حيث يشاء :

لا أحسدُ النسرَ على هذا الجناح الاطولِ
حُرٌّ فلا تحملني الأ طماعُ شرَّ محمل
لا قيدَ في نفسي ولا قيدٌ يمضُ أرجلي
لستُ أسيرَ شهوتي ولا رقيقَ مأملي
قد عصمتني فطرتي من كلِّ غلٍّ مثقل
على ضفاف الجدولِ ومائهِ المسلسلِ
الجوُّ لي ! والكون لي

وفي ديوانه [من وراء الأفق] نموذجات بالغة الروعة من القصائد المتسمة بسلاسة الأسلوب ، وجمالية التعبير ، وشرف اللفظ والمعنى ، وسهولة الحبك والسبك، وفيه من الموضوعات الغزلية والوصفية والوجدانية، ما لا تستحي الفتاة أن تتلوه على مسامع أبيها . فالشاعر حريص على حرمة الكلمة ، لا يختار إلا اللفظة العفيفة الخالية من كل ما يخدش الأذن ، أو يكسو الوجنةَ حمرة الخجل . وقد رأى ذات يوم فتاة عربيةً نابلسية من أسرة محافظة ، وهي تدخن بشراهة ، وقد لفّها الدخان المتصاعد من أنفاسها ، في شبه ملاءة دكناء ، وهي تنفث الدخان في عصبية لا تتفق مع جمال الانوثة ورقتها ، فوصف حالتها

بقصيدة شائقة نذكر منها المقطوعتين التاليتين :

اللفيفة القاتلة :

هذا الدخانُ شبهُ الضبابِ كأنَّهُ بحرٌ من السحابِ
أو جبلٌ عالٍ من التراب أو هالةٌ حالكةٌ الاهاب
أو ليلةٌ مظلمةُ الجلباب أو سُدفة سوداءُ كالغراب
تلفُّ في صمتٍ وفي اكتئاب وجهاً نضيرَ الحسن والشباب
وتحجبُ البدْرَ بلا حجاب ما أحزنَ البدرَ في الضباب



هذا الجمالُ ليسَ لامْتهانِ وليسَ هذا الوجهُ للهوانِ
فمثلُ هذا الزنبق الوسنانِ ومثل هذا اللؤلؤِ النوراني
وهذه اللواحظُ الرواني وهذه المراشف الحواني
وهذه الأنفاسُ في الحسانِ كنكهةِ الربيعِ في نيسان
ما خلقتْ لنكهة الدخانِ ولونه المصفرّ في الاسنانِ

ويقال إنّ الفتاة النابلسية ، أقلعت عن التدخين ، عندما سمعت قصيدة الشاعر الذي كان من أعز أصدقاء أبيها .

بعض مؤلفات شاعر الاهرام

من وراء الأفق « ديوان شعر » . مي أديبة الشرق والعروبة . عبدالله فكري . ابن سعيد المغربي . حسن العطار . الشريف الرضي . جـوانب مضيئة من الشعر العربي . الفلاح . سائر على الدرب . وله عدد آخر من الكتب القيمة الأخرى ، في جملتها كتاب عن الأدب العربي في المهجر .

وعندما توفي الشاعر في أوائل عام ١٩٨٥ كانت له في دور النشر عشرة كتب ودواوين ، تنتظر دورها من سنوات .

إنّ شاعرنا من أكثر الشعراء والكتّاب انتاجاً وإبداعاً وعلاقات اخوانية مع العديد من كبار ادباء العالم العربي . والذين أتيح لهم أن يعرفوه عن كثب ، يدركون ما كان عليه من دماثة الخلُق ، ولطف العشرة ، والتمسّك بأواصر الصداقة ، والاقامة على الولاء المتين ، وكان انسانياً محبّاً للخير ، ساعياً إلى المعروف ، متحسساً همومَ الناس، عاملاً على جبر عثرات الكرام ، باعثاً الرجاء في قلوب اليائسين ، غيرَ قانط من رحمة الله ولطفه وعطفه اللامتناهي :

قل للفقيرةِ كلُّ ليل زائلٌ ... والفجرُ أقبلَ بالضياء بشيرا
إنّ اللياليَ قد تبدّل بؤسها ... وغدا العسيرُ من الامور يسيرا
عينُ العنايةِ لا تزالُ رحيمةً ... تشفي السقيم ، وتجبر المكسورا
فتعيدُ مهزومَ الأماني ظافراً ... وتردُّ مقهورَ المنى منصورا
وتضمّدُ الجرحَ البليغ بأنفسٍ ... قاستْ جراحاتِ الزمان دهورا!

كيف عرفت شاعر الاهرام

كان بدء تعارفنا الادبي ، كلة طيبة ، نشرها في الصفحة ٢٩٩ وما يليها ، من عدد « اغسطس » آب الصادر من مجلة [المقتطف] عام ١٩٤٣ ، ونوّهَ فيها بديواننا الأول [خيوط الغمام] الذي طُبع بالالوان مرتين خلال شهري نيسان وأيار ١٩٤٢ ، والذي وضعَ مقدمتهُ أمير القصة العربية في ذلك الوقت كرم ملحم كرم ، منشىء مجلتي [العاصفة] و [ألف ليلة وليلة] في لبنان .

وعندما أقمت في القاهرة بين عامي ١٩٦٠ - ١٩٦١ تعرفت بشاعر

الاهرام شخصياً ، فوجدته انساناً فيه تواضع العلماء ، وكرم العروبة ، وبراءة الاطفال . وكثيراً ما كنا نجتمع في منزله بشارع الفواكه بالدقي ، فكان يقوي فيّ الثقة بالنفس ، ويجعلني أشعر أنني ذو موهبة شعرية لا ينقصها الفن ، ولا تندّ عنها الرشاقة والجزالة والصور الجميلة والانغام الحلوة المزدانة بحلل وشيية من الوصف البهيج والعاطفة السمحة .

وبفضل تشجيعه ، دخلتُ خميلة الشعر وكنتُ أحوم حولها ، ووضعتُ ديواني الثاني [حصاد الذكريات] . وقد تلطّفَ الأستاذ محمد عبدالغني حسن ، فكتب ستّ عشرة صفحة بعنوان [الشعر شعور] قدّم بها الديوان ، وقال : « إن المدرسة التي تجمعني مع عبدالله يوركي حلاق ، هي المدرسة التي لا أرضى في الشعر عنها بديلاً ، وهي المدرسة التي وصلت ما بين ماضي الشعر العربي وحاضره ، لأنها تأخذ أروع ما في القديم ، وأصحّ ما في الحديث وأعقله وأرصنه ، وتخرج من ذلك شعراً لا هو بالقديم المقلّد ، ولا هو بالجديد المتهوّر ، ولكنه مزاج معتدل ، فيه الفكر الجديد بطرافته ، وفيه الطبع القديم بعراقته » .

وشاعرنا محمد عبدالغني حسن ، كان ينفر – كما أنفر – من هذا النمط العجيب الغريب المستورد الذي يسمونه خطأً « الشعر الحديث » . وفي مقدمته لديواني [حصاد الذكريات] أعلن رأيه في ذلك الكلام الهجين فقال : « إننا نقرأ في الشعر الذي يسمونه جديداً ، أو مجدداً ، كلاماً مرصوصاً على غير طريقة ، مخطوطاً على غير خطة ، لا تجد له النفسُ طعماً سائغاً ، ولا معنىً واضحاً ، ولا بيتاً يؤثر ، ولا شطرة تحفظ ، ولا مثلاً يسير ، كأنه وُلدَ ليكون ميتاً ، أو قُذفَ به من بطن قائله ليكون موءوداً . ولو أنك تساءلت ، بأي ذنب قتلَ هذا الموءود ؟ لجاءكَ الجواب حاضراً بأنه قُتل بيد صاحبه ... » .

تكريم شاعر الاهرام

إن مصر لم تقم بتكريم شاعر الاهرام على الوجه اللائق بشاعر عبقري ، وكاتب نابغ ومجمي واسع أفق العلم ، كان من أبرز أعضاء لجنة الشعر التابعة للمجلس الأعلى للآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ، وكان أكثر الكتاب والشعراء عطاء وبلاغـــةً وخلقاً كريماً وتمسكاً بالخير والوفاء .

كان جديراً بأن تكرّمه الدولة والشعب والوطن العربي معاً ، لأنه لم يكن لبلده وحده ، بل كان للعروبة كلها ، شارك في أفراحها وأتراحها ، وصاغ في أمجادهـا أحلى قصائده ، وأعزّ خرائـــده ، فان أردنا أن نكرمه حقاً ، فلننصب له في ساحات عواصمنا التماثيل الجميلة ، أسوةً بما يفعل الغرب تجاه عباقرتهم والمبدعين من أبنائهم ، ولنطلق اسمه على أهم شوارعنا وساحاتنا ، وعلى كبريات معاهدنا ومدارسنا ، ولنرصد الجوائز التقديرية للشعراء الذين ينهجون نهجـــه القويم ، في صياغة شعر جعله يباري الاهرام روعةً ومهابة وخلوداً .



الأخطل الصغير
بشارة الخوري

شاعر الهوى والشباب


الأخطل الصغير بشارة الخوري

يؤكد كبار النقاد العرب المعاصرين ، أن الشعر العربي لم يعرف في جميع عصوره الذهبية ، شاعراً غزلياً أبدع في جميع فنون الغزل كبشارة الخوري ، وحاول بعضهم أن يوازن بينه وبين عمر بن أبي ربيعة ، فرجحت كفة الأخطل الصغير على عمر ، وعلى كل من يسير في ركاب عمر ، من شعراء الغزل ، كجميل بن معمر ، وقيس بن الملوَّح الملقب بمجنون ليلى .

وشعر بشارة ، هو الشعر العاطفي المتدفق من ينبوع ثرٍّ يترقرق فيه التجديد ، ويفوح من جانبيه شذا الابداع . وقد حاول كثيرون

من الشعراء ، أن يقلدوه في هـــذا الميدان الفسيح ، فكان نصيبهم الاخفاق ، وكان الاخطل الصغير هـو السباق دائماً في قطف المعـاني السامية المبتكرة .

كان من حظ هذا القرن ، أن أنجب لبنان ، هذا الشاعر الغزلي الملهم ، الذي شاء الله أن يُخلَقَ شاعراً بكل ما في الشاعرية من سمو وإشراق . فأبدع أروع صور الحب والغزل ، في شعر وجداني جزل ، هو فيض الحنان ، وذوب الجنان ، وسحر البيان .

لماذا لقب بشارة الخوري بالأخطل الصغير

يحدثنا الأخطل اللبناني نفسه عن ذلك فيقول : « كان عهد جمال باشا في سورية ولبنان ، عهد النفي والمشنقة . وكانت الفكرة السائدة ، أن الحلفاء سيبعثون الامبراطـورية العربية ، وكانت الحاجة ماسةً إلى اثارة الخواطر في البلاد تعجيلاً ليوم الخلاص . ولم يكن ليجرؤ واحدنا ولو في الحلم ، أن يرسل كلة في سبيل النهضة ولو همساً . فكيف به إذا هو شاء أن يرسل قصيدةً يترجَّعُ صداها ؟ وكان يعجبني من الأخطل ـ غياث بن غوث التغلبي ـ خفة روحـه ، وابداعه في اصطياد المعاني يقودها ذليلة إلى فصيح مبانيه . وفوق ذلك ، فقد كان مقدماً عند بني أمية ، تتفتح له أبواب الخلائف يملـؤها ذلك الشرف الذي لا يبـلى ، والمجد الذي لا يفنى ، فرأيتُ وأنا أدعو للدولة العربية ، وموقفي منها موقف غياث التغلبي من دولة بني مروان ، أن أدلَّ على حقيقة الشاعر المتنكر ، فلم أرَ « كالأخطل الصغير » اوقّع به ما كانت تقطره القريحة المتألمة من شعر لم يبقَ لي منه ، إلاّ كبقية الوشم في ظاهر اليد » .

ومنذ ذلك الحين ، أي منذ الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨

لُقّب شاعرنا الكبير بـ [الأخطل الصغير] وشرع يصوغ قصائد قومية حماسية لم يكن يجـــرؤ على تدوينها والاحتفاظ بها خشية الجـواسيس والمحـاكم العرفية ، وكان أكثرها صورية ، تصدر احكامها قبل أن تستمـع إلى دفاع المتهم . وكان كل ما علق بذاكرة الأخطل ، مقطع واحد من قصيدة طويلة يقول فيه :

الجمْ لسانَكَ ألجمِ   فالمـــوتُ للمتكلّمِ
لا يسألونكَ إنْ أخذ   تَ أثمتَ أم لم تأثم
فالحبلُ شرُّ مرحبٍ   والعُنق خيرُ مسلّمِ
والسجنُ أكرمُ صاحبٍ   والنـفيُ أيسرُ مغنمِ

هكذا كان يُعامل أحـــرار العرب في بلاد يحكمها جمال باشا السفاح (١) القائد العام للجيش العثماني الرابع ، وهكذا كان الارهاب منتشراً في كل مكان . وكانت الجـاسوسية ذات أساليب ظالمة تحاسب العرب على النظرة والهمسة والالتفاتة ، فلا يكفي المرء أن يلوذ بالصمت، بل عـليه وهـــو يُجلد بالسياط ، أن يسبـح بحمد السلطان ، ويشيد بفضل الاستعمار .

الأخطل الصغير شاعر الوطنية

وما كادت تلك الحرب الضروس تضع أوزارها في أواخر عام١٩١٨ ، حتى انطلـق شاعرنا انطلاق السهم ، يكافح المنصر الطوراني ، ويناصر

---

(١) لُقّب بالسفاح لكثرة ما سفح من دماء بريئة زكية . ولد عام ١٨٧٢ واغتيل عام ١٩٢٢ في مدينة تفليس ، وهي تبيليسي Tbilissi الواقعة في جنوب غربي الاتحاد السوفياتي .

نهضة الاستقلالية ، ولولا بعض ما بدا من تذبذبه كقوله يوم نودي بالأمير فيصل بن الحسين ملكاً على سورية :

نادوا بفيصلَ في دمشقَ مليكا   لحكومةٍ لا تملك المتليكا (١)

كان شاعراً عربياً قومياً من الطراز الأول ، لأنه شارك في العديد من المهرجانات الوطنية ، بقصائد كلها قوة وروعة وجمال . وهذه قصيدة كان يريد إلقاءها في حفلة عزم الوطنيون على إقامتها في حمص ، تأييداً للجهاد الفلسطيني ، ولحقٍّ عربي يُراد اغتصابه ، ولكنَّ السلطة الفرنسية منعت تلك الحفلة ، فنشر الأخطل قصيدتهُ في مجلة المعرض اللبنانية . وهذا مطلع القصيدة وبعض أبياتها :

سائلِ العلياءَ عنا والزمانا   هل خفرنا ذمةً مُذ عرفانا
المروءاتُ التي عاشتْ بنا   لم تزل تجري سعيراً في دمانا
يا جهاداً صفّقَ المجدُ لهُ   لبسَ الغارُ عليه الارجوانا
شرفٌ باهتْ فلسطين بهِ   وبناءٌ للمعالي لا يُدانى
إنَّ جرحاً سالَ من جبهتها   لثمتهُ بخشوعٍ شفتانا
قمْ إلى الابطالِ نلمسْ جرحهم   لمسةً تسبحُ بالطيبِ يدانا
قمْ نجُعْ يوماً من العمرِ لهمْ   هبْهُ صومَ الفصحِ هبْهُ رمضانا
إنما الحقُّ الذي ماتوا لهُ   حقُّنا نمشي اليه حيثُ كانا

وقد أُخِذَ على بشارة الخوري ، تخاذله أمام سلطة الانتداب الفرنسي ، ولكنه عاد إلى جادة الوطنية الصحيحة ، بعد جلاء القوات الفرنسية عن ربوع سورية ولبنان ، وشرع يدافع عن قضايا أمته بقلبه ولسانه وبيانه ، ويذود عن معقل الضاد بقوة وصلابة واعتداد ،

---

(١) المتليك : عملة عثمانية من النيكل تعادل الفرنك السوري .

ويعطر المستعمرين ناراً حامية ، هي نار نقمته ، ولهب قريضه . وفي الشعر الوطني المنبعث من قلب الشاعر المؤمن بحق شعبه وقدسية أرضه، قوة عنيفة كاسحة ، ترهب المعتدين الآثمين .

وفي قصيدته [شاعر السيف والقلم] يخاطب لبنان بقصيدة منها هذه الابيات :

عذراً لمنْ ماتَ لا عذرٌ لمن سلما	إذا تهدَّمَ مجدٌ واستبيح حمى
شفاكَ داؤكَ، أشفى الداءِ أقتلهُ	للحُرِّ، إن صدمَ الاحداث فانصدما
لبنانُ ، هل لي الى أذنيكَ صاعقةٌ	يُزيل تهدارها من أذنك الصمما
قضى على الأسْدِ دهرٌ لا ذِمامَ له	أن تركبَ الموتَ حتى تنقذ الأجما
هذا شبابكَ يشقى في ضراعتهِ	وهو البراكين ، لكنْ يجهلُ الحمما

وفي أحد أعياد لبنان تفيض من قريحة شاعرنا قصيدةٌ يقول في مطلعها :

لبنانُ عيدٌ ما أرى أم مأتمُ	للهِ أنتَ وجرحُكَ المتبسِّمُ
عصروا دموعكَ وهي جمرٌ لاذعٌ	يتنوَّرونَ بها وصبحك مظـــلم
قلْ للرئيسِ إذا أتيتَ نعيمَهُ	إنْ يشقَ رهطكَ فالنعيمُ جهنَّمُ
أيطوّفُ الساقي هنا بكؤوسهِ	ويزمجرُ الجابي هناكَ ويُرْزِمِ ؟
تعرى الصدورُ هنا على قُبلِ الهوى	وهنـــاكَ عاريةٌ تنوحُ وتلطم
والكهرباءُ هنا تشعُّ شموسُها	وسراجُ أكثر من هناك الانجم

ونحن نجد في كثير من وطنياته ، نقداً لاذعاً مرّاً ، ولكنه يشبه في مرارته الدواء الشافي ، فهو يعالج أمراض مجتمعه اللبناني بالنصح والارشاد ، وينبه المسئولين إلى ما يسيء إلى الشعب ، إذا هم تركوا حبل الفوضى على غاربه . يفعل كل ذلك من دون أن يغضب أو يعاتب

أو يلجَّ في الخصام ، فاسمع منه هذا البيت الذي يقطر ايثاراً وتسامحاً :

لبنان شاعرك الذي غاضبتَهُ ترك العتابَ وقد اتاكَ يسلّمُ

هكـذا عاش اخطل القرن العشرين ، مصلحاً وادعاً ، لا يثور إلا لكرامته وكرامة أمته ومسقط رأسه لبنان . فلنسمعه كيف يخاطبه برفق العارف ببواطن الأمور ، الخبير بخفايا المستقبل :

لبنان ما لكَ إنْ غمزتُكَ تغضبُ أيجدُّ غيركَ في الحياة وتلعبُ ؟
إني هززتك في البلاء فلم أجدْ عزماً يفلُّ ولا إباءً يغضبُ
أما الشعوبُ فقدْ تألّفَ شملُها فمتى يؤلّفُ شعبكَ المتشعّبُ

وكأنه نظر بعين الغيب إلى ما يجري اليوم في لبنان ، من حوادث لم يعرف التاريخ أفظعَ منها ، ولا أشدَّ هولاً ووحشيةً ، فقال في قصيدته [الهازىء العظيم] :

لستَ تدري ولا أنا منك أدرى فعلامَ الخصامُ فالسِّلمُ أحرى
ويحَ هذي العقولُ لم تُصبِ الرّمية ، يوماً إلا لتخطىء عشرا
دونَ ما تبتغيهِ ، من كنهِ هذا الكونِ ، سرٌّ فيه الجوابُ استقرا
سمّهِ المعولَ المُطلسَم لا يُرجىء حفراً ولا يؤخـرُ طمرا
سمّهِ الهازىءَ العظيم إذا راقكَ ، أو سمّهِ ، إذا شئتَ قبرا

الشاعر والقصة الشعرية

في أثناء الحرب الكونية الأولى ، اشتهر في لبنان ، شاعران كبيران كانا بحقٍّ رائـدي القصة الشعرية في أدبنا المعاصر . الأول شاعر الأرز شبلي الملاط (١٨٧٥ - ١٩٦١) ومن رواياتـه الشعرية « الجمال والكبرياء » و « الوردة الذابلة » و « بين العرس والرمس »

و « خولة بنت الأزور » و « أم البنين » و « سيف ابن ذي يزن »
و « عاشقة الطيار » و « ملكة تدمر » و « عـــذراء بانياس » وقد
نشرت مجلة [الضاد] بعض الروايات المتقدم ذكرها ، فكان لها أجمل
وقع في نفوس قرائنا ، لأن عناصرها مستمدة من تاريخنا وواقع شعوبنا
وحوادث أيامنا .

أما الثاني ، فهو الاخطل الصغير . ومن رواياته الواقعية الحافلة
بمشاهـــد البؤس والحرمان رواية عنوانها [١٩١٤] فيها وصف دقيق
ومؤلم لحال لبنان ، أيام ضربته المجاعة ، وقضت على نصف سكانه تقريباً ،
وقد اضطرت عشرات من العذارى والمحصنات ، إلى بيـع العفة والكرامة،
ليدفعن غائلة الجوع عنهنّ وعمن حولهنّ من أطفال وأرامل وأيتام .

قصة المسلول

تعـدُّ من أحسن وأروع ما نظمه الاخطـل الصغير من قصص
شعرية حافـــلة بالموعظة ومليئة بالعبر . فالشاعر يصور فيها بمنتهى الدقة
والمهارة والشفافية الابـــداعية الصادقة ، فقيراً مشرّداً ، منحه الله
الشباب والقوة والجمال ، وحرمه الاهل والمأوى والمال ، تتصيّده بنت
هـــوى ، وتغريه بكل ما تستطيـع من فتنة ولطف ونقود . ويستسلم
المسكين اليها ،ويجعل شبابه وصحته طوع يديها.وعندما تقضي على نضارته،
وتـذوي زهرة صباه ، ويصيبه داء السل الخبيث ، تهجره كما هجرت
كثيرين من قبله ، وتتركه بين أنياب الرّدى ، يمجُّ ذوبَ رئتيه دماً ،
وأفلاذ كبدهِ قطعاً تنذرهُ بقربِ ساعته ودنوّ أجلهِ .

يقول الشاعر في وصفه :

هذا الفتى في الامسِ صار إلى رجلٍ هزيـــل الجسم مُنجردِ

متلجلــج الألفاظِ مضطربٍ ... متواصلِ الانفـاسِ مُطَّردِ
متجعدِ الخدينِ من سرفٍ ... متكسِّر الجفنين من سُهد
عيناه عالقتـان في نفـقٍ ... كسراجِ كوخٍ نصفِ متقد
تهتزُّ انمـلُه فتحسبَهـا ... ورقَ الخريفِ أصيبَ بالبرد
ويمـجُّ أحياناً دماً ، فعلى ... منديـلهِ قطعٌ من الكبـد
قطعٌ تـآبينٌ مفجِّعةٌ ... مكتوبـةٌ بدمٍ بغير يد
قطعٌ تقول له : تمـوتُ غداً ... وإذا ترقُّ تقولُ : بعد غد

والقصيدة كلُّها على هـذا الطراز الرفيـع من الصياغة المتينة ، والصور الوصفية المدهشة ، المتضمنة مواعظ قيّمة ، كم نحبُّ أن يعتبر بها أولئك المندفعون وراءَ اللذات الدنيئة ، والمتع المحرّمة الباطلة . وفي اعتقادنا أن قصـة [المسلول] فريـدة في أدبنا العربي . فهناك شعراء فحول عالجوا هـذا الموضوع بالذات ، ولكنهم قصرّوا في الميدان الذي كان فيه بشارة الخوري مجلياً ومحلقاً .

وللأخطل الصغير قصص شعرية بديعة في معناها ومبناها ، وكل قصة تنطوي على عظة بليغة لو وعيناهـــا لتجنبنا كثـيراً من العثرات والمطبات الخطرة . ومن قصصه الجـديرة بالحفظ والدراسة : [الريال المـــزيف] و [عروة وعفراء] و [سلمى الكورانية] و [سلفين وجيروم] و [من مآسي الحرب] ومعظم هذه القصص كتبت أيام الحرب العالمية الأولى ، فـكانت صوراً واضحة لما سادها من ظلم وجور وفتك وهدر قيم انسانية .

الناحية الغزلية في شعر الاخطل الصغير

يتجلى الفن الغزلي بأكـرم معطياته واسمى مبتكراته ، في شعر

أبي عبدالله الخــــوري ، فهو الشاعر الغزلي الأول ما في ذلك ريب . وغزله ذو طابـع وجداني فريــــد ، يفرض نفسه على أصحاب الذوق السليم ، والقلوب المولهة ، والنفوس المتيمة ، فيشدو به العشاق ، ويلمس فيه المحبون ، ما ينشدونه من مناجاة المحبين . ومن غزله الممتع قوله في قصيدته [الصِّبا والجمـال] :

الصِّبا والجمالُ ملكُ يديكِ	أيُّ تاجٍ أعزُّ من تاجيكِ
نصبَ الحسنُ عرشه فسألنا	من تراها لهُ ؟ فدلَّ عليك
فاسكبي روحكِ الحنونَ عليه	كانسكاب السماءِ في عينيك
كلما نافسَ الصِّبـا بجمـالِ	عبقريٍّ السنا غـاهُ اليك
ما تغنى الهزارُ إلاَّ ليلقي	زفراتِ الغرام في أذنيك
سكرَ الروضُ سكرةً صرعتهُ	عند مجرى العبير من نهديك
قتلَ الوردُ نفسه حسداً منك	وألقى دماهُ في وجنتيك
والفراشاتُ ملّتِ الزّهر لما	حدثتها الانسامُ عن شفتيك
رفعوا منكِ للجمال إلهاً	وانحنوا سُجّداً على قدميك

من حقّ هذه القصيدة أن تـدعى اليتيمة ، لأنها ترفـل بأبهى حلل الغزل ، وتمتاز بأزهى ألوان التجديد ، وتسمو بمعانٍ مبتكرة لم يتوصل اليها شاعر من قبـل . فانظر معي إلى : « والفراشات ملّتِ الزهر لما حدثتها الانسامُ عن شفتيـك » ألا ترى الشاعرية الحقّة متألقةً متجانسة الالفاظ في هذه الخريدة الاخطلية النادرة ؟ .

لم يكن الاستاذ محمد عبدالوهاب ـ وكان مطرب الملوك والامراء ـ في الثلث الأول من هذا القرن ، مخطئاً حين اختار هذه الرائعة الخالدة ، وغناها بصوته البلبلي الرخيم . وكنا في ذلك الزمن ، وما زلنا إلى

اليوم ، نحن بقايا الرعيل الأول ، نتشوق إلى سماع كلّ ما لحنه وغناه ذلك الموسيقار العبقري الكبير . أما أولئك الذين يظهرون كل ليلة على شاشة التلفزيون ، فبورك للمراهقين والمـــراهقات ، بأصواتهم الشبيهة بالعويل والصهيل ...

لقد اشتهر الأخطـل الصغير ، بعلو الفكرة ، وبعد الخيـال ، ونقاء الديباجة ، وسلاسة الالفاظ ، وجدّةٍ في المعنى والصوت والنغم ، فتهافت على غزله من كان يفهـم الغزل على حقيقته ، من أمثال أسمهان ومحمد عبدالوهاب وفيروز ومتري المرّ ومن هم على شاكلتهم . فما أروع فيروز حين تغني بصوتها الملائكي الحلو :

قـد أتاكَ يعتذرُ لا تسلْهُ ما الخبرُ
كلما أطلتُ لهُ في الحديثِ يختصرُ
في عيونهِ خبرٌ ليس يكذبُ النظرُ

وهي قصيدة في ثمانية أبيات تعدل ثماني مقطوعات ، ما ندّت عنها الرشاقة ، ولا فاتتها عذوبة اللفظ ، وشرف المعنى ، وترف الخيال .

الاخطل الصغير في حلب

كانت حلب في الثلاثينات ، تمتاز بحركةٍ أدبية واسعة ، وكانت تستقدم كبار المفكرين ، ليحاضروا فيها ، وهي نفسها كانت تعجّ بنخبةٍ مختارة من العلماء والمفكرين وحملة الاقلام ، وكانت الصحافة مزدهرةً فيها ، ومتعددة المذاهب والأهداف ، وكان اسم الاخطل الصغير يملأ الأسماع ، وشعره يهدهد القلوب والخواطر . وكان الحلبيون ، وهم في طليعة متذوقي الشعر الرصين المتين الحـافل بالرقة والجزالة والابداع ، يحبون أن يروا في بلدهم أبا عبدالله الخـوري الملقب بالاخطل الصغير ،

وكان الوطن العربي والمهجر الاميركي يحتفلان في ذلك الوقت ، باحياء الذكرى الألفية لأبي الطيب المتنبي، فنهضت حلب لاقامة حفلة يكرّم فيها الأخطل الصغير الذي نظم في الشهباء والمتنبي قصيدة لم يُنظَم أجمل منها ولا أروع .

وقام الاستاذ محمد سعيد الزعيم والحاج سامي صايم الدهر ، بدعوة الشاعر إلى حلب ، فلبّى الدعوة ، وأقيمت الحفلة بعد ظهر يوم الجمعة ١٨ تشرين الأول ١٩٣٥ . وفي هذه الحفلة ، أتيح لي أن أعرفه عن كثب، ثم بدأت بينه وبيني صداقة كان اعتزازي بها كبيراً .

حلب في شعر الاخطل الصغير

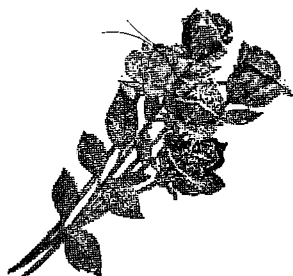
لم تظفر حلب ، بمثل ما ظفرت به من قدر وفخر ، إلاّ يوم أنشدها بشارة الخوري خريدته العصماء المشتملة على الوصف الصادق ، واللفظ الأنيق ، والخيال الوثّاب ، والمعنى المبتكر . لقد بدأ قصيدته بقوله :

نفيتَ عنكَ العُلى والظرفَ والأدبا	ـ وإن خُلقتَ لها ـ إن لم تزُر حلَبا
شهباءُ لو كانتِ الاحلام كأسَ طِلا	في راحةِ الفجر كنتِ الشهْد والحببا
لو ألفَ المجدُ سفراً عن مفاخره	لراحَ يكتبُ في عنوانهِ حلبا
لو انصفَ العربُ الاحرار نهضتهم	لشيّدوا لك في ساحاتها النصبا
ملاعبُ الصيدِ من حمدان ما نسلوا	إلاّ الأهلّةَ والاشبالَ والقُضبا
حسامهم ما نبا في وجهِ من ضربوا	ومُهرهم ما كبا في إثرِ من هربا
ما جرّد الدهرُ سيفاً مثل (سيفهم)	يجري به الدم أو يجري به الذهبا
ربّ القوافي على الاطلاق شاعرهم	الخلدُ والمجدُ في آفاقه اصطحبا
سيفانِ في قبضة الشهباء لا ثُلما	قد شرفا العرب بل قد شرفا الأدبا

وما زلتُ بعد نصف قرنٍ ، أتمثل الأخطل الصغير ، بقامته

النحيلة ، ووجهه الصغير ، وعينيه اللامعتين وراء نظارتيه ، ينشد بصوت هادىء عذب ، وبلهجة مضرية صافية ، تلك القصيدة الوصفية الفخرية الخالدة ، التي أحسسنا ونحن نسمع أبياتها ، بنشوة سحرية نقلتنا على أجنحة الأدب والفن ، إلى عالم آخر ، كله خير وبهاء وسناء .

وإنّ أقل ما يُقال في بشارة الخوري ، الذي كرم في حياته مراراً ، إنه شاعر غزلي لا ندّ له ، وهو فوق شاعر بني أمية ـ غياث ابن غوث التغلبي ـ شاعريةً وقدرةً على الصياغة والاستنباط والتحليق. فالشاعر الأموي ، لم يسمُ بشعره إلى ما سما اليه أبو عبدالله ، ولم يطرف الفن بما أطرفه به شاعر الهوى والشباب والأمل المنشود .



كَرَم مُلحِم كرَم

دير القمر



كرم ملحم كرم

دير القمر بلدة أثرية ذات مناظر طبيعية خلابة ، تقع في قضاء الشوف بلبنان ، وتمتاز بطيب هوائها ، وعراقة تاريخها ، وكثرة نوابغها في الأدب والسيـاسة . كانت بعد معركة مرج دابق، التي قضت على حـكم المماليك في القرن الرابـع عشر ،عاصمة الامراء المعنيـين ، ثم آل أمرها الى الامراء الشهابيين، ومن أوسعهم شهرة وقدرة على ادارة دفة الحـكم ، الامير بشير الأول المولود في راشيا ـ لبنان وهو ابن أخت الأمير أحمد آخر المعنيين .

وما زال في دير القمر حتى اليوم ، قصر [سرايا] فخر الدين ، ومعبـد سيدة التلّة . وعلى مقربـة من دير القمر ، تقع بيت الدين ،

أو بتدّين عاصمة الأمير بشير الثاني (١٧٦٧ - ١٨٥٠) وقد بنى فيها قصراً فخماً جمع فيه طائفةً من الادباء والاداريين ، وقد أصبح القصر متحفاً للتقاليد الشعبية ، وأضحت بيت الدين المركز الصيفي لرئيس الجمهورية اللبنانية .

في تلك البلدة الوادعة ، المطلّة على كثير من الاودية والرياض الزاهية ، وُلدَ كرم سنة ١٩٠٣ . وكان والده ملحم من مزرعة الشوف ، ووالدته سوسان من دير القمر . وما كاد يجتاز عهد الطفولة، حتى دخل معهد الاخوة المريميين في بلدته . وكان متفوقاً في جميع دروسه ، وذا حافظة عجيبة لا يتسرب منها ما تخزنه من علوم .

ثم توّجه إلى جونيه ، حيث أنجز دروسه عند الاخوة أنفسهم ، وفي المعهد الانطوني في بعبدا . وكان استاذه في اللغة العربية والبيان ، المعلم نعوم افرام البستاني ، وقد أفاد منه كثيراً ، وعُرفَ الفتى كرم بألمعيته وتفوّقه في الأدب العربي والفلسفة الغربية ، واشتهر بجمال انشائه وخطّهِ ، وروعة موضوعاته وحلاوة سبكها وسلاستها .

كرم يدخل ميدان الصحافة

كان كرم ملحم كرم ، يميل منذ نعومة أظفاره إلى الصحافة والقصة ، وكان له من ثقافته العالية ومن قلمه السيّال ، أقوى ظهير . فما كاد يبلغ الرابعة والعشرين من عمره ، حتى أصدر في عام ١٩٢٧ مجلة اسبوعيـة مصورة موعدها صباح السبت . وأصدر إلى جانبها جريدةً انتقادية سياسية دعاها [العاصفة] وجعل مقالاتها قنابلَ تدّمر المنحرفين والمستغلين والمتاجرين بأقوات الشعب .

والمعروف أن [ألف ليلة وليلة] كتاب قديم ينطوي على طائفة

كبيرة من الروايات الخيالية ، والقصص المخترعة ، والنوادر المستحبة ، بينها أخبار خلاعية يمجّها الذوق السليم ، وحكايات مكشوفة يستهجنها اولو الفضل والتهذيب .

ويقال إنّ مؤلف هذا الكتاب ، فارسي الأصل ، صنّف كتابه بلغته الفارسية ، ثمّ نُقل إلى العربية . وهناك من يقول إن مؤلفه رومي انقطع إلى العباسيين فأسلم ، وذكر في كتابه كثيراً من خرافات قدماء اليونان .

والرأي الراجح ، ان واضع [ألف ليلة وليلة] عربيُّ المنبت ، عاش في القرن الثالث عشر والرابع عشر – أي حوالي القرن الثامن للهجرة – وكان ذا إلمام واسع بكتب قدماء اليونان والرومان والهند والعجم ، فاقتبس من فنونهم ، وأخذ عنهم بعض قصصهم ، وزاد فيها ، وأضاف اليها ألواناً من مخترعاته الفكرية ، ثمّ جاء النسّاخ ، فأدخلوا عليها قصصاً وحكايات نسبوها إلى واضعها الأول .

كتاب ألف ليلة وليلة يصبح عالمياً

أحرز كتاب [ألف ليلة وليلة] على توالي العصور ، شهرةً واسعة النطاق ، فملأ ذكره الدنيا ، وشغل الناس ، ودفع جمهرة من كتاب الشرق والغرب ، إلى ترجمته وطبعه طبعاً متقناً ، تزينه الرسوم الملوّنة ، وتحلّيهِ التزاويق الشرقية المدهشة .

وبقيَ ذلك الكتاب متربعاً على سدّة الشهرة ، ومستأثراً باعجاب عشاق القصص ، إلى أن أطلّ كرم ملحم كرم ، بمجموعته الروائية المسماة أيضاً [ألف ليلة وليلة] فاذا بأنظار الناس تتجه اليها ، وإذا بهم يعجبون أشدّ الاعجاب بما تحويه من قصص جديدة مفيدة ، يوشيها

الفنّ الرفيع ، ويغذيها الخيال المرهف ، ويسودها الأدب الصحيح والابتكار المطمئن . فقد تعوّد كرم ، أن يُطرفَ قراءه بكل ثمين نادر ، وأن يعالج أهم النواحي الاجتماعية المستمدّة من حياة الشعب ، وأن يزفّ إلى الناس روايات كلها عبر وعظات وأحداث لم نعرف لها مثيلاً منذ قيام الارض .

لقد آلى كرم على نفسه ، الاّ يكتني بما أكتفى به المؤلف القديم المجهول ، فسار إلى هدفه ، وهو ينوي أن يزيدَ على أعداد مجلته عدداً واحداً ، فتصير [ألف ليلة وليلتين] .

وكنا نتلقف تلك المجلة ، فنشعر أن أدبنا تنبض فيه روح جديدة لم نعرفها من قبل ، وأن مجلةً حديثة تدخل قلوبنا فتملك مشاعرها ، وتشيع فيها نشوةً سحرية ، تجعلنا نترقب العدد التالي بشوق ولهفة عظيمين .

كرم ملحم كرم رائد القصة الحديثة

لا شك أن كرم ملحم كرم رائد القصة الحديثة . فقد وهبه الله قريحةً خصبة تتدفق بكل شائق ومثير ، وجعل فكره قادراً على التوليد والابتكار . وكنا نحار كيف يطلع في كل اسبوع على قرائه الكثيرين ، بقصة كاملة ، تتبعها قصة متسلسلة الحلقات ، رائعة السياق، مكتنزة اللحمة ، ذات اسلوب سلس ، يستهوي المطالعين ، ويجعلهم يرددون مع الشاعر : « هكذا هكذا وإلا فلا لا » .

وبعد أن سلخت تلك المجلة ثمانية عشر عاماً من حياتها النضالية، توقفت عن الصدور في سني الحرب ، ثم استأنفتِ مسيرتها بعزيمة واعتداد،

فكانت فخر المجلات القصصية ، وكان صاحبها أحد الاساطين الرواسي التي قام عليها أدبنا القصصي الحديث .

كرم يفي بعهده ويصدر الف قصة وقصتين

من كان قويّ الارادة ، صادق القول والعزم ككرم ، لا يمكن أن يتراجع عن هدفه ، مهما كان الوصول اليه بعيداً وشاقاً . فكلمة الرجل المجاهد سيدة الكلمات ، والوعد الذي يخرج من فمه صك مكتوب لا سبيل إلى اهماله أو الى الرجوع عنه .

وتابع كرم أداء رسالته الادبية ، بنشاط عجيب ، وقوة خارقة . فكان يجلس وراء منضدته الخشبية المتواضعة ، والقلم بيده ، وقصاصات من الورق أمامه ، يكتب عليها ما استوحاه من واقعة تنطوي على عظة بليغة ، أو على حادثة غريبة تشدّ اليها قراءه في كل مكان .

مطبعة ألف ليلة وليلة

كانت مطبعة ألف ليلة وليلة ، من بقايا مطابع القرن التاسع عشر : آلة طابعة ضخمة ذات دولاب كبير يديره محرك ذو صوت مزعج . ورغم ضخامة تلك الآلة ، فان أقصى انتاجها لم يكن يصل إلى ثمنمئة نسخة في الساعة .

كان موضع المطبعة بحي التينة في شارع سليم تقلا ، على رمية حجر من ساحة الدبّاس . وكان استاذنا كرم يلازم مطبعته من الصباح إلى المساء . فاذا جاءه صديق ، قطع بشفرة أمامه ، ما فرغ من كتابته وأعطاه للمنضد ، وتحدث مع الصديق، فاذا عاد المنضد، تابع كرم الكتابة من دون أن يراجع ما خطه يراعه ، وهذا من غرائب الاعمال الدالة

على ما كان يتمتع به من التركيز وقوة الذاكرة .

وظل كرم يواصل العمل ، حتى أصدر ألف قصة وقصتين ، تنبض كلٌّ منها بالفنّ والحياة ، وتزهو بالروعة والجمال . وبهذا استطاع أن يحقق معجزةً أدبية لم يحققها أحد قبله ، وقد لا يستطيع أن يحققها أحد بعدَه .

وليس هذا بمستبعدٍ من كاتب فذّ كبير ، ملك ناصية البيان ، وتبوّأ عرش البلاغة ، وحمل صولجان الابداع ، وهيمن على أم اللغات، فأخضعها ليراعـــه السيّال ، وخياله الوثاب ، وقريحته الزاخرة بالوحي والالهام .

لقد حقق كرم هذه المعجزة ، وأقام للقصة عرشاً في الأدب العربي ، وكان على خلو من كل أثر للقصة الراقية الاسلوب ، المبتكرة الموضوع، المنيمة إلاّ على العبقري المجدّد .

القصة الأخيرة

القصة الأخيرة التي أصدرها كرم بتاريخ ٦ آذار ١٩٥٤ ورقمها ١٠٠٢ عنوانها [توبة وغفران] وقد افتتحها بكلمة شكر ووداع قال في مطلعها :

« هذا هو عددنا الاخير من مجلة [ألف ليلة وليلة] . وإننا لننسلخ منه وفي القلب غصـة ، غصةُ المنقطع عن فنّ قضى في التوفر على انماشه خيرَ سنوات الشباب . وليس من اليسير أن ننصرف عن غرسةٍ سقيناها نور العين ، وخفقة القلب ، ورهافة الخيال ، كي تمسي شجرةً باسقة ، طائرة الأماليد ، وارفة الظلال ، وبهجتنا أنها أمست

هذه الشجرة ، مما يخفّف عنا بعضَ ألم الفراق ، وفي الجهاد الحلو الثمار ، وافر العزاء » .

لقد رافقنا مجلة [ألف ليلة وليلة] منذ نشأتها ، واطلعنا على مراحل جهادها ونضالها في سبيل الفن والأدب والتاريخ . وإنّا لنعترف مخلصين صادقين ، أنها مرآة انعكس عليها ، كثير من حوادثنا القومية والتاريخية ، ذلك لأن الاستاذ المشار اليه متفنن موهوب ، ومؤرخ دقيق ، في مقدوره أن يسبك أعظم الحوادث ، في قالب روائي ، يتحرى الصدق والدقة والانسجام ، وأن يخلعَ عليها من حلل بلاغته وبيانه ، ما يجعلها مرجعاً وثيقاً للباحثين .

زعيم التجديد في أدب القصة العربية

إن كرم ملحم كرم زعيم التجديد في أدب القصة العربية ، واستاذ الفن القصصي في دنيا العروبة ، وحامل لواء الابتكار في الحوار الروائي ، تطالع ما يكتب بلذة وشغف واهتمام ، وتقع في كل أثر من آثاره ، على طرافة الموضوع ، وأناقة اللفظ ، وسحر البيان ، وتنتقل معه على أجنحة الخيال ، إلى عوالم كلها فنون وفتون ، وكلها سناء وبهاء .

القصة العربية قبل كرم

كانت القصة العربية قبل كرم ، في دور الانحطاط ووهدة الخمول ، وكانت تسير برجل واحدة في طريق متعرّج ملتوٍ شائك ، غير أن كرماً نفخ فيها روحاً جبارة ، فاندفعت كالصاروخ ، في سماء الرقي المنشود ، وكان من نتاجها روايات مسهبة في غاية التألق والجمال كـ « المصدور » و « صرخة القلم » و « أشباح القرية » و « دمعة يزيد »

و « قهقهة الجزار » و « انتقام الخيزران » وسواها مما سنشير اليه في موضع آخر من هذا المقال .

كرم عَدوّ حرف الراء

كان كرم يكره حرف الراء ، لانه كان يلثغُ به فيقلبه غيناً . ولهذا ، كان يتحاشاه في خطبه ومقالاته الاذاعية .

وعندما مثّلتُ حلب ، في حفل ازاحة الستار عن تمثال الشاعر فوزي المعلوف(١) في مدينة زحلة ، دعتنا لجنة التكريم إلى مأدبة عشاء أقامتها في وادي العرائش بزحلة، وكنت جالساً بجانب كرم وأمامنا الشاعر الياس أبو شبكة . فأثيرت قضية تدشين مستشفى [تل شيحا] في تلك المدينة نفسها . وأراد أبو شبكة أن يثير حفيظة كـــرم ، فالتفت اليه وقال له : لقد اخترناك لتكون أحد خطباء حفل التدشين ، ولكنّ كرم اعتذر بلطف . وأصرّ أبو شبكة على رفـض اعتذاره ، وهو يريد أن يكشفَ رداءة نطق كرم بحرف الراء .

ولم يسع كرم إلا أن يقبل . وأدار وجهه نحوي وقال لي بصوتٍ منخفض : إنّ اللئـــيم يريد امتحاني وامتهاني معاً . إذن فلينتظر مني خطاباً يستمرُّ نصف ساعة وليس فيه حـرف راء واحد . وهذا ما أدهش سامعيه ، وجعلهم يعدون خطابه من المعجزات في حفل تدشين مستشفى [تل شيحا] .

---

(١) أزيح الستار عن تمثال فوزي المعلوف في مهرجان كبير أقيم بجانب فندق [قادري] بزحلة ، بعد ظهر يوم الاحد ١٢ ايلول [سبتمبر] ١٩٣٧ .

من مقالٍ خالٍ من حرف الراء

لكرم ملحم كرم كثير من المقالات والخطب الخالية من حرف الراء . وإلى القراء الكرام فقرةً من مقال بعنوان [اليازجيان] :

« . . . ومن أعلام الأدب المكتوبة بأيمانهم النهضة الأدبية الحديثة في عالم الضاد ، والخالعين عليها القوة والحياة ، هو الشيخ ناصيف اليازجي ، أحد المنشئين في ديوان الشهابي . فاليازجي وقد أوتيَ مضاءَ الحسّ ، وسعة القول ، تدفق عليه الالهام سيلاً جحافاً ، فبات النظم لديه سهلاً ، كأنه كلام يُلقى . فالقصيدة تهبط عليه بلا كدّ ولا اعنات ، فكأنها من المحفوظ ليس له إلا أن يخطّ كلماتها ليطلقها مجلوّةً ، تبعث في النفوس الاعجاب ، وتهيب بذوي البيان إلى استنزال الالهام ، واحياء الجديد (١) » .

كان عندما تمرُّ في سياق مقاله أو محاضرته كلمة « مصر » مثلاً ، يستبدلها بـ « وادي النيل » أو كلمة « الرشيد » يجعلها « أبا الأمين أو المأمون » أو كلمة « الأمير بشير » يضع بدلاً منها « أبا سعدى » وقد ألقى من اذاعة الشرق الأدنى اثني عشر حديثاً ، ولم ترد في أي حديث كلمة فيها راء . وما كان يعجزه غير اسمه وكنيته وفيهما راءان ، وكان يحب أن يُعرّف نفسه « بأبي ملحم » كما يحب أن يناديه الناس بذلك .

متى عرفتُ كرماً

عرفته عندما وقعت بيدي إحدى نسخ مجلته الروائية ، وكانت تضمُّ قصةً طريفة الموضوع ، رائعة البيان ، تعالج فكرةً انسانية

---

(١) مجلة [الضاد] العدد المزدوج ٣ و ٤ سنة ١٩٥٦ صفحة ١٠٢

دقيقة ، وتهدف إلى الخير الذي كان كرم من أقوى أركانه ، وأصدق دعاته ، وأعظم ناشريه ومؤيديه . وكان ذلك في عام ١٩٣٤ . فسعيت اليه إلى بيروت ، وقابلته في مطبعته بحي التينة ، ولمست من كرمه وعطفه وتشجيعه ، ما زادني اندفاعاً إلى خدمة الصحافة والأدب . وفي عام ١٩٤٢ ، حين أصدرت ديواني الأول [خيوط الغمام] جاد عليّ كرم بمقدمة استوعبت اثنتي عشرة صفحة من القطع الصغير ختمها بقوله : [أنت شاعر الطبيعة والعاطفة يا عبدالله ، ففنّ بالطبيعة وأصدح بالعاطفة ، فما الشعر إلاّ غناء . هاتِ من النواجب ما تبيح لك الموهبة ، فالقريض ما تجود به النفس ، لا ما تكره عليه . أعطنا الرصائع والشعرُ يرضى ، والأدب يقرُّ عيناً بالمتعة ، ونحنُ وأنتَ على هناءة وبشر] .

جريدة العاصفة

كانت من أوسع الصحف العربية شهرة ورواجاً وسطوة على المرتشين والمنحرفين والمتلاعبين بخيرات الوطن . فكرم ملحم كرم منشئها، لم يكن يحمل قلماً ، بل سيفاً مرهفاً يبري رقاب الظالمين ، ويمزق صدر كل من تسوّل له نفسه ، أن يمدّ يده إلى خزينة الدولة ، أو إلى جيب صاحب حقّ يُراد ابتلاعه . وكثيراً ما تعرضت « العاصفة » للتعطيل ، وسيق صاحبها إلى المحاكم فكان صوته يعلو ، وصوت الباطل يخفت ويسكت ، حتى غدت تلك الصحيفة منبراً للعدالة ، وملاذاً للضعفاء والموتورين وثقيلي الأحمال .

مؤلفاته المطبوعة

صرخة الألم . بونا انطون . دمعة يزيد . صقر قريش . المصدور .

انتقام الخيزران . أم البنين . يسرى شمعون . أشباح القرية . جفاف الزيزفون . عفراء . أطياف من لبنان . الشيخ قرير العين . اللحن الشرود . المجنون . الضفاف الحمر . قهقهة الجزار وقطاف العناقيد . وهذا الكتاب تولت مجلة « الضاد » طبعه في سنة ١٩٥٥ وقدمته هدية إلى قرائها ومشتركيها في الوطن العربي والمهاجر الاميركية . ويقول كرم إنه من أحسن كتبه .

مؤلفاته المخطوطة وكلها قصص

يقظة الرماد . الجياع المشرّدون . الناعسات . أميرة على الأمير . المساكين . زلفاء أخت الصقور . لبنى أخت الطيوب وغيرها .

والمطلعون على آثار هذا المنشىء البليغ الجبار ، يقدرون له عظم سعيه ، ويؤمنون بعبقريته الاصيلة ، ويعتقدون كما نعتقد ، أنه إمام الكتّاب ، وأستاذ الروائيين ، وحامل لواء التجديد في ميدان القصة العربية ، فكتابة ألف قصة وقصتين ، وخمس وعشرين رواية يتراوح عدد صفحات كل منها بين ٢٠٠ و ٤٠٠ . إن كتابة هاتيك القصص والروايات ، بمثل اسلوب كرم ، وحبكه المتين ، ولغته الانيقة الجذابة ، ليس بالشيء اليسير ، بل هو عبء ثقيل تنوء به مناكب جبابرة القلم ، وجهدٌ مضنٍ تعجز عن القيام به مجموعة كبيرة من أرباب التأليف والتصنيف . بيدَ أن كرماً ، تمكن من ترويض المستحيل ، ووفقَ إلى ما لم يوفق اليه غيره من المنشئين ، فهو يكتب بسرعة وبسهولة وجلد ، لم نلمسها في حامل يراع . وقوتهُ الفائقة في التعبير الدقيق ، عن خفايا القلب ، وخوالج الصدر ، وشئون المجتمع ، تجعله يحبِّر في ساعة واحدة ، ما لا يحبرهُ غيرهُ في بضعة أيام .

بهذه الصفات الأدبية المثلى ، مشى استاذنا كرم في طليعة العبقريين، وأدى رسالته السامية على أشرف وجه ، وأنبل قصد ، وأقوم سبيل ، ومهر لغتنا بأفضل وأجمل ما مهر به كاتب أمته ولغته . ومن ينظر إلى تلك الاهرامات من مؤلفاته ، لا يصدق أنَّ رجلاً واحداً ، مهما أوتيَ من صبر ونبوغ ، يقوى على تحرير تلك الاكداس العالية التي تعتبر بحقٍّ مكتبة قائمة بذاتها .

وفاة كرم

بعد جهاد أدبي عنيف ، استمرَّ أكثر من ثلث قرن ، توفيَ كرم ملحم كرم ، ليل ٢٩ – ٣٠ ايلول ١٩٥٩ ودُفنَ في مسقطِ رأسه دير القمر .

ان كاتباً هذا شأنه ، وهذه آثاره ، لجدير بتمثال من ذهب يقام له في عاصمة بلاده ، وفي كل عاصمة عربية ، لأنه حقق أمل القصة في أدب الضاد ، ورفع رايتها بين روائع القصص العالمية الخالدة .



بدوي الجبل

محمد سليمان الأحمد



ولد محمد الأحمد ، في بيت علم وأدب وفضل ، وفي قرية « ديفة » التابعة لمحافظة اللاذقية وكان أبوه علامة جليلاً ، وفقيهاً كبيراً متبحراً في اللغة العربية والشعر والتاريخ . وكان عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق .

وقد اختلف دارسو حياة هذا الشاعر على تاريخ مولده . فقال بعضهم كسامي الكيالي والدكتور عمر الدقاق ، انه ولد عام ١٩٠٣ وقال غيرهما أنه ولد سنة ١٩٠٤ وجاء في كتاب (من هم في العالم العربي) لجورج فارس ، أنه ولد عام ١٩٠٨ في اللاذقية .

شاعر العرب « بدوي الجبل »

وقال أديب (جبلة) (١) وعالمها المغفور له رشاد علي أديب ، إنه ولد عام ١٩٠١ في قرية ديفة التابعة لمنطقة الحفة ، وانتقل مع أبيه إلى قرية السلاطة التابعة لمنطقة القرداحة . وكانت في ذلك الحين تابعة لقضاء جبلة . بيد أن قيده في السجل المدني ، يدل على أنه من مواليد سنة ١٨٩٨ .

وبالرغم من تضارب الأقوال حول تاريخ مولد هذا الشاعر ، فانه لم يبحث في هذا الموضوع ولم يكترث له ولم يحفل به . وحسبه أنه أعطى أمته من جهده واخلاصه وأدبه الرفيع ، أوفر العطاء ، وأسمى المحبة والوفاء .

بدوي الجبل

كان فتى طريّ العود ، غضّ الاهاب ، عندما قدم إلى الاستاذ يوسف العيسى صاحب جريدة «ألف باء» ورئيس تحريرها قصيدةً بعنوان: (ماك سويني) وماك هذا ، كان محافظاً لمدينة كورك الارلندية، فناهض السياسة الانكليزية في بلاده ، وتصدى لمطامع بريطانيا ومظالمها، فاعتقله الانكليز وسجنوه ، فأضرب عن الطعام احتجاجاً على طغيانهم ، وبقي على اضرابه حتى مات جوعاً وعطشاً ، وكان قد ألف في معتقله صلاةً وطنية رتلها الايرلنديون في كنسائهم ، وما زالوا يرتلونها في المناسبات القومية .

وقد هزّت هذه الحادثة ، مشاعر العديد من شعراء العالم ،

---

(١) جبلة : مرفأ سوري في جنوبي اللاذقية ، احتلها الآشوريون ، واستولى عليها السلوقيون ثم الرومان سنة ١٤ ق.م . وفي عام ٦٣٦ م فتحها العرب.

وحركت قريحـة محمد سليمان الأحمد ، فنظم قصيدة خصَّ بها جـريدة (ألف باء) وكانت الجـريدة الأولى في دمشق . وهذا مطلع القصيدة وبعض أبياتها :

أحقاً ما روى عنكَ الرواةُ ترى أم في حديثهمُ هنـاتُ
وهل نبأ رواهُ البرقُ صدقٌ أمِ الاسلاكُ فيـه كاذبات
غلبتَ الموت فيه وذاك أمرٌ ستكـبره القرونُ الآتيات
بسطتَ يديك بسطةَ أريحيٍّ فكانت من عطـاياك الحيـاة
رأوكَ تهشُّ في وجه المنـايا وحولك في الحياةِ الطيبات
وتقتبلُ الردى ظمأً وجوعاً ليذكو الغرسُ بعدكَ والنبات
فأكبركَ العداة وربَّ حرٍّ تغنـتْ في بطولته العداة



عصيتَ العاطفات فمتَّ جوعاً ومن بعضِ القيودِ العاطفاتُ
ولم تبخلْ بنفسكَ وهي كنزٌ متى بخلت بأنفسهـا الكماة
لقد حررتها فسمتْ صعوداً كما سمت النجومُ النيّرات
علوتَ بها عن الاعراضِ حتى تساوى الموتُ عندكَ والحياةُ

والقصيدة كلها على هـذا النمط من الشاعرية المتوقدة ، والجزالة الصافية ، والمعاني الرفيعة . ويعود تاريخها إلى عام ١٩٢٤ . وقد أعجب بهـا الاستاذ العيسى ، وكان شيخ الصحافة السورية في ذلك الحـين ، فنشر القصيدة ، وبدلاً من أن يذكر اسم ناظمها محمد سليمان الأحمد ، ابتدع اسماً شاعرياً استمده مما رآه يومئذٍ في زي الشاعر الجبلي نفسه ، فسماه (بدوي الجبل) ذلك أن الشاعـر كان يلبس عباءةً عربية ، وعلى رأسه كوفية وعقال مقصب .

وصدرت جريدة « ألف باء » وفي صدرهـــا قصيدة بتوقيـع « بدوي الجبل » وأقبل الناس على قراءتها ووقفوا أمام معانيها البديعة معجبين ، وظنّ كثير منهم أن ناظم عقدها أحد كبار شعراء دمشق ، وجزم بعضهم أن صاحبها إما الشاعر خير الدين الزركلي ، وإما الشاعر خليل مردم بك .

وفوجىء محمد سليمان الأحمـد ، بأن قصيدته موقعة بغير اسمه ، فثارت ثائرته ، وهرع إلى يوسف العيسى ليعلن احتجاجه على ما كان ، فقابله شيـخ الصحافة ، بما كان مفطوراً عليه من لطف وحلم وأناة ، وقال له ان اسمـه كشاعر ما زال مغموراً ، وأن الناس اعتادوا أن يقرأوا نتاج أصحاب الأسمـاء المعروفة . ثم أكد أنه سيكون لهذا اللقب شأن عظيم في عالم الشعر المعاصر .

وبقيّ بدوي الجبل سنةً كاملة ينشر قصائده في جريدة « ألف باء » ويثير اعجاب القراء بهذا الشعر الحافل بالسلاسة والجزالة والتجديد في الصورة والخيال والمعنى .

وكان القراء يتساءلون : من يكون هذا البدوي الجبلي المترقرق في شعره نفس المتنبي وديباجة البحتري ومعاني أبي تمام وابن الرومي ؟ وكثيراً ما كانت تنهـال على الاستاذ يوسف العيسى أسئلة يرغب أصحابها في معرفة اسم هذا الشاعر الذي يعادل أحمد شوقي شاعرية وتفنناً في صياغة القريض واصطياد المعاني البعيدة المنال .

ورأى الاستاذ العيسى أن الوقت قد حان لاظهار اسم الشاعر المتخفي وراء العباءة والكـوفية والعقال المقصب ، فأقام حفلةً دعا اليها علماء دمشق ورجالات الفكر والأدب والصحافـــة فيها ، وقدم اليهم

(بدوي الجبل) وبيّن لهم اسمه الحقيقي « محمد سليمان الأحمد » فأدهشهم أنه فتى طري العود غض الاهاب يملك قريحة خصبة وأفكاراً مبدعة خـــلاقة .

بواكير قصائد بدوي الجبل

لم تكن القصائد التي نشرها بدوي الجبل في جريدة (ألف باء) هي بواكير شعره . بل نشرت له قبل ذلك صحيفة (الصدى العلوي) (١) بضع مقطوعات شعرية جميلة . غير أن نجم محمد سليمان الاحمد لم يتألق في سماء الشعر العربي ، إلا بعد أن تصدى ذلك الشاب الأسمر للانتداب الفرنسي الذي جزأ القطر العربي السوري شر تجزئة ، وأقام دويلات هزيلة في حلب واللاذقية وجبل الدروز ، ليقطع كلّ صلةٍ بينها وبين العاصمة دمشق ، وليسكت الأحرار المنادين بوحدة الوطن الواحد والشعب الواحـــد . ومن أحسن قصائد البدوي في التنديد بالسياسة الفرنسية الغاشمة قوله :

أتغني ؟ وما أجدى الحسامُ ولا أغنى	قوافٍ من الأشعارِ تبقى ولا تفنى
أدرتُ على الأسماع منها سلافةً	وأرضيتُ فيها الله والعربَ والفنا
وهددني بالسجنِ قومٌ سفاهـةً	فتى العرب الانجادِ لا يرهب السجنا
سأبعثُ من شعري جياداً مغيرةً	عليها كماةٌ تحسن الضربَ والطعنا
يقولون غنّ الموطنين وهل رأوا	محباً على مثـــوى حبيبته غنى ؟
فلا تكبروا نعمى الهـــوان فانما	حياةُ أسيرِ القيدِ لفظٌ بلا معنى

يعود تاريخ هـذه القصيدة الوطنية الرائعة إلى عام ١٩٢١ حين كان الانتداب الفرنسي في عنفوانـه وغطرسته وتنكيله بكل حر أبي .

(١) كان يصدرها في أوائل العشرينات باللاذقية محمد جمال .

وقد عارض البدوي بقصيدته ، قصيدة على نفس الوزن والقافية ألقاها شاعر العراق جميل صدقي الزهاوي في المجمع العلمي العربي بدمشق ومطلعها :

ظننتُ بأنَّ الشعرَ يغني فما أغنى   وكم شاعرٍ قبلي به أخطأ الظنا

وهي على نمط قصيدةٍ لأبي الطيب المتنبي مطلعها :

نزورُ دياراً ما نحبُّ لها مغنى   ونسأل فيها غير سكانها الأذنا

ولبدوي الجبل قصيدة في منتهى التألق الشاعري عنوانها : (طمع الأقوياء) وتعد من بواكيره البارعة قالها في سنة ١٩٢٤ وهذا مطلعها وبعض أبياتها :

لا تلمهُ إذا أحبَّ الشآما   طابتِ الشامُ مربعاً ومقاما
ما رأينا الشآم إلا رأينا   منزلاً طيباً وأهلاً كراما
أعطني في ربوعِ جِلّقَ يوماً   يا خليلي وخذ من العمرِ عاما
يا بني أم والحياة زحامٌ   ذلَّ واللهِ من يخاف الزحاما
لا تظنوا السلامَ في الأرض حيّاً   طمعُ الأقوياء غال السلاما
أيعدونَ قتلَ شعبٍ حلالاً   ويعدونَ قتلَ فردٍ حراما ؟
عبثوا بالنظام بغياً وقالوا   قد أتيناكمُ لنحمي النظاما
في رمادِ الضعيفِ نارٌ فمهلاً   إن ظلمَ القويِّ يذكي الضراما
أنا أخشى من الضعيف عليكم   بعد حينٍ تمرداً وانتقاما
يفتك الظلمُ بالضعيف ويردي   بعد حين بشؤمه الظلاما

وقد جرّت عليه قصائده الوطنية كثيراً من المصائب فاعتقل وسجن ونفي إلى جزيرة أرواد مع نخبة من المناضلين السوريين الشجعان. وبعد أن أفرج عنه انتخب نائباً في دولة العلويين وكان مركز المجلس في

اللاذقية وبدوي الجبل من أبرز أعضائه وأكثرهم جرأةً وتمسكاً بقوميته العربية وبحق بلاده وشعبه بالحرية والوحدة والعيش الكريم .

بدوي الجبل في بغداد

حاولت فرنسا أن تكسب ودَّ بدوي الجبل بما يشاء من المناصب فأبى ، فسعت إلى شراء سكوته بالمال والجاه ، فأصر على مقاومتها ، والمطالبة بحق بلاده بالحرية والوحدة ، فلجأت فرنسا إلى الضغط عليه، فرحل إلى العراق وعمل في مدارس بغداد وكان له في منتدياتها الأدبية ومجامعها السياسية نشاط كبير قامت عليه شهرته الواسعة كشاعر عربي من الطراز الأول .

وفي عام ١٩٤٠ كان البدوي في عاصمة الرشيد ، وسمع هناك كما سمع العالم بسقوط باريس بأيدي الالمان.وفي فصل الخريف من تلك السنة قرر نادي (المثنى) ببغداد الاحتفال في التاسع من شعبان ، بذكرى الثورة العربية الكبرى ، التي أطلق الشريف حسين بن علي رصاصتها الاولى .

وجاء الاستاذ أكرم زعيتر إلى بدوي الجبل ، وطلب اليه أن يشترك في الحفل الذي سيقيمه نادي (المثنى) فاعتذر البدوي ولكن أكرم أصرَّ عليه وألهب عزيمته وذكره بمن استشهد برصاص الفرنسيين من اخوانه السوريين كيوسف العظمة ورشيد طليع وأحمد مريود وأقسم عليه أن ينصف قائد الثورة ميتاً كما أنصفه حياً . وما زال به ، حتى دمعت عيناه ، ورشح جبينه بالعرق ، وانصرف يهمهم ، فعلم أكرم أن فريدة قومية عصماء ، بدأت تولد في فكر بدوي الجبل وقلبه .

يقول أكرم زعيتر : وغاب يومين . وفي اليوم الموعود شخصت

أبصار الحشد في النادي إلى البدوي وأرهفت الآذان فانطلق :

يا سامرَ الحيِّ هل تعنيك شكوانا ... رقّ الحديد وما رقوا لبلوانا
خلّ العتابَ دموعاً لا غناءَ بها ... وعاتبِ القومَ أشلاءً ونيرانا
وبلِ الشعوبِ التي لم تسقِ من دمها ... ثاراتها الحمرَ أحقاداً وأضغانا
تغضي على الذل غفراناً لظالمها ... تأنّقَ الذلُّ حتى صارَ غفرانا
أزكى من الطيبِ ريحاناً وغاليةً ... ما سالَ من دمٍ قتلانا وجرحانا
يُعطي الشهيد فلا والله ما شهدتْ ... عيني كاحسانهِ في القوم احسانا
وغاية الجودِ أن يسقي الثرى دمهُ ... عند الكفاح ويلقى الله ظمآ نا
قل للألى استعبدوا الدنيا لسيفهم ... من قسَّمَ الناسَ أحراراً وعبدانا
سمعتُ باريسَ تشكو زهوَ فاتحها ... هلاّ تذكرتِ يا باريس شكوانا
عشرينَ عاماً شربنا الكأس مترعةً ... من الاذى فتملّي صرفها الآنا

وماجَ النادي ، وكبر السامعون وهللوا ، وعلت زغاريد النساء حين جلجل الشاعر :

إني لأشمتُ بالجبارِ يصرعهُ ... طاغٍ ويرهقهُ ظلماً وطغيانا
لعله تبعثُ الأحزانُ رحمته ... فيصبح الوحشُ في برديهِ انسانا

قال أكرم زعيتر : وقد هُرّبت القصيدة إلى الأقطار العربية وتغلغلت في بــــلاد الشام وغيرها . وقيل إن الزعيم التونسي الحبيب بورقيبة فوجىء بها تتسلل إلى زنزانته في جزيرة الشيطان بافريقيا .

بدوي الجبل يعود الى سورية

في عام ١٩٤٢ عاد محمد سليمان الأحمد إلى وطنه سورية . وانتسب إلى الحزب الوطني وانتخب نائباً عن محافظة اللاذقية ست مرات . وتولى

الوزارة أربع مرات . وكان بشخصيته المتواضعة ، وأخلاقه العالية ، وشاعريته المتألقة أكبر من النيابة والوزارة معاً . وكان هذان المنصبان العاليان يسعيان اليه في عقر داره ، وما عرف عنه أنه سعى وراء مرتبة أو نفوذ أو جاه ، بل كان مترفعاً عن كل مجد دنيوي ، ولولا الحاح رفاقه زعماء البلاد لاكتفى بالشعر وحده ، فهو أسمى وأبقى من جميع الوزارات والنيابات .

في ذكرى الزعيم ابراهيم هنانو

في حفلة أقامها الحزب الوطني في حلب سنة ١٩٤٢ تخليداً لذكرى الزعيم هنانو ، واستئنافاً للنشاط العربي ، ألقى بدوي الجبل هذه القصيدة الرائعة وفي سورية ثلاثة جيوش محتلة : الانكليز والامريكان وفرنسا . قال :

ألفتُ حرَّكِ لاشكوى ولا سهدُ ... يا جمرةً في حنايا الصدر تتقدُ
مرّي على كبدي حمراءَ دامية ... يبقى الحنينُ إذا لم تسلم الكبد
بعضُ الخطوبِ ظلامٌ لا صباحَ له ... وبعضها الفجر فيه النورُ والرشَد
لا يبعدُ الله أحباباً فجِعتُ بهمْ ... وما علالةُ قلبي بعدما بعدوا
مسحتُ دمعيَ من ذكراهمُ بيدٍ ... وأمسكتْ كبدي ألا تذوبَ يد
أغفى أبو طارق (١) بعدَ السهاد به ... وخلّف الهمَّ والبلوى لمن سهدوا
إذا أثير نضا عنه مواجمهُ ... كما تفلّتَ من أشراكهِ الأسد
خيلُ الزعيم تنزّى في شكائمها ... ما فاتها قنص في الحي أو طرد
عرينةُ الحق في الشهباء منجبة ... يروع أنى التفت الظفرُ واللبَد

(١) طارق ابن الزعيم هنانو ، وقد عذّبه جلاّدو فرنسا في ذلك الحين ، حتى أفقدوه عقلهُ .

إذا الزعيمُ تولى عن شبولتها حمى الشبولةَ اخوان له نجدُ
إذا دجتْ ظلماتُ اليأسِ حالكةً شقَّ الدجى كوكبٌ من ذكره يقدُ

وكان سعد الله الجابري رفيق هنانو في الجهاد ضد المنتدبين صديقاً حميماً لبدوي الجبل ، وقد اشتركا معاً في النيابة وفي ادارة دفة الحكم . ولما لحق سعد بالرفيق الأعلى بعد أن تحقق استقلال البلاد ، رثاه البدوي بقصيدة تقطر لوعةً وأسى قال في مطلعها :

سألَ الصبحُ عن أخيه المفدّى أيها الصبحُ لن تشاهدَ سعدا
تنهل العينُ من بشاشةِ سعدٍ ريها والعيونُ تروى وتصْدى
زعمَ الخصم انه مستبدٌ حبّذا الحكمُ عادلاً مستبدا
ضربَ الظلم ضربةً ربحتْهُ فتداعى مزمجراً فتردى
زعموا أنّه جلاء وما كانَ جلاءً بل كان خزياً وطردا
ما على العبدِ أن يُسوَّدَ عارٌ بدعة العار أنْ ترى الحرَّ عبدا

وتقع هذه القصيدة في ستة وتسعين بيتاً ، كلها على هذا الطراز العالي من الشعر الحافل بصدق الوصف ، وسمو المعنى ، وجمال الصور ، وتناسق الاخيلة . وبالرغم من الذكرى الأليمة التي أنشدت فيها هذه الخريدة العصماء ، فقد تعبت أيدينا من التصفيق ، وبحت حناجرنا من الهتاف والتكبير ، فقد كان العهد الوطني حافلاً بآيات البطولة والجهاد وبناء أسس الوحدة العربية التي كانت أمنية المناضلين الاباة .

البلبل الغريب

كتب على هذا الشاعر الفذ ، أن يشرد عن وطنه ، وأن يضرب في بلاد يكون فيها غريب الوجه واليد واللسان . وكان كالبلبل الضائع في خمائل الغرب، يسكب ألحانه الشجية، ممزوجة بلوعته ودموعه وأساه .

والقصيدة التالية وعنوانها (البلبل الغريب) يعني بها نفسه ، ويشكو حاله في غربته القسرية في فينا عاصمة النمسا ، ويناجي في العديد من أبياته حفيده محمد ، ويقول في الطفولة أرق وأبدع ما قاله شاعر في براءة الطفل والدعاء له بالخير والهناء والسعادة . فلنستمع إلى هذه القصيدة المطولة الخالدة التي قالها في ٣١ آب عام ١٩٦٣ :

سلي الجمرَ هل غالى وجنَّ وعذّبا ... كفرتُ به حتى يشوق ويعذُبا
ولا تحرميني جذوةً بعد جذوةٍ ... فما أخضلَّ هذا القلبُ حتى تلهبا
وما نالَ معنى القلب إلا لانه ... تمــرغَ في سكبِ اللظى وتقلبا
خيالاتكِ يا سمراء مرَّ بغربتي ... لحيا ورحبنا بفــالٍ ورحبا
أرى طيفكِ المعسولَ في كل ما أرى ... وحدتُ ولكن لم أجد منك مهربا
تنكر لي عند المشيب ـ ولا قلى ـ ... فمن بعض نعماهُ الكهولةُ والصبا
مآربُ لي في الربوتين ودُمّرٍ ... فمن شم عطراً شم لي فيه مأربا
أتدري الربى أن السماوات سافرتْ ... لتشهد دنيانا فأغفت على الربى

وله في الغزل مقطوعات تسيل رقةً وحــلاوة وحناناً وعفة ، منها هذه الابيات الوجدانية السلسلة :

فديتُ سمراء في لبنان لو رضيتْ ... هوت لسمرتها الاقمــارُ سمارا
قدسيةُ الحسن يستجدي براءتها ... عاري الذنوبِ فيكسو الطهرَ والغارا
شعري وحسنك أغلى اللهُ سحرهما ... كلاهما صيغَ أطياباً وأنوارا
لا تعجبي من صبابات الكهول ولا ... تروّعي الشيب اجفــالاً وانكارا

ومن غزله اللطيف قوله في قصيدة النبــع المسحور :

بُرْدكِ فوق الخصر جارُ الرؤى ... تخــلفه تطفر جنيتانْ
دارت على الظمأى حميَّاهما ... فاللهو في الجنة طلقُ العنان

يدنيهما الشوقُ ولم تدنوا فهل هما نهدانِ أم نجمتان ؟
تغفو بعينيكِ طيوفُ المنى عيناكِ للأشواقِ أرجوحتان
حضنت في السمراءِ دنيا المنى حينَ التقينا كبَّرَ العالمان

ويعتبر بدوي الجبل في طليعة شعراء العرب قدرة على التحليق البعيد في سماء العبقرية ، وبراعة في الوصف الدقيق الأنيق الصادق . وشعره واضح منسجم نائ عن الألفاظ الغريبة المهجورة . ومعانيه مشرقة بالبلاغة ، ومتسمة بالعمق والابتكار . وهو متمكن من اللغة، عالم بفصحها وشواردها قل أن تعثر على خطأ في شعره الكثير .

طُبع (ديوان بدوي الجبل) في ١/١٠/١٩٧٨ في دار عودة ببيروت ، وقدم له بكلمة مسهبة ومنصفة وبارعة صديقه الوفي الأستاذ أكرم زعيتر وهو من خيرة كتاب العرب ومناضليهم .

كيف عرفتُ بدوي الجبل ؟

عرفته من خلال قصائده وأنا على مقاعد الدراسة ، وحفظت العديدَ منها قبل أن أقرض الشعر . وأعتقد أن شعر بدوي الجبل ، وشعر الشاعر القروي رشيد سليم الخوري ، كانا من أهم الأسباب التي دعتني للنظم والتعلق بالأدب العربي . وكنت حريصاً على أن أحضر كل حفل وطني يشارك فيه بدوي الجبل تحت سماء الشهباء بقصيدة تنسجم فيها المعاني الجديدة ، والرؤى الجميلة ، والمشاعر الوطنية والانسانية السامية .

وفي عام ١٩٤٨ ، انتسبت إلى الحزب الوطني ، وما لبثت أن أصبحت عضواً في مجلس ادارته بحلب . وبحكم منصبي القيادي ، شرعت أساهم بشعري في كبريات حفلاته التذكارية . وقد ألقيت في الحفلات التي

أقيمت لتخليد ذكرى هنانو وسعدالله الجابري والدكتور حسن فؤاد وعلي الحياني قصائد تعبق بشذا إبائهم وشجاعتهم وفضلهم. وكثيراً ما كنت ألتقي وبدوي الجبل ، فأفيد من علمه وأدبه ونصائحه الثمينة .

وفي ربيع عام ١٩٥٤ ، حينما كان بدوي الجبل وزيراً للصحة والاسعاف العام ، زار مشفى الكلمة فاستقبلته فيه بصفتي أميناً لجمعية الكلمة الخيرية ، ولمست بعض ما يمتاز به الشاعر العملاق من تواضع وسماحة وصفاء روحي ، وأيقنت أن رجلاً يملك هذه الشاعرية الخصبة المبدعة، وهذا الخلق العربي النبيل الأصيل ، باقٍ بقاء الشمس في قبة الفلك . ومن شاء برهاناً على ما نقول ، فليقلب صفحات التاريخ ، وليقارن بين أبي الطيب المتنبي ، وبين من عاصره من ملوك وأمراء ، وليقرر بعد ذلك أيهم أعظم وأجل وأبقى على الزمن ؟ .

منذ ذلك اليوم الأغر - الاثنين ٢٦ نيسان ١٩٥٤ - جمعتنا على صعيد الحب المتبادل أواصر اخاء متين وصداقة خالصة فكان بدوي الجبل بالنسبة لي أكثر من أخ ، كان أخاً وصديقاً واستاذاً ، ولهذا كنت أحرص على زيارته كلما قصدت دمشق وأنعم بحديثه ، وأعتز بأستاذيته .

في خريف ١٩٦٦ صدر ديواني الثاني (حصاد الذكريات)(١) وأهديت إلى بدوي الجبل نسخة منه . وقد غمرني لطفه وكرمه حين أتحفني برسالة منحني فيها فوقَ ما استحق من تشجيع . ومما قاله :

---

(١) عنوان ديواني الأول (خيوط الغمام) طبع سنة ١٩٤٢ مرتين ونفدت جميع نسخه .

« لا أعلم أيهما أصلح وأملح وأعبق بالعطر والنور ، أشعرك الغني بالعاطفة والخيال والصور والنغم على ديباجة من وشي الحرير ، أم شمائلك الندية بالوفاء والاخاء » .

« ديوانك شعر ، والاهداء الذي صدرته فيه شعر . فقد أعدت في هذا الاهداء ، ذكريات هنانو وبطولاته وفتوحاته ، وأعدت فيه ذكريات غالية اصيلة للأخ الكبير والانسان الكبير الاستاذ فتح الله الصقال وما رنح الاعطاف من أريحياته ومروآته وانتصاره للحق والحرية في محنة الحق والحرية يومئذ ، برائع من بيانه ، وروائع من ايمانه(١) .

« أخي ، ما كان ديوانك بحاجة إلى من يقدمه ، حتى ولو كان الشاعر الكبير الاستاذ محمد عبدالغني حسن . خير ثناء على قارورة العطر أن تفتح ، فيتأرج النسيم ويسكر الشميم ، والعطر والنور والشعر من معدن واحد ، تستغني بجوهرها ، ولا يستغنى عن جوهرها ، وتصف نفسها ، ولا يستطاع وصفها » .

نثره شعر ، وشعره سحر

حَسبُ بدوي الجبل أن يكتب لتستشف من نثره أشرف المعاني الشعرية ، وأكثرها جدةً ورقة وابداعاً .

أما شعره ، فهو السحر الحلال ، يخلب به الالباب ، ويحرك العواطف الساكنة ، ويدفع الهمم الفاترة لتحطيم أصنام البغي والطغيان .

---

(١) هو الذي دافع عن هنانو أمام المحكمة العسكرية الفرنسية وانتزع له البراءة مما نسب اليه من الجرائم .

إنه نسر جبار يمد جناحيه فوق وادي عبقر ، ويجتاز قمم الفن الشامخة ، ويرود أقصى أجواء الحياة ليصطاد المعاني العصية المختبئة في أحضان النيرات .

تراه فترى الشاعرية بطابعها المتميز ، وتسمعه فتسمع الفصحى مزغردة على ثغره والقافية العذبة مترقرقة كالماء النمير من بين شفتيه .

قوي الاسلوب ، دقيق التعبير ، بديع الصياغة ، يمتاز بروحه الشفافة الملهمة ، وبموسيقاه الشعرية المنبعثة من قصائده الوجدانية ، وبتفوق بارز في رسم نبضات القلوب ، وخلجات الصدور ، وانطباعات العواطف .

في مقطوعاته الاجتماعية تحليل منطقي عميق لمختلف أغراض النفس البشرية . وفي ملاحمه الوطنية والقومية ، تقديس للايثار والفداء وتمجيد للبطولة والشهادة .

بارع في وصف الطبيعة وتصوير أرضها وسمائها ، ينقلك على متن قوافيه إلى عوالم كلها زهر وظلال وروعة وجمال ، ويجملك تنشق عطر ما يصف من أنواع الورد والريحان . أما إذا حمل على الجور والباطل ، فعاصفة هوجاء تقتلع جذور الشر ، وتجتاح دعاة السوء ، وتساعد المعذبين على التخلص من ظلمات الارهاق والخروج إلى أضواء الحرية والاطمئنان .

هذا هو محمد سليمان الأحمد ، الذي ارتفع بخلقه وشعره إلى مصاف الشعراء الافذاذ المتوجين بغار المجد والخلود .

الشاعر أحمد رامي

في ندوة السيدة شريفة فتحي

كان للسيدة شريفة فتحي ، حرم الدكتور كمال الدين سامح الاستاذ في كلية الهندسة بجامعة القاهرة ، ندوة أدبية تحييها مساء كل يوم ثلاثاء ، في منزلها بشارع أحمد نسيم ـ البناية رقم ٤ القريبة من حدائق الاورمان بالجيزة . وكان يحرص على حضور تلك الندوة كبار أدباء مصر في الستينات من أمثال : علي الجندي وعبدالله شمس الدين صاحب نشيد [الله أكبر] وعزيز اباظة (باشا) وصالح جودت وأحمد رامي وعادل الغضبان والموسيقار سامي الشوا .



الشاعر أحمد رامي

كانت الندوة الفتحية ، على غرار ندوة الآنسة مي ، تستقبل رجالات الأدب والفن ، مساء الثلاثاء من كل اسبوع . وكان يُنشد الشعر في تلك الندوة ، وتعزف الموسيقى ، ويدور الحديث عن الفن

وعما صدر حديثاً من كتب . فقد كانت السيدة شريفة كاتبة وشاعرة وموسيقية ورسامة ممتازة ، وكانت ذات سمرة جـــذّابة وشعر اسود طويل ، وعينين يتألق فيهما الذكاء .

وأتيح لي أن أحضر تلك الندوة ، وأن أتعرف فيها بالشاعرين أحمد رامي وصالح جودت وبغيرهما من فرسان الأدب .

أحمد رامي

كان يلقب بشاعر الشباب ، بالرغم من اجتيازه عهد الكهولة منذ زمن طويل ، وكان هـذا اللقب نفسه يطلق على وطنينا وصديقنا عادل الغضبان ، وهو به احقّ . فقـد ولد رامي بالقاهرة سنة ١٨٩٢ وهو ابن الطبيب محمد رامي ابن المحيد [الأمير آلاي] حسن (بك) عثمان الذي دخل مصر سنة ١٨٨٣ وقُتل في فتح السودان سنة ١٨٨٥ . ورامي من أصل جركسي ، أمضى سنتين من سني طفولتـه بالقرب من قوله(١) الحافلة بأبهى المناظر الطبيعية وأكثرها روعةً وجمالاً .

أما عادل الغضبان فمن أبوين حلبيين . وكان أبوه حكمت ضابطاً في الجيش العثماني . وقد ولد ابنه عادل في مدينة مرسين سنة ١٩٠٨ وكانت مرسين تابعةً لولاية حلب ، وتلقى الفتى علومه الابتدائية تحت سماء الشهباء ، ثم غادرها مع أبويه وأخيه وأخته إلى القاهرة ، حيث سطع نجمه في عالم الشعر وصار يلقّب بشاعر الشباب . ومن الواضح أن فارق السن بين الشاعرين ست عشرة سنة . وقد توفيّ الاستاذ الغضبان في أواخر عام ١٩٧٢ .

---

(١) قوله : أو كافالا Kavalla مرفأ في شمال شرقي اليونان ، على بحر ايجه مسقط رأس محمد علي (١٧٦٩ - ١٨٤٩) مؤسس السلالة الخديوية .

كان أحمد رامي عندما رأيته على مشارف السبعين ، وكان في وجهه كثير من آثار الجدري . وكان منظره يوحي الى الناظر اليه أنه عامل لا شاعر غنائي من الطراز الأول . فلم يكن يحفل بملبسه وأناقته وكان يعتمر « البيرة » الزرقاء القاتمة ، فيبدو بها أقرب إلى الكادحين الطليان ، منه إلى أبناء العرب المزودين بالعلم والثقافة والذوق الفني الرفيع.

كان خفيفَ الروح ، سريع النكتة ، حاضر البديهة ، يقول كلمته بثقةٍ واعتداد ، ويقرض الشعر عندما يحسُّ في أعماق نفسه ، بدافع يحمله على الافصاح عما يعتلج في جنايا صدره من مؤثرات ومشاعر .

وأحمد رامي على قسطٍ وافر من المعرفة بأساليب العربية ، وعلى إلمامٍ كافٍ بفصحها وشواردها ، وهو مجاز في أدابها من مدرسة المعلمين العالية . وبالرغم من ذلك ، فان بعض شعره لم يسلم من الركاكة والأغلاط ، التي يجدر بشاعر مثله أن يتداركها . فمن قوله في قصيدته [أمنية] :

وهل أظلُّ غريباً كالطيرِ هاجرَ وكرَهْ

« هاجرَ وكره » خطأ صوابه [هجرَ] لأن هاجر فعل لازم من المهاجرة . وأما هجرَ من الهجران فهو فعل متعدٍّ . فلو قال : « غادر وكره » لأصاب .

وجاء في قصيدته [الأنغام السجينة] :

يا بناتِ الشعرِ انصحيني وغنّيـ ـني وهاتي من شيقات المعاني

« شيّقات » خطأ والصواب (شائقات) فالشائق بمعنى الداعي إلى الشوق.

والشيّق المشتاق .

وقال في قصيدته [نجوى] :

أو حديثٍ ذقنا رضاهُ سوياً   وسهـــرنا على ضناهُ ليالي

السوي المستقيم والشاعر يريد [معاً] فلو قال [جميعاً] لأصاب .

وقد عدد له المغفور له رشاد علي اديب طائفةً من الاغلاط ، ولكنّه استدرك فقال : « رامي شاعر موفق الشيطان إذا تغزل أو وصف ، رقيق حواشي الالفاظ بعيد مرامي المعاني ، يقول الشعر لنفسه وفي نفسه . فاذا جلس اليه وسنح له المعنى العصري ، تخيّرَ له اللفظ الثري (١) .

رباعيات الخيام

في سنة ١٩٢٢ أرسلته دار الكتب المصرية إلى باريس ، ليتعلّم اللغة الفارسية ، في مدرسة اللغات الشرقية . فبقيَ سنتين وأخذ يترجم في السنة الثانية ١٩٢٣ رباعيات الخيام . وفي تلك السنة سافر إلى برلين وفي عام ١٩٢٤ توجّهَ إلى لندن للتحقيق في مخطوطات الرباعيات .

ولما رجع إلى القاهرة في ذلك العام نفسه /١٩٢٤/ أنهى الترجمة وطبعها . ثمّ أعاد طبعها في عام ١٩٣١ فجـاءت في مئةٍ وثمانٍ وستين رباعية نظمها على بحر السريـع ، وجعل كل رباعية في بيتين يحتويان على أربعة أشطار ومطلعها :

سمعتُ صوتاً هاتفاً في السحر   نادى منَ الحـان غُفاةَ البشرْ
هبّوا املؤوا كأس الطلى قبلَ أن   تفعمَ كأسَ العمرِ كفُّ القدرْ

---

(١) مجلة الضاد السنة ١٩٧١ ص ٥١٤ .

غير أن أم كلثوم أبدلت كلمتين في هذه الرباعية ، فجعلت [الغيب] بدلاً من [الحان] في عجز البيت الأول ، وجعلت [المنى] بدلاً من [الطلى] في صدر البيت الثاني لكيلا يجري على لسانها لفظ الخمر ومكان شربها . وقد لحّنَ هذه الرباعيات الموسيقار رياض السنباطي ، وهو أحسن وأشهر من لحن لسيدة الغناء أم كلثوم .

ميزات شعر رامي

لا شكّ أن أحمد رامي في طليعة الشعراء الغنائيين . ولعلّ لتعرّفه بأم كلثوم ، علاقة وطيدة في صقل شاعريته وذيوع شهرته . ولولا اهتمام تلك المطربة الكبيرة بشعره ، لكان رامي كغيره من الشعراء المتوسطي المقام بين زملائه . وفي رأينا أن كوكب الشرق أيقظت روح الرقة والابداع في أدب رامي ، فهو مدين لها بقسطٍ واسع المدى من مكانته الشعرية ، سواء في أزجاله العامية أو في قصائده ومقطوعاته الفصحى . فقد كانت تلك المطربة المعجزة ، ذات موهبة خارقة ، وحسٍّ مرهف فياض ، يجعلانها تميز بسهولة عجيبة ، الكلمة الطلية التي تستسيغها اذن السامع ويقبلها ذوقه ويطرب لها قلبه . وكانت تحيّر الشعراء أحياناً كثيرة ، بما تبدّله من كلمات قصائدهم وأغانيهم . بيد أنها كانت تتهيّب أمير الشعراء أحمد شوقي ، فلا تجرؤ على تغيير وتبديل ما يرد في بعض منظوماته من كلمات تعني الخمر وما شابهها . وحسبنا أن نعلمَ أنها أبقت مطلع قصيدة شوقي :

سلوا كؤوسَ الطلى هل لامست فاها
واستخبروا الراحَ هل مسّت ثناياها

في هذا المطلع نجد الكؤوس والطلى والراح ، وهي ألفاظ لا

تميل [ثومة] اليها ، ولكنها أنشدت القصيدة كلها واذاعتها وسجلتها على أقراص الحاكي .

ورامي من الشعراء المجددين المبدعين ، عُرف بخصب القريحة ، وبُعد الخيال ، ونعومة الألفاظ ، وروعة التصوير العاطفي ، ورهافة الحس . وأول قصيدة له تغنت بها أم كلثوم مطلعها :

الصبُّ تفضحه عيونُـه ... وتنمُّ عن وجدٍ شؤونه

ومن قصائده المشهورة ، قصيدة يقول في مطلعها :

ذكرياتٌ عبرت أفقَ خيالي ... بارقاً يلمعُ في جنح الليالي

وفي قصيدتـــه [طربُ الحياة] وصف أنيق ، وصور تنبض بالصدق ، وتغني للجمال . فاسمعه ينشد من أعماق فؤاده :

هذهِ روضة وهذي الطيورُ ... تتناغـــى وللغديرِ خريرُ
وذكاءٌ عند الأصيل طمى منها ... على الكـون عسجدٌ منثور
فتمتَّع بما ترى من جمالِ الـ ... ـكونِ وانسَ الذي تكنُّ الصدور
تطرب الناس بالأغاني وفي القلبِ ... من الوجدِ لوعةٌ وسعير
عَدِّ عن ذكرِ شقوةِ العيش واطربْ ... لا يطيلُ الحياةَ إلاّ السرورُ

وشاعرنا يحبُّ اللهو والمـرح ، ويهيم بمحاسن الطبيعة ومفاتنها ، ويجد أن العيش لا يصفو ولا يحـلو ، إلاّ إذا ازدان بجمال الغيد ، وابتسام الحسان ، وأغاريد الطيور ، ووشوشات الازهـــار ، ورقص الاغصان المزهرة على هينمة النسيم وخرير السواقي الرقراقة الاديم .

ولا ريب أن القارىء يرى في قصيـدة رامي [ريفية الفيّوم] أحاسيسَ الشاعر تتكلم بأفصح لسانٍ وأبلـــغ بيان ، وتصف فتاةً

ريفية حسناء تعيش في محافظة الفيوم القريبة من القاهرة ، والمشهورة بزراعة العنب والتين والزيتون والأرز وقصب السكر . إنها المحافظة الحديقة كما يسمونها هناك :

نشأت في منابت التين والزيـ ـتون في ظل هادلات الكروم
فسرى روحها خفيفاً لطيفاً كدبيب المنى ومسرى النسيم
عرضت لي والقلب خال من الوجد وعيني أنيقة التهويم
وخلونا على ضفاف غدير ريق الماء خافت الترنيم
فشكوت الهوى وقلت غريب في ربوع الفيوم غير مقيم
زوديه بما يرقه عنه لوعة الشوق في البعاد الأليم
فثنت طرفها حياء وقالت سوف تنسى ريفية الفيوم
إن في مصر فاتنات من الغيد تمفتي على الغرام القديم

أرأيت لطف هذه المحاورة ، ورقة ما تخللها من معان جميلة ، وألفاظ رشيقة طريفة ؟ .

لقد كان الشاعر ذا نزعة تفاؤلية واضحة المعالم ، وكان يستهويه الحسن واللطف والظرف . وكثيراً ما كانت تشده الطبيعة فيرتمي في أحضانها ، ويعب من ينابيعها ما ينعش فيه الروح والجسد وما يملأ عينيه رؤى توحي اليه أعذب الشعر . وفي قصيدته [غيرة] نلمس فيضاً من شاعريته الأصيلة المبدعة :

إنما أنت مظهر من جمال الـ ـكون جلت فيه سوامي المعاني
كيف لا تنعم العيون بمرآ ك وتشجى بصوتك الاذنان
غيرة النفس أصلها الخوف من ميل حبيب إلى محب ثان
أنا إن غرت لا أغار على حسنك إلا من طرفك الوسنان
إنه يجتلي مشاهد من حسنك يشتاق أن يراها عياني

حبنـا دائمٌ وما أخلدَ الحبُّ إذا صان عهدَهُ القلبـانِ

هذه الغيرة من نوع جديد . إنه يغار على فتاة أحلامه حتى من طـرفها النعسان ، لأنه يرى من جمالهـا ما لا يقوى هو على رؤيته ، والعشاق في كلّ زمان ومكان ، كثيرو الغيرة ، فمنهم من يغار من النسيم إذا داعبَ شعر حبيبـته ، ومنهم من يغالي في غـيرتهِ فيودّ لو حطم المرآةَ التي تنظر اليها معشوقته ، وللمحبين في هواهم شؤون وشجون .

وهنا ثلاثـة أبيات بعنوان [حـديث هوى] تعدل ثلاث قصائد من خيرة ما صاغه فحول شعراء الغزَل :

سألتني وقـد خلونـا أتهـوا ني ؟ وقد نالتِ التباريحُ مني
ورأتني وجمتُ حزناً فقـالت ليس يخفى شديـدُ حبك عني
غيرَ أني أحبُّ اسمعُ من فيكَ حـديثَ الغرام يطربُ أذني

أحمد رامي والسيدة أم كلثوم

كان أحمد رامي وثيق الصلة بالسيدة أم كلثوم ، كثير التردد على منزلها ، شديد الاعجاب بصوتها الملائـكي ، الذي وقف عليه شاعريته وفنـه وكل ما استطاع من جهد وابـداع . وهذه قصيدة [إلى أم كلثوم] صاغ كلماتها الحلوة بقلمه السحري ، واستمدَّ معانيها من أعلى عوالم الالهـام ، لينتشي بها أصحاب الآذان التي تعشق الصوت الآسر الساحر ، والاغاريد البلبلية الفاتنة . قال رامي :

كرمتْ دوحةٌ رعت أم كلثو مِ وجادت بظلهـا الفينانِ
تبعث الشجوَ في النفوس وتلقي سحرها في القلوبِ والآذانِ
رنةُ العود شدوهـا وصداهـا حنة الناي أو أنـينُ الكمان

خلقت آهةً فكانت عزاءً من هموم الحياة والأحزان
وجرت دمعةً فكانت شفاءً للمعنّى ورحمـــةً للعـاني
وسرتْ أنّةً فكانت غناءً يُطلقُ الروحَ في سماء المعاني

ولقد أحبَّ أحمد رامي أم كلثوم حبّاً روحانياً صوفياً عميقاً ألهمه روائع الأشعار ، ومكّنه من اصطياد أبعد الأخيلة وأشرف المعاني ، وجعله يضع لها روايتين هما [وداد] و [دنانير] مثلت دور البطلة فيهما بالسينما ، وأنشدت أغاني هذين « الفيلمين » اللذين أحرزا فوق ما كان متوقعاً لهما من نجاح .

ومثلما برع رامي بالشعر ، هكذا برع بالأغاني الشعبية ، وبتأليف وتعريب عدد من المسرحيات الذائعة الشهرة مثل : (هـــامليت) و (روميو وجـــوليت) لشكسبير ، و (النسر الصغير) لروستان ، و (سمـــيراميس) تأليف بيـلادان ، وقد مثلت أكثرها فرقة فاطمة رشدي وزوجها عـزيز عيد . وفي مطلع الثلاثينات شهدنا بعض هـذه المسرحيات في حلب ، وأعجبنا بها غاية الاعجاب .

وشاعرنا مـولع ببحر الخفيف ، ومعروف بنصوع الديباجـة ، وجزالة الاسلوب ، ولطف الخيال ، وموسيقية الألفاظ . وقد أعجب بشعره كبير مطربي هـذا العصر الاستاذ محمد عبدالوهاب ، فغنى بعضاً من قصائده المـترفة بالوصف الدقيق ، والعاطفة الحية الصادقة القوية . بيدَ أن معظم ما فاضت به قريحته ، كان من نصيب أم كلثوم ، وكان نصيب نتاجه منها ، الذيوع الواسع ، وخلود الذكر .

بعض نوادر أم كلثوم وأحمد رامي

كان يطيب لأحمـد رامي أن يحضر مجالس أم كلثـــوم وجميع

حفلاتها الغنائية . وكانت أم كلثوم تحيي حفلتها الشهرية في دار [الأوبرا] بالقاهرة ، وما كاد يزاح الستار حتى ظهرت بثوبها الأبيض الأنيق ، فصفق لها الجمهور ، ورماها بعضهم بحبّات الملبس ، فأخذت واحدةً ووضعتها في فمها بينما كانت فرقتها تعزف المقدمة الموسيقية .

وانتهت المقدمة ، والملبسة باقية في فم المطربة الكبيرة لم تذب .

وأعيد عزف المقدمة مرةً ثانية وثالثة ، والسيدة تجاهد في اذابة الملبسة وابتلاعها .

وكان أحمد رامي في شرفةٍ [لوج] مطلةٍ على المسرح ، فملَّ العزف واشتاق إلى سماع ما ستغنيه من نظمه ، فصاح بملء صوته : متى تغنين لنا يا [ثومة] (١) ؟ فابتسمت وأجابته على الفور : « حتى تدوب » .

وفي عبارة « حتى تدوب » تورية لطيفة لا تخفى على الفطن اللبيب .

وذهب أحمد رامي مع صديق له لزيارة أم كلثوم في بيتها . وصعدا درج المنزل ، وقرع رامي الباب ، ففتحته الخادمة وقالت : « الست مش هنا » .

ونزل الاثنان . وعندما وصلا إلى منتصف الدرج ، وجداها صاعدةً فسلمت عليهما واستمرت في صعودها من دون أن تدعوهما ...

ولكنَّ أحمد بقي واقفاً مكانه ، فقال له رفيقه : « ما تنزل بقى يا أخي » ؟ فأجابه رامي : « ازاي انزل وروحي طالعه ... » .

---

(١) ثومة : اسم الدلع لأم كلثوم .

أقوال بعض كبار الشعراء في رامي

أشاد بشاعرية أحمد رامي أئمة الشعر والنثر في الوطن العربي . وهذا بعض ما قيل فيه :

قال أمير الشعراء أحمد شوقي يصف شعر رامي :

شعرٌ جرى فيهِ الشبابُ كأنهُ ... جنباتُ روضٍ طلهنَّ غمامُ
في كل بيتٍ مجلسٌ ومدامةٌ ... وبكل بابٍ وقفةٌ وغرامُ

وقال خليل مطران شاعر الأقطار العربية :

كلُّ بيتٍ كمنبتِ الزهرِ حسناً ... وشذاً أو كمرتعِ الآرامِ

أما شاعر النيل حافظ ابراهيم ، فقد وصفه بهذه الكلمات :

« تسمع البيت منه ، فيشيع الطرب في نفسك قبل أن تعلمَ مأتاهُ ، وقبل أن يتطلع العقل إلى فهم معانيه ، ذلك هو شعر النفس وهو أرقى مراتب الشعر » .



الشاعر ايليا أبو ماضي



الشاعر ايليـا أبو ماضي

الأدب المهجري

عاش الأدب العربي في المهجر الاميركي عصره الذهبي نحو ثلث قرن ونيّف امتد من عام ١٩٢٠ بولد [الرابطة القلمية] بزعامة جبران خليل جـبران ، ورعاية ناسك الشخروب ميخـائيل نعيمة كاتب دستور الرابطة ، إلى أواخر الخمسينات حين بـدأ عقد [العصبة الاندلسية] تنفرط حباته واحدةً بعد واحدة .

تألّفت «الرابطة القلمية» في نيويورك ، وعمرت عشر سنوات ونزعت خلال عمرها القصير ، إلى تجديد الصلة بين الأدب والحياة ، وإقامة مقاييس جديدة محل المقاييس القديمـة في الأدب ، وتوسيـع آفاق الانتاج الأدبي في المقال والقصة والملحمة والنقد .

أما « العصبة الأندلسية » فقد تألّفت في مدينة سان باولو ـ البرازيل ، في ٥ كانون الثاني عام ١٩٣٢ وصدّقت الحكومة البرازيلية على دستورها في عام ١٩٣٣ . وكان رأس العصبة الشاعر ميشال المعلوف . وكان من أبرز أعضائها ابن اخته شفيق المعلوف الملقب بشاعر عبقر ، والشاعر القروي رشيد سليم الخوري ، والياس فرحات ونظير زيتون وحبيب مسعود والشقيقان عقل وشكرالله الجر ونصر سمعان وغيرهم من فحول الشعراء وأمراء البيان .

مجلة العصبة

كانت نشأة العصبة قويةً موّلها الاستاذ ميشال المعلوف ، ومدها أعضاؤها بأدب بكر ، ومادة فكرية غنية ، وجعلوا لسان حالهم مجلةً أدبية شهرية سمّوها (العصبة) وغلب عليها اسم « العصبة الاندلسية » وأسندوا رئاسة تحريرها إلى المنشىء البليغ حبيب مسعود ، فسرّ بذلك وقال « إنــــه التيمّن بالتراث الغالي الذي تركه العرب في الاندلس ، والاشارة إلى الابتعاد عن التطرّف الذي اتسمت به « الرابطة القلمية » في الشمال الأميركي » .

وفي الستينات من القرن الحـالي ، قال أحد النقاد ، إنّ الأدب العربي في القارة الامـيركية « شعلة توهجت من غير زيت ، وهي تخبو اليوم من غير رياح ، لتخلّف في عيون المستضيئين بها حسرةً وحيرة وظلاماً » .

وإذا انقطعَ أدب المهجر عن الابداع والاستمرار ، فحسبنا أن نعود إلى دواوين شعرائه الملهمين ، وإلى مقالات ومجلات وكتب أدبائه المجلّين في حلبة البيان المشرق والبلاغة المثلى . وها نحن نقف الآن

أمام شاعر مجدد كبير ، كان من أركان « الرابطة القلمية » . إنه ايليا أبو ماضي ، صاحب مجلة « السمير » .

إيليا أبو ماضي

هو من أكثر شعراء المهجر شهرةً ، ومن أقدرهم على اصطياد المعاني العصية ، والتحليق في أجـواء الخيال المترف ، والوصـول إلى عوالم الابتـكار والجمال .

وُلِدَ في قرية المحيدثة بلبنان عام ١٨٨٩ ، وقيل بعد هذا التاريخ بعام واحـد على الأرجـح . وكان أبوه [ضاهر] محباً للأدب ومطالعة الروايات والقصص ، فنشأ ابنه مثله محباً للدرس وقراءة الكتب وحفظ ما يعجبه من الأشعار .

وعندما بلغ السنة الحادية عشرة من عمره ، توجَّهَ إلى الاسكندرية ، وأخذ يبيـع الدخان والسجائر . وكان يمضي أوقات فراغـه في الدرس وقـراءة بعض الدواوين ، وخصوصاً أشعار أبي العـلاء المعري ، وأبي نواس . وكان يشجعه الشاعر الاسكندري عثمان حلمي .

ديوانه الأول

في عام ١٩١١ أصدر ديوانـه الأول بعنوان [ديوان إيليا ضاهر أبو ماضي] وأهداه إلى الأمة المصرية التي أحبَّها وأخلص لها .

وكان يـتردَّد على محـــله الصغير الأديب الكبير انطون الجميّل (١٨٨٧ - ١٩٤٨) صاحب مجـــلة « الزهور » فيراه منهمكاً بقرض الشعر ، فأراد أن يشجعه على الاستمرار في نظمه ، فنشر له في مجلته

المشار اليها بعض القصائد التي لم تخلُ من مسحة القديم .

هجرة الشاعر

في ذلك العام نفسه ، نزح ايليا إلى أميركا الشمالية ، وأقام في سنسناتي أوهايو مدة أربع سنوات ، لم يتخلَّ في أثنائها عن المطالعة والنظم ، رغم انصرافه إلى العمل مع أخيه مراد أبو ماضي .

وفي خلال هذه الفترة ، تطوّرت شاعريته ، ونزعت إلى التجديد المستحب . فبعد أن قال في ديوانه الأول :

بيضٌ ترائبها ، سود ذوائبها   زجٌّ حواجبها كحل مآقيها
قامتْ تصافحني والردفُ يمنعها   والوجدُ يدفعها والقدُّ يثنيها

راح يصف شلالاً رآه في أمريكا :

فيه من السيفِ الصقيل بريقهُ   وله ضجيجُ الجحفلِ الجرّارِ
أبداً يرشُّ صخورهُ بدموعهِ   أتراهُ يغسلها من الاوزار ؟

وفي احدى قصائده الغزلية يقول :

لو أستطيعُ عصرتُ روحي   خمـرةً في كاسِـها
حتى إذا وقفَ النوّى   بيني وبينَ كِناسِها
أو أنكـرتْ وتجـاهلت   أمري لدى جلاّسِها
أطللتُ من أجفـانها   وجريتُ معْ أنفاسِـها

والشاعر نفسه ، أحسَّ بانتقاله إلى مرحلة التجديد والابداع في الشعر فقال :

أيُّها السائلُ عني من أنا   أنا كالشرقِ إلى الشمس انتسابي

لستُ أشكو إن شكا غيري النوى غربةُ الأجسام ليست باغترابِ
أنا كالسوسنِ لو لم ينتقلْ لم يتـوّجْ زهـرهُ رأس كعـاب

ثمّ رحل ابليا إلى مــدينة نيويورك . وعندما تألفت الرابطة القلمية عام ١٩٢٠ غدا من أبرز أعضائها . وقد احتكّ بنعيمة وجبران ، فاكتسب اسلوبه طلاوةً وجدّة وعذوبة . وفي سنة ١٩٢٩ أنشأ مجـلة شهرية سماها « السمير » . وبعد عشر سنوات أي في عام ١٩٣٩ حولها إلى صحيفة يومية وجعل شعارها هذين البيتين :

أنا لا أهدي اليكم ورقاً غيركمْ يرضى بحبر وورقْ
إنما أهدي إلى أرواحكم فِـكراً تبقى إذا الطرس احترق

هذه الجريدة كانت تصلنا بانتظام بعد الحـرب العالمية الثانية ، وكانت تزدان بالمديد من قصائده البارعة ، ومن مقالاتـــه الاجتماعية والأدبية الجليلة الفائدة ، وبقيت « السمير » تصدر في مـواعيدها ، إلى أن توفي صاحبها عام ١٩٥٧ .

قصيدة الطين منتحلة من شاعرٍ بدوي

من أروع القصائد الواردة في ديوان [الجداول] المطبـوع في مطبعــة « مرآة الغرب » في نيويورك سنة ١٩٢٧ قصيـدة [الطين] وهذا مطلعها وبعض أبياتها :

نسيَ الطينُ ساعةً أنهُ طينٌ حقـــيرٌ فصالَ تيهاً وعربَدْ
وكسا الخزُّ جسمهُ فتباهى وحوى المـالَ كيسهُ فتمرّدْ
يا أخي لا تمِلْ بوجهـكَ عني ما أنا فحمةٌ ولا أنتَ فرقدْ
أنتَ لم تصنع الحريرَ الذي تلبسُ واللؤلـــؤَ الذي تتقلّدْ

أنتَ لا تأكل النضارَ إذا جئتَ ولا تشربُ الجمانَ المنضّدْ
أنتَ في البردةِ الموشاةِ مثلي في كسائي الرديم تشقى وتسعد
لكَ في عالمِ النهـار أماني ورؤىً والظلامُ فوقكَ ممتد
ولقلبـي كما لقلبكَ أحلامٌ حِسانٌ ، فانه غيرُ جلمَدْ

والقصيدة طويلة تقع في ٥٧ بيتاً ، وقد أثبت صديقنا العلاّمة البحاثة الكبير الاستاذ روكس بن زائـد العزيزي ، بما لا يدع مجالاً للشكّ أو للظن أو للتأويـل ، أن أبا ماضي ، استلّ معاني قصيدتـه « الطين » من قصيدة شاعرٍ بـدوي اردني يُدعى علي الرميثي . وهي قصيدة ذائعة الشهرة في البادية ، وتعرف هناك بشيخة القصيد . ومن المؤكد ، أن ضاهر أبا ماضي والد ايليا ، كان يحفظ القصيدة الرميثية ، وكان ينشدها على مسمع من ابنه المذكور ، فأعجبته معانيها ، ونقلهـا من العامية إلى الفصحى .

والاستاذ العزيزي ، لا يكتفي بالقول وحـده ، بل يعمد إلى الموازنة بين الأصل والمستلّ ، ويقارن كلّ بيتٍ بما يماثله في المعنى . وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال ، عـدداً من الأبيات الرميثية ، وأبيات ايليا أبي ماضي :

قال الرميثي :

يا اخوي ما آحنا لخمة ما بها سنى ولا أنت شمساً تلهب الدو بضياه

ويقول أبو ماضي :

يا أخي لا تمل بوجهكَ عني ما أنا لحمة ولا أنت فرقَدْ

وقال الرميثي :

لصار ما تاكل ذهب يوم تبلى   يا اخوي وش نفع الذهب يوم تقناه

ويقول أبو ماضي :

أنتَ لا تأكل النضارَ إذا جعت   ولا تشرب الجمانَ المنضَّدْ

وقال الرميثي :

ملبوسك آمن البز تبلاه بلوى   مثل الأكفان لميت طال مشحاه

ويقول أبو ماضي :

أنتَ في البردة الموشاة مثلي   في كسائي الرديم تشقى وتسعَد(١)

والأدلة كلها على هـذا النمط الذي يكاد يكون واحـداً . والاختلاف الوحيد في عدد الأبيات . فالقصيدة الرميثية تقع في أربعة عشر بيتاً . أما قصيدة أبي ماضي ، فتقع في سبعة وخمسين بيتاً . ولو أشار أبو ماضـي إلى المصدر الذي أخذ منه ، لأحسن إلى الشعر ، ولحافظ على الامانـة الادبية ، ولابعد عن نفسه تهمةَ الاقتباس أو الانتحال .

ومهما يكـن من أمر ، فاننا لا نستطيع أن ننكر شاعرية أبي ماضي ، أو نقلل من شأنها ، فهو شاعـر من الطراز الاول ، مهر الفصحى بخرائد كلها جدة ورقة وابـداع وتفاؤل . فاسمعه في القصيدة التالية كيف يملأ نفس الشاكي أملاً وجمالاً :

---

(١) فريسة أبي ماضي الطبعة الاولى ١٩٥٦ تأليف روكس بن زائد العزيزي صفحة ٥٢ .

أيهذا الشاكي وما بك داءٌ كيفَ تغدو إذا غدوتَ عليلا ؟
هوَ عبءٌ على الحياةِ ثقيلٌ من يظنُّ الحياةَ عبئاً ثقيلا
والذي نفسهُ بغير جمالٍ لا يرى في الوجود شيئاً جميلا
كنْ هزاراً في عشّهِ يتغنّى لا غراباً في الليل يبكي الطلولا
كن غديراً يسير في الارض رقراقاً ويسقي من جانبيه الحقولا
لا وعاءً يقيّدُ الماءَ حتى تستحيل المياهُ فيهِ وحولا
أيهذا الشاكي وما بك داءٌ كن جميلاً ترَ الوجودَ جميلا

ولنسمعهُ في قصيدته [ابتسم] كيف يدعو المرءَ إلى أن يتسلّح بالابتسام أمام الشدائد والصعاب والآلام :

قال السماءُ كئيبة وتجهّما قلتُ ابتسم يكفي التجهّم في السما
قال الصِّبا ولّى فقلتُ له ابتسمْ لنْ يُرجعَ الاسفُ الصِّبا المتصرما
قال الليالي جرّعتني علقماً قلتُ : ابتسم ولو جرعتَ العلقما
فلعلَّ غيرك إن رآكَ مرنما طرحَ الكآبةَ جانباً وترنّما

والقصيدة كلها تعزف على هذا الوتر الصادح بالبشر والتفاؤل والتصدي لليأس ومحاربته بالرجاء والصبر وقوة الارادة والابتسام .

والشاعر الحقّ في نظر أبي ماضي :

هوَ من تراهُ سائراً فوقَ الثرى وكأنَّ فوقَ فؤادهِ خطواتهِ
إن ناحَ فالارواحُ في عبراتهِ وإذا شدا فالحبُّ في نغماته
هو من يعيشُ لغيره ويظنّهُ من ليسَ يعرفهُ يعيشُ لذاته
وتراهُ يبسمُ هازئاً في غمرةِ الخطب الكريهْ
وإذا تحرّقَ حاسدوهُ بكى ورقَّ لحاسديه
كالوردِ ينفح بالشذا حتى أنوفَ السارقيهْ

وشاعرنا يفلسف الحياة ، ويجعلها مسرحاً للمباهج والمفاتن والحرية المطلقة ، التي لا يحدُّها تزمّت ولا عبـوس ولا ما يورث النفس حيرة أو منغصاً . إنه يحبها روضاً أنيقاً ينطلق الانسان فيه مع الفراشات ، ويرتمي على الزهـــور المغتسلة بنـدى الفجر ، وأريـج النسيم المضمّخ بالعبير اللطيف :

يريدُ الحبُّ أن نضحكَ فلنضحكْ معَ الفجرِ
وأن نركـضَ فلنركض معَ الجـدولِ والنهر
وأنْ نهتفَ فلنهتفْ مع البلبلِ والقمري
فمنْ يعلمُ بعدَ اليومِ ما يحـدثُ أو يجري ؟

وفي أواخر عام ١٩٤٨ زار الشاعر وطنه لبنان ، فأقيمت له فيه حفلات تكريمية أنشد في أحداها هذه القصيدة التي تصوّر عهدَ فتوته ، أيام كان يتتبـع السـواقي ، ويتسلـــق الأشجار ، ويبري الأغصان ليجعلها سيوفاً ورماحاً . وهذا مطلع القصيدة وبعض أبياتها :

وطنَ النجومِ أنا هنـا حدّقْ أتذكرُ منْ أنا ؟
ألمحتَ في المـــاضي البعيدِ فتىً غريراً أرعنـا
يتسلقُ الأشجـارَ لا ضجراً يُحسُّ ولا ونى
ويعودُ بالأغصانِ يـــبريهـا سيوفاً أو قنـا
أنا ذلكَ الولدُ الذي دنيـاهُ كانت هاهنـا
قد عانقت روحي ربـا كَ وصفّقتْ في المنحنى
عاشَ الجمـالُ مشرّداً في الأرض ينشد مسكنـا
حتى انكشفتَ له فألقـ ى رَحلـــهُ فتوطنا

وبعد ظهر يوم الخميس ٦ كانون الثاني [يناير] ١٩٤٩ كرّمته

الحكومة السورية وعلّق الرئيس شكري القوتلي على صدر الشاعر ، وسامَ الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة . وقد حيَّا الشاعر الشام بقصيدة عصماء نقتطف منها بعض أبياتها :

حيِّ الشآمَ مُهنّداً وكتابا	والغوطةَ الخضراءَ والمحرابا
ليست قباباً ما رأيتَ وإنما	عزمٌ تمرّدَ فاستطالَ قبابا
واهبطْ على بردى يصفّق ضاحكاً	يستعطفُ التلعاتِ والاعشابا
روحٌ أطلَّ من السماء عشيةً	فرأى الجمالَ هنا لحَنّ فذابا
بأبي وأمي في العراء موسَّدٌ	بعثَ الحيـاةَ مطامعاً ورغابا
لما ثوى في ميسلونَ ترنحتْ	هضباتها وتنفّست أطيابا
وأتى النجومَ حديثهُ فتهافتتْ	لتقومَ حرّاساً له حجّابا
ما كان يوسفُ واحداً بل موكباً	للنور غلغل في الشموس فغابا

والقصيدة قوية رائعة ، فيها صور شعرية جديدة ، ووصف دقيق أنيق صادق ، وعاطفة قومية مشبوبة وصافية ، وأخيلة مجنحة ترود عوالم الشعر الاصيل وتخلع عليه أبراداً قشيبة ، حاكتها عرائس الالهام ، ووشّتها أنامل سحرية مبدعة .

لغة الشاعر

كان ايليا أبو ماضي ، ضعيفاً باللغة العربية وقواعد النحو ، لأنه لم يتلقها عن أساتذة مختصين ، ولم يتعمق في دراسة فُصح اللغة وشواردها . ولهذا سجَّل على نفسه أغلاطاً كان من اليسير أن يتداركها شاعر ملهم مثله . ومن أغلاطه اشباع كسرة الشين بقوله :
« فامشِ على ضوء الصباح فان خبا فامشِ على ضوء الهلال الساري » ومنها اشباع فتحة الميم بقوله : « فلمَ تعذب مهجتي بالنارِ » . ومنها :

« ليطربَ من شاء أن يطربا » وكان عليه أن يقول : [ليطربْ] بالجزم لأنّ اللام لام الأمر ، لا لام التعليل . وأمثال هذه الاخطاء كثيرة في شعره . وكان يخلط بين [عدَن] بتحريك الدال ، وهي بلدة بجنوب اليمن ، وبين [عَدْن] بتسكين الدال وهي الجنة . وفي قوله في قصيدة [بائعة الورد] في باريس :

إذا رآها تقيٌّ ظنّها عدَناً وإن رآها شقيٌّ ظنّها سقرا

وبالرغم من ضعف لغته ، فقد كان شاعراً ذا قريحة خصبة مبتكرة وفكر يولّد أشرفَ المعاني ، ويرسم أجمل الصور ، ويحلق في أسمى آفاقِ الفنّ ، ويطلع على محبي شعره ، بقصائد يستنشقون منها عبقَ العبقرية والخلود .

مؤلفاته الشعرية

[تذكار الماضي] طبع في الاسكندرية عام ١٩١١ وهو الآن مفقود . وديوان [ايليا أبو ماضي] طبع عدة مرات في نيويورك و[الجداول] طبع سنة ١٩٢٧ وكتب مقدمته صديقه ميخائيل نعيمة و [الخمائل] طبع في مطبعة جريدة السمير اليومية في بروكلين - نيويورك عام ١٩٤٠ (١) . وظهر بعد وفاته [تبرٌ وتراب] طبع دار العلم للملايين ببيروت عام ١٩٦٠ . وقد توفي يوم السبت الواقع في الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني ١٩٥٧ بالسكتة القلبية ، في مدينة ناطحات السحاب نيويورك ، فنعته أمواج الأثير ، وبكته الأقلام ، ورثته

---

(١) الطبعتان المذكورتان من « الجداول » و « الخمائل » محفوظتان في مكتبة عبدالله يوركي حلاق .

الصحافة ، وعدّد مآثره المنصفون ، وقالوا إنه انتزع ابداعه الشعري من صميم الطبيعة ، واطـرف لغة الضاد بمعانٍ جليّة خلاّبة ، تستهوي اللبّ ، وتمتلك ناصية الاعجاب . وقد تمـــرُّ مواكبُ ومواكب من الأجيال ، دون أن نرى فيها ، من يعدل شاعرنا إيليا أبا ماضي ، ألمعية وشاعريةً ونبوغاً أصيلاً .

والحقُّ إنه الشاعر العربي الاول في المهجر الشمالي ، وكان لشعره فعل السحر في القلوب والخواطر . ومهما انقضت الأيام وتوالت الاعوام، فان شعر أبي ماضي سيظل على طرافته وجدّته وجزالته وتألقه ، لانه منبثق من شاعرية انسان ضمن لنفسه خلود الذكر ، واستطاع أن يفرضَ نفثاته الرائعة على كل عصر ومصر .



أحمد حسن الزيات


أحمد حسن الزيات

ومن يجهل أحمد حسن الزيات في الوطن العربي ، وقد ملأ عالم الادب ، بنتاج فكره الـثر ، ومعطيات قلمه المبدع السيال ، واتحف الناطقين بالضاد بروائع من الادب العالمي الخالد على الزمان .

كان لنثره وقع السحر في نفوس قرائه . وكانت مجلته [الرسالة] لسان حال الادب الحي الحافل بالجدة والاصالة والروح العربية الحقة . وكان يشارك في تحرير رسالته الدكتور طه حسين ، وأعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وكلهم في أرفع منزلة علمية وفكرية وأدبية .

ولهذا ، ما كادت تصدر تلك المجلة في صباح يوم الاحد ١٨

رمضان سنة ١٣٥١ هـ ١٥ « يناير » كانون الثاني سنة ١٩٣٣ ، حتى شقّت طريقها بقوة واعتداد ، وأخـذ يتهافت على مطالعتها « باشوات » ذلك العهد ، وكبار أدباء ذلك الزمن . فـــي أول أمرها كانت تصدر كل اسبوعين ، حاملة لمحبيها ومريديها أجمل ما في الآداب والعلوم والفنون ، من طريفٍ وجديد ومفيد . وكان استاذنا الزيات ومن تعاون معه في هذا الميدان ، يسكبون عصارة أدمغتهم ، وذوب قلوبهم ، ونور عيونهم على صفحات الرسالة ، ليبددوا ظـلام الجهل ، وليفتحوا أعين النائمين عن حقوقهم ، واذهان الغافلين عمَّا يحيط بهم من خير وشر .

شخصية أحمد حسن الزيات

كان أحمد حسن الزيات وسيماً كريماً ديّناً ، ولكنه لم يكن متشدداً في أمر الدين ، وقد عرف بتسامحه ولطف طبعه ورقة حديثه ، وبعده الكبير عن الخشونة والتعصب . وكان يعتزّ بعروبته ، وينفر من اولئك المنادين بالفرعونية في مصر وبالفينيقية في لبنان . أما المنادون بالصهيونية في فلسطين ، فـكان يحـــذّر الناس منهم ، ومما يضمرونه للعرب من كراهية واسعة .

كان يريد العرب موحدين غير متنابذين ولا متخاصمين ، ليستطيعوا أن يقفوا في وجه الاطماع التوسعية ، وخصوصاً في وجه اسرائيل ، وحليفتها الكبرى اميركا .

الزيات كاتب واقعي

اشتهر الزيات بأنـه كاتب واقعي كبير ، يستمدّ عناصر كتاباته من حياة شعبه ، وواقع المجتمع الذي يعيش فيه . فأحسن الموضوعات

في نظره ما عبَّر بصدقٍ عن رغبة الشعب ، وطموحات الأمة ، وما استطاع أن يبيِّن بجلاء نظرتها للمستقبل الذي ترنو اليه ، وتحبُّ أن تمتزج فيه . واستاذنا الزيات واسع أفق الخيال ، ولو لم يكن كاتباً من الطبقة الأولى ، لكان بلا شك ، شاعراً يرتاد بفكره الخلاق أبعد عوالم الابداع .

ومع ذلك ، فان الابداع طوع قلمه ، يعنو له عندما تحركه أنامله ، ويطلع على قرّاء [الرسالة] بما يطرب ويفيد معاً . فالاستاذ الزيات انساني قبل كل شيء ، يبشر بالمذهب الانساني الصرف ، ويقول: « أنتَ انساني تعالَ لاضمك إلى صدري بكل ما فيه من إخاء ومحبة ووفاء » وهو يرى ، أنَّ « ثقافتنا الحديثة ، إنما تقوم في روحها على الاسلام والمسيحية ، وفي أدبها على الآداب العربية والغربية ، وفي علمها على القرائح الأوروبية الخالصة ، أما ثقافة [البردى](١) فليس يربطها بمصر العربية رباط ، لا بالمسلمين ولا بالاقباط » .

فرعونيون وعرب

هذه النغمة « فرعونيون وعرب » كانت أبغض النغمات على اذن استاذنا الزيات . فقد كان الرجل عربيَّ القلب والفكر واللسان . وكان يمقت الفُرْقة ، ويحبُّ أن يجمع العرب لسان واحد ووطن واحد ، لا تخوم فيه ولا حدود ولا مكوس [جمارك] ومن أحسن مقالاته كلمة رائعة يقول في مطلعها : « حلا لبعضهم ذات يوم أن يكون بيزانطياً يجادل في الدجاجة والبيضة ، أيتهما أصل الأخرى ؟ فقال على هذا القياس : أفرعونيون نحنُ أم عرب ؟ أنقيم ثقافتنا على الفرعونية ؟ أم

(١) البردي : نوع من الورق استخرجه قدماء المصريين من نبات البردي .

تقيمها على العربية ؟

« نعم قالوا ذلك القول وجادلوا فيه جدال من أعطي أزمة النفوس وأعنة الأهواء ، يقول لهـــا كوني فرعونية فتكـون ! وكوني عربية فتكون ! ثمَّ اشتهر بالرأي الفرعوني اثنان أو ثلاثة من رجال الجـدل وساسة الـكلام ، فبسطوه في المقالات ، وأيدوه بالمناظرات ، ورووه في المحادثات ، حتى خال بنو الاعمام في العراق والشام ، أن الامر جد ، وأن الفكرة عقيدة ، وأن ثلاثةً من الكتاب أمّة ، وأن مصر رأس البلاد العربية ، قد جعلت المـآذن مسلات ، والمساجد معابد ، والكنائس هيا كل ، والعلماء كهنة ! . . . » .

« مهلاً بني قومنا لا تعتدوا بشهوة الجدل على الحق . ورويداً بني عمنا لا تستثنوا بقوة الظنّ إلى القرابة . إن الاصول والانساب ، عرضة للطبيعة ، تواشج بينها القرون ، وتفعل فيها الاجـــواء ، حتى يصبح تحليلها وتمييزها وراء العـلم وفوق الطاقة فاذا قلنا فلان عربي أو فرنسي أو تركي فانمـا نعني بهذه النسبة انطباعــــه بالخصائـص الثقافية والاجتماعية لهذا الشعب ، كاللغة والأدب والهـــوى والدين . فبديـع الزمان عربي وأصله فارسي ، وروسو فرنسي وأصله سويسري ، والامير فلان تركي وأصـله مصري ، لأن كلاً من هؤلاء الثلاثة أصبح جزءاً من شعبه ، ينطق بلسانه ، ويفكّر بعقله ويشعر بقلبه ... فبأي شيء يتمارى إخواننا الجدليون ، وهم لو كشفوا ما في أنفسهم عن مصادر الفكر ، ومنابـع الشعور ، ومواقع الالهام ، لرأوا أن الروح العربية تشرق في قـلوبهم ديناً ، وتسري في دمائهم أدباً ، وتجـــري على ألسنتهم لغةً ، وتفيض في عواطفهم كرامةً » .

ما أبلغ هذا الـكلام ، وما أروع نورانية هذا الفكر ، وما أسمى

سماحـــة هذا الانسان الكبير بعلمه وعقله ومبدئه ونظرتـه إلى الحياة والنـاس .

تحت سماء القاهرة

حين غدوت في ١٨ تموز [يوليو] عام ١٩٦٠ عضواً في مجلس الأمة الاتحادي ، أصبحت بحكم عملي قريباً جـداً من أقطاب الفنّ والادب في العالم العربي . فقـــد كانت القاهرة في ذلك الوقت مركز اشعاع أدبي ، تضم أعظم الجامعات وأكثرها عراقة ، وتحـوي أشهر الصحف وأوسعها انتشاراً ، واتقنها طباعـــةً . وكان كتاب الاقليم الجنوبي ومفكروه ورجال العلم والصحافة فيه ، يتزعمون النهضة الادبية في الاقطار العربية .

واتجهت رغبتي وأنا أقيم على شاطىء النيل الجميل ، إلى التعرف بالاستاذ أحمد حسن الزيات ، فقد كنت أحد قـراء [الرسالة] وعاشقاً لادبه الجـزل المتين القائم على التناسق والدقـــة والسلاسة والرشاقـة والانسجام والتعابير الحافلة بالتجديـــد النابـع من أعماق قلب زاخر بأشرف العواطف وأسناها ، وكنت معجباً بروحه الوحدوية ، ومناداته بالوحدة العربية والحـض عليها باعتبارها قوة كبرى برجالهـا ومواردها وموقعها وممراتها المائية المهمة .

الأستاذ وديـع فلسطين

كان وديـع فلسطين في القاهرة ، قطب دائرة الادب والصحافة ، وكان أحد المسئولين عن تزويد مجلة [قافـلة الزيت] بأحسن ما تنتجه أقـلام كبار كتاب مصر : كطه حسين والعقاد والمازني والزيات ومحمـد عبدالغني حسن وطاهـر الطناحي . والاستاذ وديـع هو اليوم عضو في

بمجمع اللغة العربية بدمشق والاردن ، وواحد من الكتاب المفكرين المبدعين في الوطن العربي .

كان الاستاذ الوديع يختار للمجلة المشار اليها المقالات التي يراها جديرة بالنشر . وكانت القافلة تدفع في ذلك الحين ، مكافآت مغرية . ولهذا كان يزوره في مكتبه بشركة النفط ، جهابذة الكتاب وفحول الشعراء ، حاملين اليه نتاج أقلامهم ليجيزها ويرسلها للنشر في تلك المجلة الراقية ، التي كانت توزع مجاناً على نطاق واسع جداً .

وكان الاستاذ فلسطين ، على صلة وثيقة بالاستاذ الزيات ، ففاتحته برغبتي الرامية إلى زيارة صاحب « الرسالة » في منزله ، فرحب بالفكرة وقال : إن الاستاذ أحمد حسن الزيات انسان مثالي ، يسخّر قلمه لخدمة الانسانية أولاً ، وللذود عن حياض اللغة العربية والوطن العربي ثانياً ، فهو من هذة الناحية ، خير من يجب أن تسعى اليه وتظفر بمعرفته ، وتمتّع نفسك بما ستسمع من أحاديثه المزدانة بأسمى المواعظ والحكم ، وبكثير من أخبار العرب وطرائفهم .

في منزل الاستاذ الزيات

لم تمض بضع ساعات ، حتى كنا نطرق باب منزل الاستاذ الزيات ، ففتح لنا الباب بنفسه ، ورحب بنا أجمل ترحيب ، وأجلسنا في صدر غرفة مفروشة بالسجاد الفاخر ، ومزدانة بالكتب الثمينة .

وبالرغم من انقضاء أكثر من ربع قرن على هذه الزيارة ، فما زلت أتمثله بطوله الفارع ، وجسمه الممتلىء ، ووجهه الوضّاء ، وثغره الدائم الاشراق ، وشعره الذي امتزجت به خيوط بيض ، أخفى معظمها

طربوش أحمر ، زاد صاحبه مهابة وجمالاً ووقاراً يفرض على جايسه الاحترام .

ولما عرفني أمثّل حلب في مجلس الامة ، قال بصوت حلو ولهجة هادئة رزينة : حلب مدينة عريقة وموغلة في القدم ، وقد أنجبت كثيراً من العلماء والشعراء والابطال والمتفننين ، وحسبها فخراً أنها كانت في عصر سيف الدولة الحمداني ، حصناً منيعاً في وجه الروم ، وحاضرة جمعت الأدب والطرب في نطاق واحد . ففي بلاط الأمير الحمداني اجتمع من الأدباء والشعراء والعلماء ، ما لم يجتمع مثلهم ، إلاّ لدى بعض الخلفاء ، وأنتم تعلمون والدنيا تعلم ، أن أبا الطيّب المتنبي ، أنشد أروع قصائده في بلدكم المتحلي بروح عربية أصيلة ، لم يستطع الحكم العثماني البغيض ، الذي سيطر على أكثر أقطارنا نحو أربعة قرون ، أن يضعفها أو يغير شيئاً منها ، ولا تمكنت العادات الأجنبية الدخيلة من إفسادها ، بل بقيت جذور تلك الروح الحرة الكريمة متأصلة في أعماق كياننا ، راسخة في بيئتنا وتاريخنا وأعرافنا .

وجاءت القهوة العربية ، ولم تجيء أكواب الشراب « الشربات » كما يسميها اخواننا المصريون ، فأخذ كلٌ منا فنجانه شاكراً . وبعد أن رشف استاذنا الزيات من فنجانه أول رشفة التفت الينا قائلاً : آثرت أن أقدم اليكما القهوة بدلاً من « الشربات » لتشعرا أنكما في بيتٍ عربي ، يحب العرب ، ويتمسك بعاداتهم وتقاليدهم المستحبة .

فعدنا نشكر له ، ونشيد برفعة خلقه . وعاد يقول لنا : مثلما أنجبت مصر أحمد عرابي ومصطفى كامل وسعد زغلول وجمال عبدالناصر ، هكذا أنجبت حلب ابراهيم هنانو وسعد الله الجابري وأنجبت سورية

يوسف العظمة وصالح العلي وشكـري القوتلي وسلطـان باشا الاطرش وفارس الخوري وغيرهم من الميامين الذين كانوا شوكةً في حلق الانتداب الذي فرضوه علينا وعليكم . ولكننا والحمد لله ، بتنا ننعم بوحدة تجمع ولا تفرّق ، تبني ولا تهدم ، تحبُّ من يحبها ، وتعتبر العرب سواسية في الحقوق والواجبات ، لا فضل لاحد على سواه ، إلاّ بقدر ما ينفع وطنـه ويفيد أمتهُ .

الوحدة بين سورية ومصر

كانت الوحدة بين سورية ومصر ، حدثاً سياسياً وقومياً عظيماً ، ترقبه العرب الشرفاء ، بكثير من اللهفة ، واستقبلوه بما يستحقُّ من اهتمام كبير ، وأفراح شعبية لم تشهد لها بلادنا مثيلاً .

كانت تلك الوحدة أمنية الآباء والاجداد . وكان السلف الصالح يعلّق عليها أطيب الأمال ، ويراهـا الطريق الوحيد المؤدي إلى المنعة والعزة والسيادة ، وبالتالي إلى التخلص من عـــدو غاشم اغتصب بالارهاب أجزاء عزيزةً من أراضينا المقدسة .

هذه الوحـدة لم تتحقق بقوة الحـديد والنار ، ولم تفرض على شعب مصر وعلى شعب سورية ، وإنما الشعبان الشقيقان فرضاها على أهل الحل والعقد . وبذلك تحققت الوحدة عن طريق القناعة القومية ، لا عن طريق القوة ، التي كادت تكون السبيل الوحيد ، لتحقيق الوحدة السياسية ، في جميـع الدول المتحدة في الوقت الحاضر (١) .

---

(١) أعلنت الوحـدة رسمياً في اليوم الأول من شهـر شباط [فبراير] سنة ١٩٥٨ . وكانت وحدةً كاملة شاملة .

من السياسة الى الأدب

وانتقلنا من السياسة إلى الأدب ، فسألت الاستاذ الزيات : ما رأيكم في هذا النمط الجديد الوارد علينا من الغرب والمسمى الشعر السريالي والرمزي ؟ فابتسم وقال : ليس في أدبنا ولا في تراثنا ولا في شعرنا الاصيل ، لا رمزية ولا سريالية ولا غير ذلك من المسميات الغربية ، أو من البدع الاجنبية ، التي يروّج لها من خفت عقولهم ، وضعفت لغتهم ، واختلت موازين الذوق عندهم .

ورشف آخر رشفة من فنجانه وأردف قائلاً : للشعر العربي بحور وأصول معروفة ، وهي تتسع لكل المعاني السامية ، والخيالات البعيدة ، والصور الفكرية الحديثة ، فلماذا نتركها ونلجأ إلى أزياء خارجية ، وتعابير مبهمة لا يفهم سامعها إذا كانت عزيف جن ، أو وسوسة شيطان ، أو هذيان محموم . الخير كل الخير اذن ، أن ننهج الطريق السوي الذي سلكه مشاهير شعرائنا . وإذا أردنا أن نضيف شيئاً من التجديد ، فليكن في المعنى والصورة والخيال ، على أن يبقى عمود الشعر سليماً من العبث ، بعيداً عن الفوضى والاضطراب .

مذهب الزيات في الحياة

سألت استاذنا الزيات عن مذهبه في الحياة ، فأجابني والابتسامة لا تفارق شفتيه : « كانت مجلة [الهلال] قد وجهت إليّ منذ بضع سنوات هذا السؤال نفسه ، ثم اضافته إلى أسئلة مماثلة طرحتها على غيري ، وجمعت تلك الاسئلة في [كتاب الهلال] العدد ٤٨ الصادر في مارس « آذار » عام ١٩٥٥ . وقد قلت في مستهل جوابي : « مذهبي في الحياة يتميّز بالاستقامة والوضوح . وبفضل هاتين الميزتين بلغت

عليه الغاية التي قصدتها منذ وعيت ، ولم أبلغ عليه الثراء الضخم ولا الجاه العريض ، ولكني بلغت عليه العيش الرضي ، والبال الرخي ، والذكر الحسن ، والسعادة الحقّة أقرب إلى الرضى والسكينة منها إلى المال والمنصب » .

كان الاستاذ أحمد حسن الزيات كما قال وكما شهد عارفوه وزملاؤه : مستقيماً نزيهاً لا يحبُّ الانحراف ، ولا يميل إلى المصانعة ، ولا يرغب في الجدل والملق والظهور والتبجح .

كان يبتعد عن الاضواء ، ويكـــره الوظيفة ، ويعشق الحرية والكرامة ونفع الناس ، ويؤثر العزلة والعمل بصمت . فلم يعرف عنه أنه وقف على منبر ، أو دخل في حزب ، ومع ذلك ، فقد نال شرف الجهاد في الثورتين المصريتين ، فكان في الأولى جندياً مجهولاً يكتب المنشورات السرية لطلبة المدرسة الاعدادية التي كان يدرِّس فيها . وكان في الثورة الثانية وطنياً معروفاً يوقظ الوعي القومي ، ويلهب الشعور الوطني بواسطة مجلته [الرسالة] ومع كل ذلك ما عرفه زعيم ، أو رآه حاكم . فأحسن الأعمال عنده ، وأكثرها فائدةً في نظره ، ما اندفعت من النفس ، واستترت عن الناس ، ودعمت الحقَّ ، وأيدَّت العدالة .

مؤلفات الزيات وأهم ما ترجم من كتب

١ - « تاريخ الأدب العربي » وهو من أحسن ما كُتب في هذا الموضوع ، لأنه يبحث في جميع عصور الأدب العربي ، بحثاً علمياً يمتاز بدقة التحليل ، والاشارة إلى ما بين أدبنا وبين الادب الفرنسي من صلة أو تشابه أو فرق ، وقد طبع هذا الكتاب حوالي ثلاثين مرة .

٢ً ـ « رفائيل » قصة من الشعر المنثور ، لشاعر الحب والجمال الفونس دي لامارتين Lamartine (١٧٩٠ ـ ١٨٣٤) وهي قصة قوية العاطفة ، تتسم بجمال الوصف ، وروعة الأسلوب ، وتألق البيان .

٣ً ـ « آلام فرتر » للشاعر الالماني غوته (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) وهي قصة واقعية من روائع الأدب الألماني ، تصور طهارة الحبّ ، وكرم الايثار ، وشرف التضحية ، باسلوب رشيق قوي ، وتحليل بارع دقيق . وقد ترجم هذه القصة الرائعة عن اللغة الفرنسية التي كان يجيدها اجادةً تامة .

٤ً ـ اشترك مع الاستاذ أحمد زكي في ترجمة رواية [غادة الكاميليا]

٥ً ـ سلسلةً من القصص القصيرة تحت عنوان [ضوء القمر]

٦ً ـ له مجموعة من المؤلفات القيمة بعضها مطبوع طبعات كثيرة ككتابه « دفاع عن البلاغة » وبعضها الآخر لم يطبع . وقد ضاع منه كتابان ألفهما حين كان في العراق وهما « عبقرية الاسلام » ، و « ذكرى عهود » .

نشأة الاستاذ الزيات

ولد أحمد حسن الزيات سنة ١٨٨٩ في قرية متواضعة تابعة لمركز طلخا تسمى كفر دميرة القديم . ويقول الصديق الدكتور حلمي محمد القاعود إنه ولد عام ١٨٨٥ وتوفي عام ١٩٦٨ .

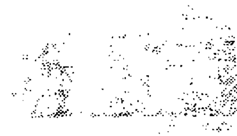
ولما ترعرع دخل « الأزهر » وتلقى فيه اللغة والعلوم عشر سنين ، وكان زميله في الدراسة صديقه ورفيق عمره طه حسين الذي غدا بحق عميداً للأدب العربي .

ثمّ انتقل الزيات إلى الجامعة المصرية القديمة ، فدرس فيها العلوم الحديثة ، وتتلمذ لكبار المستشرقين ، ثم زاول التعليم بمدارس الفرير فتعلّم اللغة الفرنسية ، ودخل بعد ذلك مدرسة الحقوق الفرنسية ، فدرس العلوم القانونية ، وأدى الامتحان النهائي في مدينة باريس ، ثمّ عيّن رئيساً لقسم اللغة العربية في الجامعة الاميركية بالقاهرة .

وفي عام ١٩٢٩ اختير استاذاً للادب العربي في دار المعلمين العليا في بغداد ، حيث بقيَ ثلاث سنوات ، عاد بعدها إلى القاهرة ، فأصدر مجلة [الرسالة] ، التي عاشت عشرين سنة أدّت في أثنائها رسالة الأدب والعلم والفن ، على أكمل وجه ، وأشرف قصد وأقوم سبيل .

كرّمته الدولة بجائزتها التقديرية عام ١٩٦٤ تالياً لطه حسين والعقاد، وبعد انتقاله إلى رحاب باريه عام ١٩٦٨ . تناولت أقلام نخبة من الباحثين وكبار الكتاب أدبه المميز ، ومجلته « الرسالة » التي كان وثيق الارتباط بها ، والتي قامت عليها شهرته ككاتب وناقد صحفي من الطراز الأول ، وكرائد من رواد نهضتنا الادبية الحديثة .





أحمد السقاف

الاستاذ أحمد السقاف ، من أكبر شعرائنا ، وأصدقهم عروبةً ، وأكثرهم وطنية وتمسكاً بعاداتنا النبيلة ، وتقاليدنا الاصيلة، وتراثنا العريق ، وهو على درجة عاليةٍ جداً ، من الكرم الواسع، والمروءة الشاملة والنجدة الحقّة، والانسانية الخالصة ، التي لاتفرّق بين محتاج وآخر ، بل تهرع إلى اغاثة جميع الملهوفين ، وتبلسم جراحات المنكوبين كافةً بقلبٍ عامرٍ بالمحبة ، زاخرٍ بأسمى مشاعر العطف واللطف والحنان .



الشاعر الكبير الاستاذ أحمد السقاف

وحسبكَ أنْ تجالسَ أستاذنا السقّاف ، وتسمع كلامه المفعم بحب الله والوطن والوحدة العربية ، لتعرف معدنَه الشريف ، وتتبيّن تعلقه بقوميته ، وشدّة إيمانه بها وغيرته عليها .

وقد أتيحَ لنا أن نزورهُ في مكتبه وفي بيته الرحب المضياف ،

وأن نلاقي من ترحيبه ، وحسن استقباله ، ما جعلنا نخشع لشخصيته الفذّة ، المتسمة بالوداعة والتواضع والأدب الرفيع ، والتبحر في العلم ، والالمام الكامل بفصح العربية وشواردها وأبعاد معانيها .

إنه محدّثٌ لبق ، وموسوعة أدبية حية ، يحفظ الكثير الكثير من أخبار العرب ، ونوادر الادباء ، وقصائد أمراء الشعر ، وحِكَم فلاسفتنا الأقدمين ، فمجلسه نــــدوةٌ عامرة بالكلمة الحلوة ، والعظة المفيدة ، والملح الطريفة اللطيفة (١) . وهو معجب بالأمير سيف الدولة الحمداني ملك حلب ، وبعصره الذهبي الذي ازدهر فيه الشعر ازدهاراً عظيماً ، جعل الثعالبي يقول في كتابه [يتيمة الدهر] : « لم يجتمع قطّ بباب أحدٍ من الملوك بعد الخلفاء ، ما اجتمع بباب سيف الدولة، من شيوخ الشعر ونجوم الدهر » . وكان سيف الدولة يشجعهم ويُغدق عليهم صلاته السخية وعطاياه الكثيرة ، حتى ان أبا الفرج الاصبهاني (٨٩٧ - ٩٦٧) قــــدّم اليه كتابه [الاغاني] فأجازه بمبلغ كبير من الذهب (٢) .

ولشعر استاذنا السقاف ، وقع عميق في قلوب عشاق الجــــدّة والرقة والجزالة والمعنى المبتكر ، فأنت لا تكاد تقرأ قصيدةً من قصائده حتى تحسّ بجاذبٍ خفيٍّ يشدك اليها ، ويدعوك إلى تلاوة قصيدة ثانية فثالثة من نظمه المزدان بشفافية خاصة ، وأخيلة مجنحّة ، وألفاظٍ رشيقة اختارها الشاعر من منجم فكره المبدع الخلاق .

---

(١) [من أعلام العرب في القومية والأدب] لعبدالله يوركي حلاق ص ١٨١

(٢) [حلبيات] لعبدالله يوركي حلاق ص ١٨ .

والمعروف ، أن هذا الشاعر الكبير ذو شهرة بعيدة المدى ، بخرائده القومية والوطنية ، وانه يمثل بلده الكويت في المؤتمرات الأدبية، والمهرجانات الشعرية التي تُقام في أرجاء الوطن العربي . وقد سمعناه أول مرّة ، في مؤتمر أدباء العرب الثامن الذي عُقد في قاعة الاحتفالات بجامعة دمشق ، في الفترة الواقعة بين ١١ / ١٢ و ١٦ / ١٢ / ١٩٧١ وصفقنا له كثيراً ، وهو يلقي بصوته الجهوري الرزين ، وبلهجته الفصيحة الأخاذة ، قصيدةً يخاطب فيها دمشق بأبيات كلها فخر وأنفة ومحبة ، فاسمعه كيف يبدأ تلك القصيدة التي هزت الحفل ، وانتزعت الاعجاب، وأطلقت الحناجر بالهتاف :

صمودُكِ فخرٌ تحدّى المفاخرْ	وإيمانك الصلبُ هزَّ المشاعرْ
دمشقُ اليكِ تحنُّ النفوس	وبالنوطتين تقرُّ النواظرْ
دمشقُ قدمتُ إلى المهرجانِ	بفكرٍ مهيضِ الجناحينِ حائر
أرددُ كيفَ يزفُّ القريضُ	اليكِ وفيك الفحولُ المباقر
ومنْ كلِّ حيٍ تطلُّ الفنونُ	وفي كل بيتٍ أديبٌ وشاعر

وكم وددنا لو ظفرت حلب باحدى قصائد السقاف ، لتضاف إلى ما قاله فيها الأخطل الصغير بشارة الخوري ، وشاعر الشباب عادل الغضبان ، والشاعر المهجري الياس فرحات ، وغيرهم من الشعراء المحدثين والقدامى . فقد كان للشعر في الشهباء دولة ، وتحت سمائها تألّق نجم المتنبي وترعرع أبو فراس الحمداني ، وأبدع عمر أبو ريشة أروع خرائده . ومن الشهباء بزغت في القرن السابع عشر شمس النهضة الأدبية ، ثم انتقلت إلى لبنان ، ومن الجبل الاشم تحولت إلى وادي النيل ، فأخصبت فيه وأزهرت ، فـزادت الفصحى قوةً وانتشاراً . ومن كان في شك من ذلك ، فليرجع إلى التاريخ يسأله عن علماء حلب ، وعن

رجالات الفكر والصحافة فيها ، وعن أول مطبعة عربية في الشرق كله طبعت الكتب بحروفٍ عربية ، بعد أن كانت لغة الضاد تُطبع بحروف كرشونية كما فعلت مطبعة دير قزحيا - قرب اهدن في لبنان - عندما نشرت عام ١٦١٠ كتاب « المزامير » في حقلين متقابلين : الأول في اللغة العربية بحروف كرشونية (١) والثاني باللغة السريانية .

ثورة الحجارة

وشعر الاستاذ السقاف ، يسجل أحداث أمتنا بأمانة مثلى ، وبيانٍ وضّاء ، وله في هذا المجال لفتات وطنية وانسانية تدعو إلى أوفر الاعجاب ، وتثبت أن هذا الشاعر الملهم ، يتتبع وقائع كل قطر عربي ، ويعايش مختلف الشعوب العربية ، ويشاطرها أفراحها وأحزانها . وها هو يصف بمنتهى الصدق حرب الحجارة الناشبة على الساحة الفلسطينية ، بين أبنائنا وبناتنا العزّل إلا من حجارة الطريق ، وبين ذئابٍ يلبسون الخوذات الحديدية ، ويطلقون الرصاص الحي ، ويرشون الاطفال والنساء والشيوخ العرب بالغازات الخانقة ، ويدفنون أهلنا أحياء في الحفر وتحت الأنقاض .

وقد جادت قريحة السقاف ، بقصيدة عنوانها [ثورة الحجارة] هي أصدق وأروع ما قرأناه من قصائد عالجت هذا الموضوع ، ووصفت هذه الحرب غير المتكافئة :

ليس عندي كنايةٌ واستعارهْ   فقريضي مستلهمٌ من حجارهْ
هؤلاءِ الصغارُ قد ايقظوا الشعب   وهاجوا إباءَهُ واقتداره
وتنادوا من أجلِ صوت فلسطينَ   فطوبى لمنْ يحررُ داره

---

(١) الكرشونية : حروف سريانية بلفظ عربي .

عزّلٌ أذهلوا العدوَّ ببأسٍ ... يعربيٍّ وغارةٍ بعدَ غارَهْ
لم يخافوا وكيف يخشى المنايا ... من تحدّى الردى ليطلبَ ثاره
وتراهمْ مضرجينَ دماءً ... والأيادي بالنصرِ تعلي الاشاره
إنْ هوى منهمُ شهيدٌ تعالتْ ... زغرداتُ النساء في كلِّ حاره
مثلُ عمرِ الزهور، مثلُ العصافيرِ ... ولكنهمْ لفجــرٍ بشاره
أخرجونا من القنوطِ وأقسى ... ما نلاقي احتقار أهلِ الحقاره
هؤلاءِ الذين لم يعرفوا العزَّ ... وعاشوا على الربا والدعاره
من نفاياتِ هتلرٍ جمعَ الغربُ ... حثالاتهم بأرض الطهاره
مادَ مسرى النبيِّ واهتزَّتِ القدسُ وكادت تفورُ تلك المغاره

وهنا يخاطب الشاعـــر أبطال الحجارة بصوته الأبويِّ الوادع قائـــلاً :

يا بنيَّ الصغـارَ بوركَ فيكم ... أنتمُ اليومَ للنضالِ منـاره
قد نزلتم في كل عينٍ وقلبٍ ... من بني قومكم بكلِّ جداره
ورفعتمْ رؤوسنـا وعليـكمْ ... وبـكمْ نالتِ الحجارُ نضاره
فاسلموا وارقبوا فعمّا قريبٍ ... يقطفُ الجودُ بالنفوسِ انتصاره(١)

إنها لوحة شعرية رُسمت بعبقرية فنيّة خارقـة ، وبألوان امتزج فيها الدّمُ والدمـعُ والعرق ، وبصدق في الوصف والتعبـير لم يتوصل اليها شاعر ، فالسلاسة تجري في القصيدة على انبساط ، وصور البطولة والفداء تطـلُّ من آفاق المعارك الدائرة بين صبية في عمر الزهـــور يريدون استرجاع حقهم السليب ، وبـين زبانية غلاظ القلوب ، فاقـدي الضمائر ، يصرون على اغتصاب الأرض بقـوة السـلاح ، ويبقر بطون

---

(١) مجلة الضاد العدد ٣/١٩٨٨ ص ٦ .

الحوامل ، والتمثيل بجثث القتلى ، والاعراض عن إسعاف جرحانا .

ومن الغريب ألاّ يستيقظ الضمير العالمي من نومه العميق ، وأن تظل حقوق الانسان في أروقة العدالة الدولية حبراً على ورق ، وأن تسكت هيئة الأمم عما يرتكبه الصهاينة الآثمون ، من أعمال بربرية ، لم يتوصل اليها المغول ولا النازيون في أشدّ هجماتهم شراسةً ووحشية .

وتشغل قضية فلسطين حيّزاً كبيراً من اهتمام الاستاذ السقاف ومن شعره وفكره . وبمناسبة انعقاد مؤتمر الملوك والرؤساء العرب ببغداد عام ١٩٧٨ أبدع قصيدةً [القَسَم المقدَّس] وقال في مطلعها :

يميناً فلسطينُ لنْ نركعا ... أمامَ اليهود ولن نخضعا
يميناً تجلجلُ في الخافقينِ ... وتمتلكُ القلبَ والمسمعا
يميناً يردّدُها المسلمونَ ... وتُشغل في السمعِ منْ قد سعى
لئن طالَ ليلكِ بالغاصبينَ ... فقد آنَ للفجر أن يطلعا
وقد آنَ للعرب أن يزحفوا ... إلى ثالث الحرمين معا

وعندما روَّجت العصابات الصهيونية إشاعات تقول إنها تستطيع صنع القنبلة الذرية ، جابهها استاذنا السقاف بقصيدته [الرّد] وفيها يقول :

لن أهابَ القنابل الذرّيهْ ... فأنا اليومَ قد وعيتُ القضيهْ
موقفي موقفُ الرجالِ وإني ... عربيٌّ من أمّةٍ عربيه
وبلادي لها الخلودُ وبالرو ... حِ أفدي سهولها السندسيّه
ومنَ العارِ أن تظلّ بلادي ... تحتَ أقدامِ طغمةٍ أجنبيه

وللشعر القومي والوطني والوجداني المقام الأول في نفس السقاف

وذهنه ، وقد اشتهر بمواقفه الوطنية المشرفة ، وبدفاعه المجيد عن أمته وبلاده ، وبحثّ قومه على الوحـدة . فقد كانت الوحدة العربية أمنية الاجداد والآباء ، وهي اليوم أمنية العرب الشرفاء جميعاً . فانشاء وحدة من مئة مليون وعشرة ملايين نسمة لها ثقلها في الميزان الدولي ، ولها ولموقعها الستراتيجي الممتد من الخليج العربي إلى المحيط الاطلسي ، ومن أقصى الشمال العربي إلى بـلاد اليمن ، أهميتها البالغة في الحسابات الحربية ، والمخططات الجغرافية المشتملة على أهم الممرات المائية ، وعلى أمنع الحصون الطبيعية . والاستاذ السقاف يتوق كما يتوق كلُّ عربي مخلص ، إلى ذلك اليوم الذي ترفرف علينا فيه رايةٌ واحـــدة ، هي راية العروبة ذات الكيان الواحد ، والهدف الواحد ، والجيش العربي الواحد .

لن نسترسلَ في الحـديث عن عروبة السقاف ، وعن منظوماته القومية ، لأن ذلك يحتاج إلى مؤلَّف خاص ، نأمـل أن يساعدنا الله على وضعه قريباً إن بقيَ في سِراج العمر زيت ، ولكننا نحب أن نضع أمام القارىء الكريم لوحات وجدانية وصوفية ووصفية وغزلية ، رسمتها ريشة السقاف ببراعة قلَّ نظيرها في عالم الشعر المعاصر ، لأنها تستمدُّ عناصر غذائها وإبداعها من صميم الواقع الملموس والمنظور ، وتبيِّن للناس خلجات الصدور ، وتسمعهم همسات المحبـــين وأنّات المتعبين وثقيلي الأحمال .

الأندلس في شعر السقّاف

ولفردوسنا العربي المفقـود ، نصيب وافر من شعر السقاف . فقد زار الأندلس مراراً ، وشعر بالدموع تترقرق في عينيه وهو يشاهد قصر الحمـراء وجنة العريف في غرناطة ، التي سمّاها معروف الارناؤوط رحمه الله ، مدينة الدمع المتفجّر .

وفي ربيع عام ١٩٧٩ زار شاعرنا السقاف مدينة قرطبة ، ونزل فندقاً جميلاً يُسمى « فندق الرصافة » يقع على ربوةٍ خضراء ، تطلُّ على جنّةٍ من جنّات الله على الأرض ، وسأل عن سبب تسمية الفندق بالرصافـــة ، فقالوا له : إن المنطقة التي أُنشىءَ الفندق فيها تسمى منطقة الرصافة منذ الحكم العربي ، لذلك دُعيَ الفندق بالرصافة ، فلم يستطع الشاعر أن ينام ، قبل أن يكتب قصيدةً يعرب فيها عن أسفه لضياع تلك الجنة الاندلسية الساحرة :

فؤادي تمزّقَ يا قرطبهْ ونفسي مجهدةٌ متعبَهْ
فلا تعذليني إذا ما كبا خيـالي وخانتيَ الموهبه
فقدْ يقتلُ الحزنُ وحيَ الفنون فلا الصيتُ يجدي ولا التجربه
نزلتُ الرصافة يا للعذابِ فهاجتْ أساطيرهُ المسهبه
تطلُّ على جنّةٍ كلُّهـا خمـائلُ مزهرةٌ مُطربه
أناجيه ولهانَ مثلَ المشوقِ يبثُّ حبيبتــــهُ مطلبه
وأسأله عن زمانِ الجـدودِ وعلمٍ أناروا له موكبَه
عدالتهم فوقَ كلِّ النعوتِ وكانت لدى غيرهم مكذبه
وعمرانهم في جبينِ الخلودِ تطوفُ بهِ أممٌ مُعجبه
فهل يذكرُ الغربُ ذاك العطاءَ أمِ الحقدُ ينسيهمُ أغلبه
فما أجملَ الصدقَ عندالرواةِ وما أطيبَ العدلَ ما أطيبه
ملكنا فكنا حديثَ الزمانِ وزلنا وفرّقتنـا المذنبه

وقصد الشاعر مدينة [مدريد] عاصمـــة اسبانيا ، وأحبَّ أن يسهر في « نادي الجاز » فاستقبلته احدى غانيات ذلك النادي بعبارة « أهلاً وسهلاً » فأوحى اليه جمالها الفتّان ، وعبارتها العربية الحلوة ، هذه القصيدة الرقيقة وعنوانها « بنت مدريد » :

بنتَ مدريد ما ألذَّ وأحلى … أن تقولي للضيف : أهلاً وسهلا
ما تخيَّرتُ « نادي َ الجاز » لولا … أنتِ فيــه كبدرِ تمٍّ تجلّى
تقطفُ العينُ من محياكِ ورداً … هو أزكى من الورودِ وأغلى
جمعَ اللهُ بينَ عربٍ واسبانَ … فكانَ الجمالُ أشهى وأعلى
لا تقولي : عهدٌ قديمٌ تقضّى … إنــه في العيونِ ما زال يتلى
يشعر القلبُ بالتلاقي وإن لمْ … تمنحيـهِ يا ربةَ الحسنِ وصلا
ويصدُّ الظنون حين تصدينَ … ويغفــي على الذاذاتِ طفلا
إنهُ القلبُ لا يقاومُ حسناً … وعيونـاً ، تبارك اللهُ ، نُجـلا
يتـــنزّى إما تذكّرَ عهـداً … كان للمجدِ والمفـاخر ظـلاّ
ومن العدلِ أن تصانَ أصولٌ … جمعتنا في سالف الدهر أهـلا

ونحن نلمس في هذه القصيدة البارعة ، نفحةً عطرةً من الغزل العفيف ، والنفَس الشعري النبيـــل . فلأستاذنا السقاف غزل في غاية الروعة والتألق الفني المنبثق من أعماق عاطفة عذرية سمحـــة تخشع في محراب الجمال الخلاب والحب الطهور وفي قصيدته [الى الحسناء الغضبى] يحلّق شاعرنا في سماء الابداع ، ويتصيّد أشـرف المعاني المعبرة بصدق وعفوية وانسجام ، عما يجـــول في فكره من صور وأخيـلة ونغمات عذبة شجية :

ليسَ لي بالذي تقولينَ علمُ … لا وعينيكِ فالحكايةُ وهمُ
نشرَ الحاسدونَ هذي الأقاويـ … ـلَ ويا ليتهم مدى العمر بُكم
أنتِ ما زلتِ في فؤادي تقيمـ … ـينَ وتصديقكِ الاشاعاتِ ظلم
هل يُفيد الهروبُ من أسرِ عينيكِ وفي كلِّ نظرة منكِ سهم
عِلمَ اللهُ كم أعاني من البعـ … ـدِ وكم شفَّني من الوجدِ سُقم
لم أجِدْ كلما اتصلتُ جواباً … بُدّلَ البيتُ أم تغيَّرَ رقم ؟

إنْ تظني أنَّ الصدودَ كفيلٌ بتناسي الهـــوى فظنكِ إثمُ
كلَّ يومٍ تؤججينَ اشتيـاقي حينَ يزهو حسنٌ ولبسٌ وجسم
بعضُ هذا الجمال يسلبُ عقلي كيفَ إن زانـهُ ذكاءٌ وفهم
فارحمي القلبَ ، فالحياةُ فراغٌ ليسَ فيها بعد ابتعادكِ طعمُ

لقد حازت هذه القصيدة الغزلية إعجاباً يفوق التصور ، وحفظها المديد من عشاق الأدب والغزل والتجديد ، وترجمها إلى اللغة الفرنسية شعراً ، مربي الجيل ، وأديب سورية الكبير الأستاذ الياس حنا زحلاوي ، ونشرها في ديوانـــه الفرنسي Elans du coeur - Murmures de l'âme [وثبات القلب ـ همسات الروح] بعنوان A la Belle courroucée (١) .

وغزل الاستاذ السقاف كله على هذا المستوى العالي ، والطراز الأنيق ، والصوفية الممتزجة بأسمى وأسنى وأغلى معطيات النفس وصفاتها الانساني ، ودفقها الوجـداني . صوفية بعيدة كلَّ البعد عن المـادة ، وقريبة كل القرب من الالوهة والروحانية الشرقية الزاكية .

مؤلفات الأستاذ السقاف

ليس الأستاذ السقاف شاعراً عملاقاً فحسب ، ولـكنه مؤرخ كبير ولغوي قـــدير ، وخطيب مصقع يستأثر بقـلوب سامعيه وخواطرهم ، ويشدُّ اليه الجماهير المعجبة بطلاقة اللسان ، وإشراقة البيان ، ونقـاء الضمير العربي المتجلي في هذا الانسان الوحدوي الأصيل .

من مؤلفات الاستاذ السقاف [العنصرية الصهيونية في التوراة] و [أنا عائد من جنوب الجزيرة العربية] و [المقتضب في اللغة] وكتاب

---

(١) الديوان ص 42 bis ، 42 ter

[الأوراق] وقد أعيد طبعه مراراً ، وهو يبحث في أشهر ديارات العراق ، ويتحدث عن الشعراء الذين كانوا يتطرحون فيها ، ويلمسون في أجوائها راحة البال ، وهدوء النفس ، وجمال المنادمة . وقد ظفر الأدب مؤخراً ، بديوان بديع ينطوي على مجموعة رائعة من شعر السقاف ، ذلك الشعر المتصف بروح عربية صافية ، تجمع ولا تفرّق ، وتبني لأجيالنا الصاعدة ، قواعد راسخة تقوم على أسس صلبة من التآلف والتكاتف والترفّع عن العنصرية والطائفية ، والعمل بهذه الكلمة المأثورة : [الدين لله والوطن للجميع] .

مجلة (العربي) والسقاف

يُعتبر الاستاذ أحمد السقاف ، في طليعة رواد الصحافة في الخليج العربي السمح ، ومن أوائل العاملين في الحركة الأدبية والثقافية بالكويت . ففي عام ١٩٤٨ أصدر بالتعاون مع صديقه المرحوم عبدالحميد الصانع مجلة [كاظمة] وهي أول مجلة طبعت في الكويت .

وبعد استقلال الكويت ، عُيِّن الاستاذ السقاف وكيلاً لوزارة الارشاد والانباء ، فاهتم بالشؤون الفكرية والثقافية . وبتكليف من المسؤولين ، سافر إلى القاهرة لاختيار هيئة تحرير لمجلة عربية كبرى ، فوقع اختياره على الدكتور أحمد زكي ، وعلى رهط من المحررين والمخرجين . ولم تمضِ مدةٌ وجيزة ، حتى صدرت مجلة (العربي) (١) .

وقد أخبرنا صديقنا الاديب المفكر الكبير الاستاذ وديع فلسطين المقيم في القاهرة ، أن الاستاذ السقاف اختاره للمساهمة في تحرير تلك

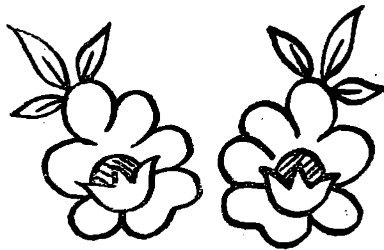
---

(١) انظر كتابنا « من أعلام العرب في القومية والأدب » ص ١٨٢

المجلة ، فاعتذر لانه كان مكلفاً في ذلك الحين بادارة أمور مجلة [قافلة الزيت] وليته قبلَ ، اذن لربحت مجلة « العربي » فكراً نيّراً ، وقلماً مبدعاً ، غدا صاحبهما ـ رغم بعده عن الاضواء ، وعزوفه عن الدعاية والشهرة ـ عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق والاردن .

وكم نحب ، أن يذكر قراء مجلة « العربي » في كل مكان ، ذلك الانسان المثالي الذي كانت له يدٌ كريمة بيضاء ، في اصدار تلك المجلة الزاهرة ، وفي نشر مجموعة ممتازة من كتب تراثنا ، ومخطوطات علمائنا ومفكرينا وأدبائنا ، وفي تولي رئاسة « رابطة الادباء بالكويت » .

إنه الشاعر الكبير بخلقه ، وعلمه وفضله وأدبه وصدق عروبته، الاستاذ أحمد السقاف حفظه الله ورعاه .



شاعر الأرز
شبلي الملّاط



« شاعر الارز » شبلي الملاط

في لبنان كما في مصر، يطلقون على كبار الشعراء ألقاباً يعرفون بها . فبشارة الخوري يُلقب بالأخطل الصغير ، وشفيق المعلوف يُلقب بشاعر عبقر نسبةً لملحمته الرائعة [عبقر] وميخائيل نعيمة يُعرف بناسك الشخروب وهو كهف منحوت في قلب صخرة كبيرة ، كان نعيمة يلجأ اليه في عهد طفولته ، وقيصر المعلوف كان لقبه شاعر الوادي نسبة إلى وادي العرائش بزحلة ، وحليم دموس كان لقبه شاعر « البردوني » وهو نهر يجري في قلب زحلة . أما شبلي الملاط فقد لُقبَ بشاعر الارز .

شاعر الأرز

الارز شجر جميل ذو أغصان دائمة الاخضرار ، يعيش زمناً طويلاً في أعالي الجبال ، وهو شعار لبنان . وقد لقب شبلي الملاط « بشاعر الأرز » لأنه كالارز في مهابته وشموخ أدبه ، ولأن معانيه كجذور الشجرة الخالدة عمقاً ورسوخاً ، وكغصونها نضرةً وسمواً ورواءً .

والمعروف أن الارزة تتوسط العلم اللبناني . ومن شعر شبلي قوله في علم وطنه :

عَلمي ولستُ بتاركٍ علمي	حتى يخضّب جانبيهِ دمي
أشقى الورى شعب بلا وطنٍ	وأذلّهم قومٌ بلا علمِ
دفنَ الزمانُ بأرزتي قِدماً	مجدَ الشباب وحكمةَ الهرم

لقد كان شبلي الملاط ، سيداً في قومه ، ومقدماً في أمتهِ ، وأميراً من أمراء هذه الدولة الأزلية الجميلة التي يسمونها دولة الشعر ، وكان لقوافيه ولالقائه ، فعلُ السحر في النفسِ والفكر .

اشتهر بجزالة شعره ، وسلاسة الفاظه ، وشرف معانيه ، وجمال القائه . وكان صوته الجهوري ذو النبرات القوية الحلوة ، يهزُّ القلوب ، ويرنح الاعطاف ، ويطلق الايدي بالتصفيق ، والحناجر بالهتاف للشاعر المحلّق في أجواء الابداع .

في مهرجان شوقي

والذين شهدوا مهرجان شوقي حينَ بويعَ بامارة الشعر عام ١٩٢٧ وسمعوا فيه قصيدة تمثل لبنان ومطلعها :

ردّتْ عليَّ مطامحي وشبابي ذكرى الصِّبا وملاعبَ الأحبابِ

يعرفون أيَّ منزلة بلغها بين عمالقة القريض ، وجبابرة البلاغة والبيان ، حتى لقد قال بعضهم : « لو أنصفنا ، لبايعنا بامارة الشعر شاعرين : شوقي والملاط ، الأول في الجنوب ، والثاني في الشمال » .

وسمعت من شاهد عيان ، أن شاعر الأرز لما وصل إلى هذا المقطع من بائيته الرائعة :

يا أيها الملقى(١) وفي ناووسهِ عظةُ الزمانِ وروعةُ الاحقابِ
هلاّ وثبتَ إلى حسامكَ وثبةً ودفعتَ عن مصرٍ يدَ الغلاب
من للزمانِ بمثلِ فضلِ محمدٍ وعدالةٍ كعدالةِ الخطّاب
رفعَ الرسولُ عمادَ أمةِ يعربٍ وأعزها بالآلِ والاصحاب

ضجَّت دار [الأوبرا] الملكية بهتافات المعجبين ، وكلهم من أقطاب العلم والفكر والبلاغة . وفي اليوم التالي نشرت جريدة [الاهرام] تلك الخريدة العصماء التي جاءت في ١٢٦ بيتاً ، وتوّجتها بمقدمةٍ جاء فيها : « فألقى شبلي الملاط قصيدةً تسنّم بها الذروة ، وكان كل بيت من أبياتها بعد أن يمرّ بالاسماع حروفاً وكلماً ، يستحيل في النفوس طرباً ونغماً ، وكان في وقفته ملءَ العيون ، كما كان بقصيدته ونغمته ملءَ الصدور ، فقد جمعت جزالة البداوة إلى رقة الحضارة ، فاستعيد مراراً ، وصُفِق له تكراراً » .

---

(١) اشارة إلى توتنخ آمون فرعون من السلالة المصرية الثامنة عشرة ، عاش في القرن ١٤ ق.م .

متى عرفت شاعر الأرز

عرفتُ شاعر الارز تحت سماء الشهباء . وكان قد جاءها للاشتراك في حفل إزاحة الستار عن تمثال فقيد العلم والفضيلة جرمانوس فرحات . وقد أقيم ذلك الحفل الكبير ، في الساعة السادسة من بعد ظهر يوم الأحد ٢٠ أيار سنة ١٩٣٤ وكان مطلع قصيدته البالغة ١١٢ بيتاً :

الدينُ مصباحُ الهُدى ومنارُهُ   والعلمُ ريحانُ الوجود وغارُهُ

وفي هذه القصيدة يتغنّى بحلب ، ويشيد بالأمير سيف الدولة الحمداني وبشاعره أبي الطيب المتنبي وبالدولة الحمدانية ومجدها الباذخ فيقول :

شارفتُ عاصمةَ ابنِ حمدانٍ وبي   كهوى الشبابِ ولي بهِ أعذارُ
متلمساً آثارها متسائلاً   عمّا مضى وتقلّصتْ أدهاره
فبدت لعيني دولةٌ عربية   وسوادُ جيشٍ لا يشقّ غباره
تصليهِ حمحمةُ الجياد حماسةً   ويطيرُ في صهواتها مغواره
ما ذلّ أو أغفى على ثأرٍ وإنْ   يكُ بين أشداق الضياغم ثاره

ومنذ ذلك اليوم بدأت الصداقةُ بين شاعر الارز وبيني . فقد كان على علوّ منزلته الادبية ، متواضعاً كريم الخلق صادق العروبة ، يتمتع بمناقب انسانية حببته إلى القلوب ، وجعلته ذا مكانة اجتماعية تدعو إلى اجلاله واحترامه .

واتصل حبل المراسلة بيننا . وكتب عن ديواني الاول [خيوط الغمام] كلمةً لا أروع ولا أجمل . ومما قاله فيه : « . . . وكلما تقدمت في مطالعته كبر في عيني ، وأعجبت بما ناله شاعرهُ من التوفيق في

اختيار موضوعاته ، وصوغها في أسلوب رشيق ، عسجدي اللفظ ، بابلي المعنى ، اسلوب يتناوله الفهم بدون عصر يافوخ ، ولا عناء مشقة ، وهو غاية ما يبلغه المستوحي ، وينشده المستلهم ، إنه من الطراز الحديث، ولكنه خالٍ من التقعر ، ناءٍ عن الطلاسم ، متمرد على الرموز . وإذا كان لا بد من امثولة على شعر الرقة ، والسهل الممتنع ، فهو مما يصلح أن يلقي تلك الامثولة ، من على منبر الجلاء والصراحة ، على الجماعة الرمزيين ، الذين هم أنفسهم لا يفهمون ما ينظمون ... »(١) .

نبذة من حياة الشاعر

ولد شبلي الملاط في بعبدا عاصمة لبنان القديم سنة ١٨٧٨ من أبوين هما يواكيم الملاط وعطر بنت شبلي أبي حسون ياغي الحلو . وتلقى دروسه الابتدائية في مدرسة الضيعة من الراهب اللبناني بطرس ثابت من دير القمر ، وكان متضلعاً من اللغة العربية ، ومعجباً بشعر ابن الفارض . ولما قرأ عليه شبلي الاجرومية ، وقسماً من بحث المطالب ، دفع اليه ديوان ابن الفارض ، فاستظهر التلميذ النجيب جميع قصائده ، وكان يلقيها بصوت جهوري رزين ، حتى شاع في بعبدا والجهات القريبة منها ، أن شبلي الملاط ، أحسن من يقول الشعر - وكانوا يسمون الالقاء [القصدنة] - وكان الفتى يجوّد أمام وجوه الضيعة ، ويطربه ثناؤهم عليه وشدة اعجابهم به .

ولما انطوت صفحة الحداثة ، أرسله أخوه تامر الملاط ، وكان شاعراً كبيراً ، إلى مدرسة انشأها في جبيل بطرس شحادة ، فأقام بها سنة واحدة . ثم اغلقت المدرسة ابوابها بسبب وفاة صاحبها .

---

(١) مجلة الضاد : العدد المزدوج ١ و ٢ سنة ١٩٦٢ ص ٣٤ .

وعندئذٍ انتقل شبلي إلى مدرسة الحكمة في بيروت ، وفيها قرأ المعاني والبيان والعروض على الشيخ عبدالله البستاني وكان من أئمة الفصحى . وله معجم لغوي اسمه [البستان] . وقبل أن يتعلم شبلي العروض ، كان ينظم الشعر على الرنـة ، فتأتي أبياتـه صحيحة الوزن ، حسنة الالفاظ ، جيدة المعنى والمبنى . ومن أوائل منظوماته هذا المخمس :

زارني طيفُ غزالٍ حذرِ سلبَ الروحَ بطرفٍ أحورِ
وتوارى غائباً عن نظري تاركاً بينَ رفاقي خبري
آهِ لو يدري بحالي قمري

الشاعر تامر الملاط

كان تامر « باش كاتب » أي رئيس كتاب دائرة الحقوق الاستئنافية ، وكان من خيرة الشعراء ، ولكن واصا باشا حاكم لبنان في ذلك العهد عزله وعزل صديقه الشيخ بشارة الخوري الجد الفقيه ، أي جد الشيخ بشارة الخوري رئيس جمهورية لبنان في الاربعينات ، بحجة أنهما يراسلان جريدة [صدى الشرق] التي كان يصدرها في القاهرة حبيب فارس ، ويذيع على صفحاتها مساوىء حكومة [واصا] وفضائح صهره كوبليان ، ويشير إلى الرشى التي كانا يقبضانها من الشعب .

ولما قضى واصا نحبه وخلفه نعوم باشا ، رثاه تامر بهذين البيتين :

قالوا قضى واصا وواروهُ الثرى فأجبتهم وأنا الخبيرُ بذاتهِ
رشّوا الفلوسَ على بلاطِ ضريحهِ وأنا الكفيل لكم بردِّ حياتـه

في حلبة الصحافة

كان شبلي بطبعه ميّالاً الى الصحافة ، لأنه كان يراها أحسن

معبّر عن رغبة الشعب ، وايصال صوته إلى أرباب الحل والعقد ، وبعد أن تمرّن على الانشاء في صحف ذلك العهد كـ « الروضة » لخليل باخوس و « الأرز » للشهيدين فيليب وفريد الخازن و « النصير » لعبود أبي راشد ، أصدر سنة ١٩٠٨ جريدة « الوطن » وجاءه مع امتيازها من الاستانة لقب [بك] وكان يساهم في تحرير هذه الجريدة رهط من كبار كتاب ذلك الوقت كالشيخ اسكندر العازار والمحامي الضليع فائق بك غرغور واسكندر الرياشي الذي أصدر فيما بعد جريدة « الصحافي التائه » واميل خوري الذي عيّن في الخمسينات وزيراً مفوضاً للبنان في مدينة روما .

وراجت « الوطن » ودخلت أكثر دوائر لبنان وبيوت أهله ، لأن صاحبها جعلها رسالة للحق ، تدافع بقوة واخلاص عن الضعيف والمظلوم .

مطبعة جريدة الوطن تأكلها النار

وغاظ الأشرار أن تنجح هذه الجريدة الحرة ، فأضرموا النار ليلاً في مطبعتها الكائنة في سوق النورية ، وكان ذلك بدافع من يوسف فرنكو باشا متصرف لبنان ، لأن « الوطن » كانت شديدة الوطأة عليه وعلى حكومته الباغية .

ولما جردوا شبلي الملاط من سلاحه ، أقنعه خيرة أصحابه بقبول المنصب الرفيع الذي عُرض عليه ، وهو مدير التحريرات العربية التي تعادل اليوم وزارة الداخلية . وبعد الحاح واقناع قبل ذلك المنصب وهو يردد في نفسه : « إذا لم يكن غير الأسنة مركباً ... » وكان ذلك سنة ١٩١١ .

مي زيادة تزور لبنان

كانت الأديبة الراقية الآنسة مي زيادة تكثر من زيارة وطن أبيها لبنان ، فتستقبل فيه بمجـالي الحفاوة البالغة ، وتقام لها حفلات التكـريم حيث تحل في نبع الصفا ، وحيناً في زحلة ، وأياماً في صوفر وضهور الشوير .

وفي عام ١٩٢٢ قامت مي على سابق عادتها بزيارة لبنان . وكان حاكم لبنان آنئذٍ السيد [ترابو] فقابله شبلي الملاط ، وبيّن له المركز الرفيـع الذي تحتله مي في عالي الفكر والأدب ، وأخـبره أن رجالات العلم والفضل والصحافـة يريدون تكـريم الاديبة الآتية من القاهرة ، ويطلب منه تأييد حفلة التكريم ، فرحب بالفكرة وأبدى كل استعداده لمناصرتها . وأقيمت الحفلة فكانت في الحقيقـة مهرجاناً رائعاً أنشد فيه شبلي الملاط قصيدته الهائية الرائعة ، وهذا مطلعها وبعض أبياتها :

ألا حملوا اليكَ حديث ميٍّ ... كأزهار الجنـــائن في شذاهـا

وهل رصدوا فرائدها الغوالي ... كأبراج الكواكب في سماهـا

وهل طافوا بكتبهـا وحجّوا ... هنالك في الكنانـــة منتداهـا

وليسَ سوابحُ الأفلاك تجري ... بأبـدع أو بأسرع في مداهـا

منَ القلم الذي علّته ميٌّ ... مُسهـــدةً عليهـا مقلتاهـا

كأنَّ الله من سحرٍ ودرٍّ ... أتاح لميَّ لاحظةً وفاهـا

وشاور أمّها لمّـا براهـا ... وشاور يوم كـــوّنها أباهـا

فجاءتْ ميُّ معجزةً تناهى ... منَ المعنى اليها ما تنـاهى

الوصف في شعر الملاّط

شاهد شاعـرنا في صوفر سيدة مصرية في غاية الحسن والروعة والاناقة تُدعى ايمي خير ، وكانت تشرب فنجانـاً من القهوة ، فاقترح عليه نصري الباحوط ، أن يسبّح ذلك الجمال الفتان بشيء من الشعر ، فقال الملاّط :

شاهدتُ أختَ البدر تشربُ قهوةً   في سهرةٍ غزلت بها عيناهـا
لم أدرِ أيأ كان أكثرَ رقةً   فنجانُهـا الصينيُّ أم شفتاهـا

وفي صيف ١٩٣٤ اجتمع بها في عالية ـ لبنان في دار الوجيهين نكد وطرابلسي . وكان إلى المائدة التي مدّ عليها الغداء الفاخر ، محمد علي العابد رئيس جمهورية سورية ، والسيد فـرانسوا خوري . وخطر لشبلي أن يثير غيرة صديقه فرانسوا فقال :

سبحانَ من خلق الجمالَ وحدّثتْ   عنهُ وعن آياتهِ عيناكِ
ردّي بربكِ نظرةً فتاكةً   عني وإلا صِرتُ من قتلاكِ
وأثرتِ غيرةَ صاحبي ولربمـا   قد صار من أعدايَ أو اعداكِ

وفي يوم الجمعة ٥ تموز ١٩٤٦ ، أنعم المولى على كاتب هذا المقال بمولود ذكر هو ولده الرابع سمـاه [زهير] . وحين اتصل نبأ مولده باستاذنا الملاط بعث الينا بكتاب رقيق قال فيه : « أخي عبدالله . أول ما سرّني في كتابك بشرى المولود الجديـد ، واختيارك [زهير] اسماً له ، وهو اختيار حسن ، وفأل حسن ، فقد يكون شاعراً مثل أبيه ، أو مثـل سمّيهِ ، أو مثل كعب ابن سمَيه ، ولا بأس من القول شعراً إنســكَ :

أحسنتَ تسميةَ الوليد لأنهـا   فألٌ بأن سيكونُ مثلَ سميهِ

أو كابنهِ كعب الذي قد فاز في «بانت سعاد» بطيلسان نبيهِ

ولكعب ذكر خاص عند ظهور الاسلام ، لأنـه كان من أكثر الشعراء هجواً للنبي ﷺ ثمَّ جاءه وأسلم وطلب الأمان وأنشده قصيدته المشهورة ومطلعها :

بانتْ سعادُ فقلبي اليوم متبولُ متيَّم عندها لم يجزَ مكبولُ

ولما وصل إلى قوله والمجلس حافل بالصحابة من قريش :

إنَّ الرسولَ لسيف يستضاء بهِ مهندٌ من سيوفِ الله مسلولُ

وعندما فرغ كعب من الانشاد ، خلع النبي ﷺ عليه بردته ، وهي التي تداول الخلفاء لبسها .

عروبة شاعر الأرز

كان شاعر الارز ، صادق العروبة ، له في النبي ﷺ أبيـات معطرة بشذا المديح كقوله : [من للزمان بمثل فضل محمد ؟] وقوله :

والله ما قال المسيح تباغضوا حتى نكونَ ولا كتابُ محمدِ

وهـذا البيت من قصيدة بارعة ألقاها في عيد المـــولد النبوي الشريف ومن أبياتها :

لمنِ البلادُ أليسَ من أصحابها أنتم ونحنُ فما لنا لا نهتدي ؟
حتى متى لا نستفيق وكلنـا نحيا وندفن تحت جوِّ أوحد

وكان في العديد من قصائده ، يدعو إلى وحدة القلوب والاهداف ويحثُّ على التعاون والتآخي . وكان انسانياً من الطراز الاول ، محباً

للخير ساعياً إلى المعروف ، لا يميز بين أجناس البشر ومذاهبهم ، فالمهم عنده أن يكون المرء اخلاقياً منزهاً عن كل مايعيبه أو يحط من شأنه .

ممثل لبنان في المهرجانات الشعرية العربية

كانت المهرجانات الشعرية والادبية تقام على نطاق واسع في البلاد العربية ، وكان شاعر الأرز يمثل لبنان في كل مهرجان ، وأول ما مثله عام ١٩١٣ في حفل تكريم شاعر القطرين خليل مطران بالقاهرة ، ثم مثله في مهـــرجان مبايعة شوقي بامارة الشعر عام ١٩٢٧ ، كما مثله في حـلب عام ١٩٣٤ وفي عمـان ١٩٣٥ وفي بغداد ١٩٣٩ وفي غيرها من البلدان . وكان في كل مـــواقفه الشاعر المجلّي والنسر المحلق في آفاق الابداع .

الملاط رائد القصة الشعرية

يعتبر شبلي الملاط رائد القصة الشعرية في أدبنا المعاصر ، وله في هذا المضمار مجموعة من أبدع القصص وأكثرها طرافة وفائدة . ومن قصائده القصصية وعددها ثلاث عشرة قصـة : الجمال والكبرياء ، وبين العرس والرمس ، وخولة بنت الازور ، وأم البنـين ـ وكنا نستظهرها ونحن على مقاعد الدراسة ـ وسيف ابن ذي يزن ، وعاشقة الطيار ، وشيرين الفارسية ، وملكة تـــدمر ، وعذراء بانياس . ولكن أحسن قصصه [خولة بنت الأزور] وفي مطلعها يقول :

أدموعُ خولةَ أم عقيقُ الوادي ... أيامَ نادى للجهادِ منـادِ
يا خولَ إنَّ أبي وجدي استشهدا ... قبلي على مرأى النبي الهادي
وأنا على آثار من درجوا ومنْ ... سعدوا من الآباء والاجداد
لا تكبري فتحَ الشآم وخالدٌ ... وأبو عبيدة أكبرُ القوّادِ

الغزل في شعر الملاط

ولشاعرنا قصائد غزلية ووجدانية في غاية الرقة والجزالة والسلاسة منها قوله في جارة حسناء :

وجارةٍ من ذوات الحسنِ صورتها هيهاتَ تبلغُها في حسنها الصورُ
رانت على قلبيَ الخالي فهامَ بها وظل يغريه منها الغنجُ والخفرُ
عشقتها وهي لا تدري بما حملتْ منها ضلوعي وما بالصدر يستعرُ

وقوله في سمراء على خدّها أثر جرح :

بدويةٌ في خدها جرحٌ وفي قلبي جراحٌ من ظُبى جفنيها
الطرفُ في حركاتها واللطف في سكناتها ، والشهد في شفتيها
ما كان أسعدني بها لو أنها لمستْ جراحاتِ الهوى بيديها
ربي إذا ما شئتَ فالمس قلبها وانقل اليه الجرحَ من خدّيها

وله مقطوعه عنوانها (تذكري) تفيض عاطفةً وعذوبة ووجداً :

تذكري صاحباً ذابتْ حُشاشته شوقاً اليكِ وأعيته بكِ الحيَلُ
لم يخلق الله مثـــلي في سجيّتهِ على الوفا ، ظلمَ الأحبابُ أو عدلوا
فأجملي كِلمَـاً إن لم تكنْ صلةً قـولي احبكَ فاهدأ أيها الرجل
وأكبري بالهوى العذريّ فلسفةً الله يرحمُ من ماتوا ولا وصلوا

ومن غزلياته المتسمة بجدة المعنى وبراعة الفن مقطوعة عنوانها « بين سحرين » :

بنتُ السماءِ حنتْ على أوتارها بالساحرين اللحظّ والألحانِ
أقـــلامُ مرجان هناك تنقلتْ فسكرتُ في شوقي إلى المرجان
وشعرتُ أنّ الكهرباءَ تمسّني يا ربّ هل للكهرباءِ يدانِ

وقال في غادة حسناء ، كانت تزين صدرها بالزهور الفواحة :

ما كنتُ أحسبُ قبل صدرك أن أرى فوقَ الصدور منابتَ الازهارِ
هذا جمالكِ لو رآهُ راهبٌ هجرَ الصلاةَ ووحدة الأديار

وغزله كثير تسودهُ الشفافية النفسية ، والتألق الفني ، وطلاوة الالفاظ وروعة المعاني .

وفاة الشاعر

توفيَ شاعرنا في ٨ شباط [فبراير] ١٩٦١ وله من العمر ثلاثة وثمانون عاماً ، وثلاثة أولاد هم : شوقي ووجدي وغرامي . وقد أقيمت له حفلة تأبينية في قاعة « اليونسكو » في اليوم العاشر من كانون الأول [ديسمبر] ١٩٦١ تكلم فيها أقطاب الشعر والنثر في لبنان والشام ومصر والعراق ، واجمعوا على أنه كان من الشعراء ، الذين تعتز بهم الفصحى ، والذين لا ينجب مثله الزمان إلا نادراً .

والحق أنَّ شبلي الملاط ، كان أشبه بالنجم البكر ، في كل يوم لك منه كنز جديد ، فالقريحة الخصبة ، والقلب الخيِّر ، لا ينعمان إلا إذا أعطيا بتجرد وسخاء . فالحياة عندهما بذل وايثار وتضحية . وقد أعطانا شاعر الارز من ذوب مهجته ونتاج وحيه ، ما أرضى الشعر ، وأطرب الزمان ، وما أقام له في كل صدر ، هيكلاً يتصاعد منه بخور الاعجاب .



عارف باشا العارف


عارف باشا العارف

لعارف باشا العارف دين عليّ لم أتمكن من وفائه حتى الآن. فقد كان الرجل كبيراً بخلُقه وعلمه ومروءته ، كبيراً بمروبته ووطنيته وانسانيته ، كبيراً بأريحيته وكرمه وروعة وفائه للغته وأصدقائه .

أحببته قبل أن أراه ، وقبل أن تمتدّ يده الكريمة لمصافحتي . فالأذن كما قال الشاعر : « تعشق قبل العين أحياناً » وكثيراً ما أحب الناس بآذانهم ، حتى إذا رأت العينُ من سمعت أخبار حميّته ، وأحاديث شهامته وبطولته ، كان الحب مزدوجاً .

البدوي الملثم

كان البدوي الملثم ـ رحمه الله ـ أوّلَ من حدثني عن عارف باشا العارف . والبدوي الملثم ، لقب أطلقه يعقوب العودات على نفسه ، وصار يُعرف به ، في مؤلفاته العديدة ، وكتاباته الكثيرة ، حتى أهمل

الاسم الحقيقي ، وانتشر لقب البدوي الملثم ، كما انتشر من قبل لقب [بدوي الجبل] على الشاعر العربي الكبير ، محمد سليمان الأحمد .

في جارة الوادي

تحت سماء زحلة عروس البقاع ، وجارة وادي العرائش ، وحاضنة الكروم ونهر البردوني الرقراق . تلك المدينة الجميلة السمحة الوادعة ، التي خصها أمير الشعراء ، برائعته الخالدة على الزمن ، وفي بيت من أنبل وأكرم بيوتات زحلة ، رأيت أول مرة البدوي الملثم ، بقامته الفارعة ، وكتفيه العريضين ، ونظارتيه الممتدتين فوق عينين مشعتين بالذكاء . وكان البدوي الملثم ، قد جاء من الاردن إلى لبنان في بعثة زراعية تزور البقاع ، وتطلع على أحدث أساليب الزراعة . وكان يتردد في أوقات فراغه ، على بيت الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف ، والد الشعراء فوزي وشفيق ورياض . وكان من عادتي كلما زرت زحلة ، أن أمضّي معظم أوقاتي في ذلك البيت العريق ، وأن أفيد من علم استاذنا الكبير الذي كان في الحقيقة ، دائرة معارف حية ، ومؤرخاً فذّاً لا يشقُّ له غبار .

كنا في أواخر الثلاثينات ، وكان الناس يتحدثون عن احتمال نشوب حرب عالمية ثانية بين المانيا وايطاليا واليابان من جهة ، وبين فرنسا وانكلترا ومن يحالفهما من جهة أخرى . أما نحن فكنا آذاناً صاغية إلى مؤرخ العرب في العصر الحديث ، وكنا نخشع في محراب معارفه الواسعة ، وآدابه الرفيعة ، وندوّن ما ينثره علينا من معلومات دقيقة ، عن أسماء العديد من بلادنا وقرانا ، وعن كل ما نسأله عنه من شئون تاريخية ، ومعالم أثرية وأمور أدبية وفنية .

ولأول مرة سمعت من البدوي الملثم اسم عارف باشا العارف ، وعرفت انه عربي مناضل ، وأديب من الطراز الرفيع ، وضع قلمه وجهده تحت تصرف وطنه ، وما لبث أن تألّق نجمه في سماء العروبة ، وغدا علماً من أعلام البيان والجهاد .

ولم تمض بضع سنوات ، حتى أتيح لي أن أراه تحت سماء حلب ، فأحببت فيه تواضعه ، وعلوّ خُلقه ، وروعة مناقبه ، وشعرت انه انسان بكل ما في الانسانية من مثالية ونكران ذات .

عارف باشا العارف

كان مربوع القامة ، ممتلىء الجسم ، أبيض البشرة ، كبير العينين ، عريض الجبين ، أشيب الشعر ، تنظر اليه فتحس كأنّ نوراً يشع من وجهه ومقلتيه ، وتجالسه ، فتود لو بقيت إلى جانبه ساعات وساعات ، تغرف من معارف لا ينضب لها معين . فقد كان كصديقنا عيسى المعلوف ، خزانة علم وتاريخ وأدب . وفوق ذلك فقد كان مكافحاً لا تلين له قناة ، ولا يرضى بالحلّ الوسط ، فامّا فوز مبين ، وإما شهادة ترفع صاحبها إلى مصاف الخالدين .

نبذة من سيرة حياته

ولد سنة ١٨٩٢ في مدينة القدس ، وتلقى في مدارسها علومه الابتدائية ، ثمّ توّجه إلى استانبول حيث أكمل علومه الثانوية في عام ١٩١٠ . وبعد ذلك دخل جامعة الاستانة وتخرج منها عام ١٩١٣ بعد أن نال الدكتوراه في الاقتصاد السياسي .

وكان في أثناء دراسته ، يعمل في ميدان الصحافة ليلاً ،

ليتمكن من تحصيل نفقات دراسته . وقد عرفته جريدة [بيام] التركية، محـــرراً لبقاً يعالج بمهارة فائقة الموضوعات التي تفيد القراء ، وتجعلهم يترقبون نتاج قريحته بشوق ورغبة صادقة .



عارف العارف بين السيدة روز حلاق والسيد كنعان خالدي وقرينته
أمام مدخل الحرم القدسي الشريف

في المنتدى الأدبي

كان المنتدى الأدبي في الاستانـة ، يضم عدداً كبيراً من شبان العرب المخلصين لعروبتهم ، والراغبين في التحرر من الحكم التركي الجاثم على صدر بـلادنا . وكان المنتدى في ظاهره أدبياً ، وفي باطنه سياسياً يعمل في الخفاء على مناوءة السلطة الحاكمة ، ونيل السيادة العربية . ولكنَّ الاتراك كانوا له بالمرصاد ، يتتبعون تحركات أعضائه ، ويحصون عليهم الانفاس .

وأبـــدى عارف العارف ، نشاطاً ملحوظاً في أعمال المنتدى ،

فانتخب عضواً في مجلس ادارته ، وأخذ يزرع بذور القومية العربية في قلوب رفاقه الأعضاء .

الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨

في ٢٨ تموز [يوليـو] ١٩١٤ أعلنت النمسا الحرب على الصرب . وفي ٢٢ تشرين الثاني من العام نفسه ، أعلنت تركيا الحرب على الحلفاء : روسيا وفرنسا وانكلترا واليابان ، ووقفت بجانب النمسا والمانيا . وفي خلال هذا الحـــدث العالمي المروع ، أُدْخِلَ عارف العارف الكليـة العسكرية في الاستانة ، حيث دُرِّب هو وجميع خريجي الجامعة على القتال.

ولما تخرَّج ضابطاً ، أرسل إلى جبهة القفقاس ،ليحارب الروس . وفي معركة دارت رحاهـا بين الروس والاتراك على مقربة من [أرض روم] قُتل معظم جنود وضباط الكتيبة التركية التي كان يقاتل معها ، ولم ينجُ منها سوى احد عشرَ شخصاً كان عارف واحداً منهم . فوقع أسيراً بأيـــدي الروس ، وأرسل إلى سيبريا ، حيث بقيَ معتقلاً ثلاث سنوات من عام ١٩١٥ إلى عام ١٩١٧ .

غير أن هذا الأسر أفاده من الوجهة الثقافية ، ذلك أنه تعـــلم من الجنود والضباط الذين كانوا يحـرسون المعتقل اللغة الروسية ، كما تعلم الالمانية ، من رفاقـــه الاسرى الالمان والنمسويين ، وأصدر في المعتقل جريدة عربية هزلية سماها [ناقة الله] وترجم الى اللغة التركية كتاب Das Welt - Raetzel لمؤلفه الفيلسوف الالماني الاستاذ[أرنست هايكل] .

الثورة العربية الكبرى

في اليوم العاشر من شهر حزيران « يونيو » عام ١٩١٦ ، أعلن

الشريف حسين بن علي - شريف مكة (١) الجهاد المقدس على الاتراك ، أعداء الأمة العربية ، ومغتصبي الخلافة ، ورفض تجنيد العرب قبل الحرب وفي أثنائها ، وحرر مكة المكرمة والطائف وجدة من العنصر التركي .

عارف العارف يهرب من المعتقل

وسمع عارف العارف وهو في سيبريا ، أنباء الثورة العربية المظفرة ، التي قام بها الملك حسين بن علي ، فعزم على الالتحاق بها ، والاشتراك فيها مع عدد من رفاقه المعتقلين العرب . وفي ذات ليلة بينما كان الخفراء منشغلين باللهو والشرب ، هرب هو وواحد وعشرون عربياً كانوا معه ، وسلكوا طريق منشوريا فاليابان فالصين والهند والبحر الاحمر ومصر . وفي أثناء ذلك كانت الحرب قد وضعت أوزارها وأعلنت الهدنة بين الحلفاء والمانيا في ١١ تشرين الثاني « نوفمبر » ١٩١٨ في غابة كامبين بفرنسا ثم حذت النمسا وتركيا حذو المانيا في الاستسلام .

الانتداب الانكليزي

رجع عارف العارف إلى مسقط رأسه القدس ، بعد أن غاب عنها سبع سنين ، فرآها مكبلة بقيود الانتداب الانكليزي الذي فرضه عليها الحلفاء المنتصرون ، ورأى الاخطبوط الصهيوني مدعوماً بالانتداب ، فلم يقف مكتوف اليدين ، بل راح يعمل على مقاومتهما معاً ، فأصدر مع صديقه المحامي حسن البديري جريدة « سورية الجنوبية » وكانت أول

---

(١) ولد ونشأ في الاستانة . توفي في عمان بالاردن عام ١٩٣١ ودفن بالحرم الشريف بالقدس . له أربعة أبناء ملك منهم ثلاثة : علي وفيصل وعبدالله.

صحيفة عربية تندّد بأساليب الصهاينة والبريطانيين ، وتعمل على مقاومة كل شكل من أشكال الانتداب والتدخل الغربي . فأمر الانكليز بتعطيل الجريدة وزجّ صاحبيها في السجن .

بدء القتال بين العرب واليهود

في اليوم الرابع من شهر نيسان ١٩٢٠ ، بدأ القتال بين العرب واليهود ، فاعتبرت السلطة الانكليزية أن الاستاذ العارف هو المحرّض على ذلك ، فضيّقت عليه الخناق ، ولكنه استطاع الهرب من سجنه ومن القدس ، واجتاز البحر الميت ولجأ إلى الكرك (١) ومنها توّجه إلى دمشق حيث انتخبه أبناء وطنه ممثلاً لهم في المؤتمر السوري الذي أعلن استقلال سورية ، ونادى بفيصل ملكاً عليها .

وفي غضون هذه المدة ، نظرت المحكمة العسكرية في فلسطين ، في حوادث ٤ نيسان « ابريل » من تلك السنة ، فحكمت على عارف العارف بالاعدام ثم خفّض الحكم إلى السجن عشر سنوات ، وحكمت على عدد من رفاقه المجاهدين ، بسجنهم مدداً تتراوح بين خمس سنين وثلاثة أشهر .

إدارة مدنية في فلسطين

في عهد السير هربرت صموئيل ، تأسست برئاسته ادارة مدنية عفَت عن جميع المحكومين باعتبارهم مجرمين سياسيين . أما عارف العارف فقد استثنيَ من العفو ، إلا إذا عاد إلى فلسطين وسلم نفسه إلى

---

(١) الكرك : مدينة في الأردن ، عُرفت قديماً باسم [كير مؤاب] كانت حصناً مسوراً للمؤابيين .

الحكومة . ولكنّ عارفاً لم يفعل فبقي بدمشق ، وأسس مع جمهرة من اخوانه المجاهدين [الجمعية العربية الفلسطينية] وانتخب أميناً عاماً لها .

ولما احتل الجنرال غورو دمشق ، هرب عارف وعدد كبير من رجالات سورية إلى شرقي الأردن ، حتى إذا صدر أمرٌ بالعفو عنه ، عاد إلى فلسطين ، وحاول أن يعمل في ميدان الصحافة ، فمنعه الانكليز من ذلك ، وحظروا عليه الاشتغال بالسياسة ، ثم عهدوا اليه بمناصب ادارية منها قائمقامية جنين ونابلس وبيسان ويافا .

في حكومة شرقي الأردن

في عام ١٩٢٦ استعارته حكومة شرقي الأردن التي كان يرئسها الأمير عبدالله ، فبقيَ في عمان أميناً عاماً للحكومة ثلاث سنوات ١٩٢٦ - ١٩٢٨ منح في خلالها لقب « باشا » لما كان يبديه من غيرة شديدة على خدمة الشعب وتسيير الامور بحكمة ونزاهة نادرة .

الباشا يعارض المعاهدة البريطانية الاردنية

عارض عارف باشا العارف ، المعاهدة البريطانية الاردنية ، لأنها تكبل يد الأردن ، وتجعلها تابعةً للانكليز لا نداً لها . ولهذا لم يعد مرغوباً فيه في شرقي الأردن ، فعاد إلى فلسطين ، وعيّن « قائمقاماً » في بئر السبع وفي غزة ، ثم رُقّيَ مساعداً لحاكم لواء القدس ، وعُهدَ اليه بادارة قطاع رام الله .

عارف باشا رئيس بلدية القدس

بعد زوال عهد الانتداب البريطاني ، انتدب عارف باشا رئيساً

لبلدية القدس عام ١٩٥٠ . وفي الانتخابات البلدية التي جرت في سنة ١٩٥١ ، انتخبه سكان القدس وضواحيها رئيساً للبلدية نفسها . ثم أعيد انتخابه لرئاسة البلدية في سنة ١٩٥٥ . وكان في الوقت نفسه رئيساً المجلس الاستشاري لرابطة المناضل الجريح ، وعضواً في المجلس الاستشاري لدائرة السياحة .

الباشا وزيراً للاشغال

في أواخر عام ١٩٥٥ اسندت اليه وزارة الاشغال . ولم تمض بضعة أيام حتى قدَّم استقالته لخلاف نشأ بينه وبين رئيس الوزراء الذي كان يرغب في ضم الاردن إلى « حلف بغداد » وكان الباشا يكره ذلك الحلف المكوَّن من دول لا تؤيد العرب ولا قضية فلسطين .

في معترك الجهاد

عرفتُ عارف باشا العارف ، معرفة قوية دامت نحو ربع قرن ونيِّف ، وعرفته مناضلاً بقلمه ولسانه وفكره وسلاحه . وكثيراً ما كان يخوض مع المجاهدين معترك الجهاد ، فيقاتل كما يقاتلون ، ويتحدَّى الموت كما يتحدون .

وحدثني عندما حللتُ ضيفاً عليه في « البيرة » برام الله . قال: كنا نقاتل القوة الاسرائيلية المقيمة في مستشفى الهاداسا بالقدس . والهاداسا حصن طبيعي مبني على أحد جبال القدس ومشرف عليها ومتحكم بكثير من دروبها ومسالكها . وكانت حامية الهاداسا تمطرنا بوابل من نيرانها الحامية ، وتردي كثيراً من مجاهدينا الأشاوس .

وكانت أنابيب المياه الممتدة إلي ذلك المستشفى تمر بأراضينا ،

فاتفقنا على قطعها . ولم يمر يومان وبعض اليوم ، حتى رفع المتمركزون في الهاداسا العلم الأبيض وطلبوا وقف القتال والاستسلام بدون قيد أو شرط .

وفي تلك الساعة ، يقول عارف باشا العارف : تلقينا برقية من الملك عبدالله جاء فيها : « تراجعوا عن الهاداسا ودعوا حاميتها على ما كانت عليه » ونظر بعضنا إلى وجوه بعضنا الآخر بدهشة غريبة ، ولم نستطع تفسيراً لهذا الأمر العجيب .

وبعد أخذ ورد ، رأينا أن يؤلف وفد برئاستي وأن نتوجه إلى الشونة حيث كان يقيم الملك .

الوفد يقابل الملك

قابلنا الملك واطلعناه على كل ما حـــدث ، وبيّنا له أن حامية الهاداسا ضباط وجنود مدربون على القتال ، وقد استشهد منا عدد من المجـاهدين ذكرنا له اسماءهم ، فـترك الحامية على ما هي عليه ضرب من الجنون والتخاذل .

ولجأ الملك إلى لغـة العاطفة وقال : نحن عرب من شيمنا العفو عند المقدرة ، وهذا مستشفى انساني ، ومركز علم وثقافة ، والمروءة العربية تأبى الاعتداء عليه . فماذا يكـــون شأننا أمام الغرب ، إذا استولينا على ذلك المـكان وأسرنا من فيه ؟ .

وأجابه عارف باشا : ولـكنّ الموجودين في الهاداسا قتلوا منـا العشرات ، ولو استطاعوا ابادونا على بكرة ابينا .

واسقيط بيد الملك، ورأى أننا أفحمناه ، وسددنا عليه كل منفذ

فصاح بي بصوت جريح : « عارف لا تضايقني ، هذه الاوامر أعطيت لي ولا أقوى على ردّها ... » .

ويضيف عارف باشا قائلاً : وعدنا بخفي حنين وبقيَ حصن الهاداسا متحكماً بالقدس ، ومتسلطاً عليها بموقعه الاستراتيجي الممتاز .

عارف باشا العارف وحدوي من الطراز الأول

كان عارف باشا وحدوياً يصبو إلى جمع شمل الاقطار العربية كلها في وحدة متينة متكاملة ، يرفرف عليها علم واحد ، في مشرق الأرض العربية ومغربها .

وكان ايمانه وطيداً راسخاً ، بأن الوحدة العربية الكبرى ، كفيلة بتحرير الأرض المغتصبة ، واستعادة حق الفلسطينيين . وكثيراً ما نادى بذلك ، وحاضر في أرقى المنتديات العربية والأوروبية ، مبيناً بما لا يدع مجالاً للشك ، أن فلسطين عربية عريقة في عروبتها ، وأن الصهاينة دخلاء عليها ، ومن العدالة ، أن تعود الأرض إلى أصحابها الشرعيين .

كان الاستاذ العارف ملماً باللغة الروسية ، قوياً باللغات : العربية والانكليزية والفرنسية والالمانية والتركية والعبرية . وقد ساعدته اللغة الاخيرة ، على دحض الكثير من افتراءات الصهيونية ومزاعمها الباطلة ، لأنه كان يردّ عليها بلسانها ، وسلاحه المنطق السليم ، والأدلة الدامغة .

ولعلّ أبرزَ ما كان يتميز به الاستاذ العارف ، هـو صبره الطويل على البحث والتحقيق والكتابة الهادفة إلى جلاء الحق ، وإنارة الفكر ، وبيان ما في تاريخنا من مآثر ومفاخر وامجاد .

ولم يفت ذلك الباحث المحقق ، أن يدوّن أحداث وطنه بمنتهى الدقة والصدق والامانة التاريخية المثلى .

مؤلفات العارف

من مؤلفات عارف باشا العارف كتاب [النكبة] في سبعة أجزاء ضخمة ، طبع الجزء الأول منه في المطبعة العصرية بصيدا - لبنان عام ١٩٥٦ ، ودعم الاجزاء كلها بالوثائق والخرائط والصور والرسوم ، فجاء الكتاب في مجمله ، سجلاً حافلاً بما دار على الأرض الفلسطينية من معارك طاحنة ، وما لحق الفلسطينيين من ظلم وعذاب وتشريد .

ولأستاذنا العارف ، عدة كتب تاريخيه ثمينة : « تاريخ بئر السبع وقبائلها » و « تاريخ غزة » و « الموجز في تاريخ عسقلان » وقد تُرجمت هذه الكتب إلى الالمانية والانكليزية والعبرية . و « تاريخ القدس » و « المسيحية في القدس » و « تاريخ الحرم القدسي » وقد ترجمت إلى الانكليزية والفرنسية . وترجم كتابه « رؤياي » إلى العبرية . أما أول كتاب له فعنوانه « القضاء بين البدو » طبع في مطبعة بيت المقدس في سنة ١٩٣٣ وترجم إلى الانكليزية والالمانية والعبرية ، و « تاريخ قبة الصخرة المشرفة ، والمسجد الاقصى المبارك » مصور وفيه إضافات لم تذكر في تاريخ الحرم القدسي .

ولعارف باشا بضعة كتب بالانكليزية هي ترجمة « تاريخ الحرم القدسي » و « تاريخ النكبة في صور » وترجمة «تاريخ الحرم القدسي» للغة الالمانية . وله مخطوطات لم تطبع بعد ، عرفنا منها « كنت أسيراً » و « ثلاثة أعوام في عمان » و « الكويت - ماضيها وحاضرها » ، فضلاً

عن مذكراته اليومية التي ما انقطع عن تدوينها يوماً واحداً خـــلال نصف قرن ونيّف ، والتي تقع في ثلاثة وعشرين مجـــلداً تتضمن أهمّ أحداث فلسطين مثبتة بالصور والارقام . ومن حسن حظ التاريـخ أن هذه المذكرات نقلت بعد حرب ١٩٦٧ من رام‌الله إلى عمـان وحفظت في مكان أمين .

في عام ١٩٧٣ فقدنا هذا المؤرخ الاديب . وكانت جيوشنا العربية الباسلة ، تسجّل أروع ملاحم البطولة والفداء ، وتحطّم إلى الأبـد ، اسطورة الجيش الاسرائيلي الذي لا يُقهر .



البدوي الملثم
يعقوب العودات



يعقـــوب العـودات « البدوي الملثّم »

اسمـــه الحقيقي يعقـوب العودات ، ولكنه لم يُعرف به في عالم الأدب ، وإنما عُرف بلقبه « البدوي الملثم ». وكان قبل ذلك ، ينشر نتاج قـــلمه في صحف سورية وفلسطـين بتواقيـع مستعارة منها : أبو بارودة ـ حمـاد البدوي ـ نوءاف ـ أبو نظارات ـ فتى مؤاب ـ فتى البـادية .

ولمح ذات يوم ، في مسقط رأسه « الكرك » بدوياً ملثماً على ظهر ناقة تسير به خبباً ، والمحجن(١) في يده ، فأعجبه منظره ، وعزم على أن يكون توقيعه المستمار « البدوي الملثم » .

كان ذلك حوالي عام ١٩٢٧ . وبعد احدى عشرة سنة ، التقيته في منزل المؤرخ الكبير عيسى اسكندر المعلوف بزحلة ـ لبنان ، وربطت قلبينا آصرة محبة قوية استمرت إلى يوم وفاته .

كان عربياً صادق العروبة ، محباً للوحدة ، غيوراً على تراثنا الحضاري الثمين ، مجرّداً قلمه كالسيف المرهف في سبيل الدفاع عن الحق المهيض الجناح ، وحين أعلنت الوحدة بين القطرين الشقيقين : مصر وسورية في شهر شباط « فبراير » ١٩٥٨ كاد يطير فرحاً ، وبدأ يؤمن أن فلسطين ستعود إلى الحظيرة العربية ، حرّةً عزيزة الجانب .

وطالما ناضل «البدوي الملثم» عن الحق الفلسطيني السليب ، ووقف سدّاً منيعاً في وجه الدعاية الاسرائيلية الكاذبة ، فكان بحقّ بطلاً يذود بكل قواه عن أرضنا المقدسة ، وشعبنا العربي المشرّد تحت كل كوكب .

وفي عام ١٩٤٦ ، عندما قضت لجنة التحقيق الاميركية ـ البريطانية بادخال مئة ألف يهودي إلى الوطن الفلسطيني ، ثارت ثائرة يعقوب العودات ، وتوقع ما سيكون لذلك القرار الجائر ، من رد فعل ، أقل ما يوصف به ، أنه شرٌّ مستطير ، سيبعد المواطنين الأصليين ، ويضع بدلاً منهم ، غرباء ودخلاء يستولون بقوة السلاح ، على ممتلكاتنا وأرزاقنا

---

(١) المحجن : العصا المنعطفة الرأس .

ومقدساتنا ، ويجعلون فلسطين دولة يهودية تكون مخلب قط للدول الاستعمارية الطامعة بخيراتنا ومواردنا الغنية .

العرب المخلصون يقرعون ناقوس الخطر

منذ صدر ذلك القرار المجحف بحق العرب ، والمغاير لأبسط قواعد العدالة ، وقفت فئة من العرب المخلصين ، تقرع ناقوس الخطر ، لتنبه الرؤساء والملوك العرب الذين كانوا راقدين على فراش اللامبالاة ، وكان الدكتور جابر شبلي الاميركي الجنسية ، واللبناني المولد ، واستاذ الرياضيات في جامعة بنسلفانيا بأميركا الشمالية مباءة الصهيونية العالمية الباغية ، كان الدكتور جابر ، في طليعة من تنبه للخطر المحدق بفلسطين ، فكتب باللغة الانكليزية ، رسالة مطولة ، لفت بها أنظار محبي العدل والانصاف في كل مكان ، إلى مطامع اسرائيل ، وإلى تحيز الولايات المتحدة وحلفائها لليهود ، وأخذ يبرهن بالارقام أن نسبة العرب في فلسطين ، تزيد على التسعين في المئة ، بينما لا تتعدى نسبة اليهود السبعة في المئة .

وفي الرسالة ، أكثر من سبعين دليلاً تثبت بما لا يدع مجالاً للشك ، بأن العرب هم سكان فلسطين وأصحاب أرضها ومزارعها ومبانيها وجميع مرافق الحياة فيها ، وإنه لمن الظلم الفادح ، أن يشرد أهلها ليفسح المجال لسواهم من شذاذ الآفاق .

تعريب رسالة الدكتور شبلي

ووصلت رسالة الدكتور جابر شبلي إلى البدوي الملثم ، فأعجب بها وفاوضني بشأنها ، فرأينا أن نخصص لها عدداً من مجلة « الضاد » ، عسى أن تهز محتوياته بعض الناشئين من أهل الحل والعقد في الدول العربية .

وعكف البدوي الملثم على تعريب رسالة الدكتور شبلي . وأسرعنا فأصدرناها عدداً خاصاً من الضاد . وقد تمّ توزيعه في ١٥ أيار ١٩٤٧ أي قبل حدوث النكبة بسنةٍ واحدة فقط ، فقد انطوى على حقائق راهنة ، وأدلة دامغة ، تؤيد حقوق العرب ، وتثبت قدمهم في فلسطين ، وتشير بوضوح إلى علاقتهم التاريخية بها . فللعرب النصارى فيها مهد المسيح ولحده ومزاراته ، وللاسلام فيها المسجد الأقصى وقبّةُ الصخرة ، ولليهود العرب فيها مقدسات . وقد عاش عرب فلسطين كلهم في وئام وسلام ، لأنهم أبناء أرضٍ واحدةٍ ، ولغة واحدة ، وعادات واحدة. وسيظلون على ما كانوا عليه ، إذا تجنبتهم الأطماع السياسية ، ولم تحشر بينهم جيشاً من متشردي الاقطار وهواة الاستعمار .

هذا ما قلناه منذ أربعين سنة في عددنا الخاص عن أرضنا المغتصبة ، ولكن الآذان كانت مغلقةً ، وأفيون أميركا وانكلترا ، كان يخدّر حكّامنا الغيارى ...

بيد أن البدوي الملثم الذي شرّد هو وأسرته من مدينة القدس، لم يقف مكتوف اليدين أمام الهجمات الاسرائيلية الشرسة ، بل تصدّى لها ، وناهضها ، وأعلن عليها حرباً فكرية لا هوادة فيها ولا لين .

شخصية البدوي الملثم

لنمط عن البدوي لثامه ، وللنظر إلى ماضيه ، ولنتبين كيف استطاع أن يتغلب على الفقر والجهل ، وأن يصل بجدّه ومثابرته على الدرس والعمل ، إلى الصفوف الأمامية .

توفيَ أبوه وعمره عشر سنوات . وقبل أن يدركه الأجل ، أوصى الأب شقيقيه أن ينفقا سهمه من الثروة ، على تعليم ابنه الطب ،

ولكنّ الشقيقين ازدردا الأخضر واليابس ، وراحا يتباريان في تبديد الثروة التي اشتهر بها آل عودات .

ولم تمضِ مـدة قصيرة ، حتى وجد يعقوب وأمه ، نفسيهما على حضيض الفاقة والحرمان .

البدوي يلجأ إلى العلم والعمل

وكان قد أنهى دراسته الابتدائية ، وعـزم على متابعة دراسته الاعدادية . ولكن والدته حالت دون بغيته ، وأرادته أن يعمل ليسعفها ويسعفَ شقيقته معاً .

ونزل الشاب الصغير إلى ميدان العمل ، فلم يجد إلا الاخفـاق والخسران في تجارة البيض والدجاج . ولهـذه التجارة حكاية تدعو إلى الضحك والأسى . فقد تكسَّرَ البيض وتشتت الدجاج وجُرح التاجر عندما اجفل مهـره الحرون وطرحه على الارض والدماء الغزيرة تسيل من شدخ في رأسه ومن جراح في وجهه ويديه .

وما كاد يشفى حتى اعـــتزم أن يفتح حانوتاً يتزوّد منه العمال الغادون إلى أعمالهم خارج المـدينة ، بالخـبز والجبن والبيض . وكثيراً ما كانوا يجلسون في حانوته ليشربوا القهـوة أو الشاي . وكان يستيقظ قبل الفجر ليمدّ الماء المغلي ، ويهيء الطعام المطلوب . أما مخدع نومه ، فـكان في ذلك الحانوت الصغير المتواضع .

بقي سبع سنوات على هـذه الحال من العمل المرهق ، ينام في حانوته مع الدجاج ، ويفيق مع النعاج . وفي لحظات فراغه كان يراجع دروس المرحلة الاعـدادية ، فاذا واجه صعوبة في حل بعض المعادلات

الرياضية والكيميائية والفيزيائية ، استعان بعلم الموضوع ليدلّه على الحل الصحيح ، وليشرح له كلّ ما صعب عليه من المسائل والمعادلات .

وشاء الله أن ييسر أمره ، فربط بينه وبين أساتذة المدرسة الاميرية برباط متين من الصداقة ، فأقبلوا يشترون حاجاتهم المنزلية من حانوته الذي قد امتلأ بشتى أنواع البضائع . ولما علموا أنه مقبل على تقديم امتحان الدراسة الاعدادية ، اندفعوا إلى مساعدته ، وسهّلوا له السُبُلَ الوعرة ، ودخل يعقوب ميدان الامتحان ونجح بتفوق مرموق . ثمّ ما لبث أن باع الحانوت ، وانتسب إلى المدرسة الثانوية في مدينة إرْبد . وبعد عامين قضاهما في تلك الثانوية ، حصل على الشهادة التي تخوّله دخول احدى الجامعات ، ولكن والدته أبت أن تبيعَ قطعة أرض يستعين بثمنها على دخول الجامعة ، فأسقط في يده ، واختار الوظيفة مورداً لمعاشه ، كما اختار الأدب طريقاً لخدمة أمته .

زواج البدوي الملثم

في ٢٠ شباط ١٩٤٤ طلّق البدوي الملثم حياة العزوبة ، واختار رفيقة لعمره ، الآنسة نجلاء كريمة المرحوم بولس شحادة ، منشىء جريدة [مرآة الشرق] التي كانت تصدر في مدينة القدس ، فكان اختياراً موفقاً جداً ، أثمر أنجالاً كانوا شامات في خد الفخار .

في مضمار الأدب والتاريخ

أولع البدوي الملثم منذ مطلع صباه بالأدب ، فأكب على التأليف ، ونزع إلى معالجة الموضوعات التاريخية . وكانت باكورة مؤلفاته كتاباً عنوانه [اسلام نابليون] وهو كتاب طريف يرينا خِدعَ السياسة ،

وكذب كبار بعض السياسيين ، ويدلنا على ما عمد اليه نابوليون الأول ، عندما دخل مصر سنة ١٧٩٨ - ١٧٩٩ من أساليب ظاهرها السماحة والسلام ، وباطنها الخبث والدهاء والاستيلاء على خيرات وادي النيل الجميل .

مؤلفات البدوي الملثم

ليعقوب العودات أكثر من عشرين مؤلفاً مطبوعاً ، منها : القافلة المنسية - الغواني في شعر ابراهيم طـــوقان - الوطن في شعر ابراهيم طـــوقان - شكري شعشاعة الانسان الاديب - الناطقون بالضاد في أميركا الشمالية - أصراع أم تعاون في فلسطين(١) ؟ شاعر الطيارة - فوزي المعلوف - ديك الجن الحمصي - ولي الدين يكن - عرار شاعر الاردن - الباذة هوميروس وسليمان البستاني - عيسى اسكندر المعلوف وموسوعة عن كبار رجالات فلسطين صدرت بعد وفاته .

الناطقون بالضاد في أميركا الجنوبية

في أوائل الخمسينات جاءني الاستاذ العودات إلى حلب ، وأطلعني على مشروع أدبي ينوي القيام به . ويتلخص مشروعه في القيام برحلة إلى اميركا الجنوبية ووضع كتاب عن مشاهير مغتربينا العرب في ذلك المنقلب من الأرض ، وألحّ عليّ أن أرافقه في رحلته البطوطية بحجة أنني أعرف كثيراً من رجالات المال والاعمال في تلك الربوع ، وفي طليعتهم أبناء رزق الله جورج في سان باولو - البرازيل . ولكنني اعتذرت له وزودته بكتب توصية كانت سنداً كبيراً له . وقد قام آل رزق الله نحوه

---

(١) تأليف الدكتور جابر شبلي استاذ الرياضيات في جامعة بنسلفانيا وتعريب يعقوب العودات صدر في عدد خاص من مجلة الضاد في شهر أيار ١٩٤٧.



من اليمين : يوسف صباغ ـ عبدالله يوركي حلاق ـ يعقوب العودات ـ السيدة نجلاء العودات ـ مي صباغ ـ السيدة روز صباغ

بأقصى ما تقتضيه المروءة العربية والكرم الحاتمي . وفي عام ١٩٥٦ أصدر كتابه السابق الذكر في مجلدين مصورين كبيرين كتب مقدمتهما الاديب المفكر الكبير الاستاذ فارس الدبني وقال في جملة ما قاله : « أما المؤلف فتغنيني شهرته عن تعريفه ، فنفثات قلمه تملأ الصحف والمجلات ، وبنات أفكاره تتهادى دلالاً فوق الطروس كالعرائس في الخمائل ، ومؤلفاته العديدة تدل على علمٍ واسع ودراسات عميقة ، بحثاً ونقداً ، وتحليلاً واستنتاجاً ، مما يجعل تعريفي له « كمستبضع التمر إلى هجر » كما ورد في الأمثال . إنَّ مؤلفات البدوي الملثم قد احلته منزلةً رفيعة في الأدب المعاصر ، ووضعته في مصاف الادباء الحسني الانتاج ،

العِذاب الموارد » .

وفي الحقيقة ، إن كتاب [الناطقون بالضاد في اميركا الجنوبية] من أمهات الكتب التي صدرت في هذا الموضوع . وإن شئت تعريفاً أدق وأوضح ، فقل إنه موسوعة تاريخية يعود اليها الباحثون والمدققون ، ويرون فيها ما ينشدونه من معلومات وثيقة دقيقة بذل الاستاذ الموداث من أجل العثور عليها وتدوينها ، ذوبَ القلب ، وعصير الدماغ ، ونور المقلتين ، واستدان فوق ذلك المال الوافر ، ليتسنى لمؤلفه الضخم أن يصدر كما أراد مؤلفه ، وأن يصل إلى ذلك المغترب البعيد .

وفاء البدوي الملثم

اشتهر يعقوب العودات بمتانة خلقه وسعة كرمه ، وروعة وفائه . فكان إذا وعد وفى ، وإذا أحبَّ عفَّ وأخلص ، وإذا نزل عليه ضيف بالغ فى إكرامه والحفاوة به . وإذا آثر الضيف ، أن يجد فندقاً يحل فيه ، أسرع يعقوب إلى الفندق ودفع كل ما على الضيف من حساب . ومثل هذا الجود غدا غريباً ونادراً في هذا الزمن الغارق في مستنقعات المادة ، ووحول الانانية والاستئثار .

الرائد الانساني الكبير

من طبع الكريم ، أن يؤثر الكريم بالحب الصادق ، وأن يحيطه بالاجلال والوفاء . وكان البدوي الملثم ، على صداقة وطيدة مع الاستاذ فتح‌الله الصقال ، منشىء مشاريع الكلمة الخيرية في حلب ، وأسخى من عرفته الشهباء من أبنائها البررة المتفانين في سبيل الانسانية المعذّبة .

ولما أصيب الاستاذ الصقال بالشلل النصفي في ٣ كانون الأول

« ديسمبر » ١٩٦٦ وضع العودات كتاباً عنوانه [فتح الله الصقال الرائد الانساني الكبير] جاء في ١٩٥ صفحة . وقد تولت مجلة الضاد طبعه وأهدته إلى مشتركيها في الوطن العربي والمهجر . والكتاب في مجمله يعطينا أروع صورة عن رجل كان أقرب إلى الملائكة منه إلى البشر .

القصة والشعر

للبدوي الملثم مجموعة قصص قصيرة عنوانها [ألوان على طبق] وله كذلك أشعار قالها في بعض المناسبات الخاصة في سان باولو وغيرها . بيد أن تألقه الادبي كان يبدو في السِّيَر والتاريخ ، ولا سيما تاريخ الأشخاص الذين عاصرهم وعرفهم عن كثب ، وتاريخ القضية الفلسطينية التي خصّها بكثير من اهتمامه .

والحقّ الذي لا ريب فيه ، أن البدوي الملثم ، عاش يتيماً بائساً بعد وفاة أبيه واستيلاء عميه على حصته وحصة أمه وأختيه من الثروة التي تركها لهم الأب الراحل . ولكنّ الفتى الذكي لم ييئس ولم يقنط من رحمة الله ، وأيقن أن العلم والعمل طريق النجاح . فسلكهما في وقتٍ واحد ، تساعده حافظة تعي كل ما تقرأ من دروس ، وتخزن أبلغ ما تخطه أقلام الكتاب ، وأحسن ما تنشده أفواه الشعراء . وبالارادة الصلبة ، والممارسة الدؤوبة على الدرس والمطالعة ، وعلى البحث والتدقيق ، صار البدوي الملثم في عداد المشاهير من كتاب العرب ، ومن مناضليهم الاباة الأوفياء . وهذه لعمري ، هي العصامية ، وهي البطولة ، وهي الشهرة الذائعة التي لا تجتاز العالم إلا على جسر من التعب .

لقد كان يعقوب العودات ، مثالياً في انسانيته ، رائعاً في وطنيته وصدق عروبته ، ثمّة في وفائه لأمته وأصدقائه ، أديباً ألمعياً بكلّ ما

في الأدب والألمعية من معنى ومبنى . وكان أخاً لمن لا أخَ له ، وسنداً لمن فقد سنده ، وملاذاً لكل قاصدٍ ومستجير . ولم يكن يستهويه غير عمل الخير ، وصنع الجميل ، والبحث عما يفيد الناس ، ويجلو ما غمض من أخبار المنسيين من الادباء والمجاهدين ، وفي مؤلفاته المطبوعة والمخطوطة ، ما يشير إلى هذه الناحية ، بألف بنان وبنان .

آخر ساعات البدوي الملثم

بينما كان البدوي الملثم ، يراجع موسوعته « أعلام الفكر والادب في فلسطين » ويضع عليها اللمسات الأخيرة ، ليقدمها بعد ذلك للطبع ، فاجأته المنية الغاشمة ، في فجر يوم الخميس ٢٣ ايلول ١٩٧١ .

في ذلك اليوم المشئوم ، سكت القلب الكبير ، وصمتَ اللسان الصادق ، وأغلقت العينان المشعّتان بنور المحبة والحنان ، وهدأت إلى الأبد ، تلك الحركة الدائبة ، التي لم تكن تعرف الراحة والسكون .

ومهما بعدَ الزمن ، وتتالت الاحقاب ، فسيبقى الأدب والتاريخ وأجيالنا الصاعدة ، تذكر بمنتهى الاعجاب ، هذا الانسان المثالي ، والكاتب الحر الغيور ، الذي أعطاها كل ما في وسعه وطاقته . وهذا وأيم الله ، أرفع درجات البذل ، وأسمى مراتب العطاء .

إن أديباً كيعقوب العودات ، لا يمكن أن يموت . إنه حيٌّ في أفئدة أصدقائه ، وفي أذهان قرائه وعشاق أدبه ، خالد بسمعته الطيبة ، وبآثاره الباقية بقاء الشمس في قبّة الفلك .

الشاعر علي محمود طه

نبذة من حياة صاحب أغنية الجندول

لشعر علي محمود طه – المعروف بالمهندس – مذاق خاص يحار الناقد في وصفه وبيانه . فمن يقرؤه يلمس فيه الحداثة التي يطمح اليها التجديد في أدبنا المعاصر ، ويحسُّ بحلاوة الكلمة ، وثراء المعنى ، وسمو الخيال ، وجمال الصورة ، ويراها تتفاعل وتتآلف وتنسجم في القصيدة الواحدة انسجاماً يجعلها قطعة عاطفية نادرة ، تسكر الروح ، وتهدهد المشاعر ، وتستقر في أعماق الذهن ، من دون أن تفارقه أو تبتعد عنه .

لم يعش علي محمود طه طويلاً ، ولكنه أغنى الشعر الأصيل ، وزاده رواءً وتألقاً فنياً كان الشعر في أمسِّ الحاجة اليه ، وحباه من رشاقة الأسلوب ، ودقة التعبير ، وجمالية الايقاع ، ما جعل نتاجه الشعري ، يعادل أحسن ما في الشعر الغربي من مقطوعات يمتز بها الغربيون .

عاش سبعةً وأربعين ربيعاً فقط . فقد ولد في مدينة المنصورة ، عاصمة محافظة الدقهلية عام ١٩٠٢ من أسرة ذات يسر وسمعة طيبة ، وأتيح له بعد دراسته الابتدائية ، أن يدخل مدرسة الفنون التطبيقية ، وأن يتخرج منها عام ١٩٢٤ ويعين على أثر تخرجه في دائرة هندسة المباني بمسقط رأسه . ومن هنا لُقِّبَ بـ «المهندس» من دون أن يدرس

الهندسة . ثم شرع يتنقّل من وظيفة حكومية الى وظيفة حكــومية أفضل . فكان أن عيّن مديراً لمعرض وزارة التجارة ، ثم مديراً لمكتب وزير التجارة ، ثم أميناً للمجلس النيابي المصري ، وفي سنة ١٩٤٩ عُيِّنَ وكيلاً لدار الكتب المصرية . وفي هذه السنة استأثرت به رحمةُ الله .

في جمعية أبولّو

فتِنَ علي منذ حداثته بالشعر ، ونظم بعضاً من قصائده وهو على مقاعد الدراسة ، وقد أُعجب بنظمه بعض شعراء ذلك الزمان ، وشجعوه على الاستمرار في قرض الشعر ، فاستمر وتحسَّن شعره تحسناً كبيراً مكّنه من نشره في مجلة [أبولّو] التي أنشأها في القاهرة عام ١٩٣٢ الطبيب الشاعر الدكتور أحمد زكي أبو شادي . و « أبولو » كلمة أغريقية تعني ربة الشمس والشعر والموسيقى والنبوءة ، وكانت كمجلة « الفنون » في نيويورك تهدف إلى التجديد في الكتابة والشعر مع المحافظة على سلامة اللغة وقواعد العروض . وانتخب أحمد شوقي أول رئيس لجمعية « أبولو » وقال يحييها بقصيدة نُشرت في صدر مجلتها وهذا مطلع القصيدة وبيتان منها :

أبولّو مرحباً بكِ يا « أبولّو »   فانكِ من عكاظ الشعر ظِلُّ
صحائفكِ المدبجةُ الحواشي   ربى الوردِ المفتَّحِ أو أجلُّ
رياحينُ الرياض يُمَلُّ منها   وريحان القرائح لا يُمَلُّ

وتوفي شوقي في ذلك العام ١٩٣٢ فخلفه على رئاسة أبولو خليل مطران . وكان أبو شادي أمين السر وأحمد محرم نائباً للرئيس . ومن أعضاء الجمعية البارزين : الدكتور ابراهيم ناجي صاحب قصيدة « الاطلال »

ومختار الوكيل وأحمد ضيف وكامل الكيلاني وعلي محمود طه ومحمود أبو الوفا وصالح جودت وحسن كامل الصيرفي . وقد عرفنا الثلاثة الاخيرين حين كنا في القاهرة خلال عامي ١٩٦٠ و ١٩٦١ وعقدت بينهم وبيننا صداقة متينة العرى . وقد حدثني بعضهم عن الشاعر علي محمود طه وقال : إنه كان على جانب كبير من شفافية النفس ، ورهافة الحس والألمعية الشعرية .

الملاح التائه

[الملاح التائه] أول دواوين الشاعر طبعه سنة ١٩٣٤ وفيه عدد من القصائد الوصفية التي استمدّ صورها من الطبيعة الخلابة المحيطة بمدينة المنصورة وما جاورها كدمياط والسنانية وكلها تمتاز بحقولها الزاهرة ورياضها الفناء الممتدة إلى رأس البر وبحيرة المنزلة . وأول قصائد ذلك الديوان عنوانها [ميلاد شاعر] ومطلعها :

هبط الأرضَ كالشعاع السنيِّ   بعصا ساحرٍ وقلب نبيِّ

علي محمود طه شاعر الطبيعة

كان شاعرنا محبّاً للمناظر الطبيعية ، مولعاً بالاسفار إلى البلاد الغنية برياضها وأنهارها وبحيراتها وجبالها المكللة بالثلوج . ولهذا ساح مراراً في ايطاليا وسويسرا والمانيا ، وكحل عينيه بما وهبها الله من مفاتن تستأثر بالألباب . وسجّل هاتيك المفاتن في شعرٍ يعتبر بحق من أرق وأبدع ما فاضت به قرائح الشعراء .

والذين درسوا حياة هذا الشاعر المحلّق ، وقفوا خاشعين أمام تلك اللوحات العاطفية التي رسمها فكره عندما زار البندقية ، ورأى

شوارعها المائية ، وقصورها الباذخة ، وجسورها المنحنية كالأقواس ، وساحاتها الفسيحة . ولا سيما ساحة « سان مارك » المفروشة بالبلاط ، والحافلة بأسراب الحمام الأليف الذي اعتاد منذ عرف ذلك المكان ، أن يرفرف فوق رؤوس الزوّار ، وان يطير من حولهم ، وأن يجلس في أحضانهم ، ليلتقط ما يحملونه اليه من ذرة وحبوب يحبها يشترونها له ، ويلذ لهم أن يطعموه أياها بأنفسهم .

هناك في البندقية مدينة القنوات والقصور التاريخية والبنايات الاثرية الفخمة .

هناك في عروس الادرياتيك ، ومسبح الزوارق السياحية المزدانة بكل ما يبهج العين ، ويشرح الصدر ، ويغري بالحب .

هناك شهد علي محمود طه ، ليالي [الكرنفال] في عام ١٩٣٨ فأعجب بها وبأسراب الغيد الحسان اللابسات ثيابهنّ التنكرية الزاهية المحلاة بضفائر الورد ، والمسبلات شعورهن الطويلة على اطراف الزوارق السائرة بتيه وخيلاء على صفحة الأزرق الرجراج ، فأخذته نشوة الطرب ، وأوحت اليه أن يصوغ قصيدته الخالدة [أغنية الجندول] التي كان من حسن حظ الأدب والفن ، أن يلحنها ويغنيها الموسيقار الكبير محمد عبدالوهاب . وكم كنا في أوائل الاربعينات ، نطرب لهذه الاغنية ، التي كانت تحلق بنا بأجنحة من نور إلى عالم سحري كله فتون ونغم وبهاء .

أغنية الجندول

هذه الاغنية المرصعة بالمعاني السامية ، والجزالة المشرقة ، منشورة في ديوان [ليالي الملاح التائه] المطبوع للمرة الأولى عام

١٩٤٠ ، وهي تقع في اثنين وخمسين بيتاً ، وهذا مطلعها وبعض أبياتها :

أينَ من عينيَّ هاتيك المجالي يا عروسَ البحر يا حلمَ الخيالِ
أين عشاقكِ سمارُ الليالي أينَ من واديك يا مهدَ الجمال
موكبُ الغيدِ وعيدُ الكرنفالِ وسرى الجندول فى عرض القنال

بينَ كأسٍ يتشهّى الكرمُ خمرَهْ
وحبيبٍ يتمنّى الكأسُ ثغره
التقت عيني به أوّلَ مرّهْ
فعرفتُ الحب من أول نظـــرهْ

ويمضي الشاعر في وصفه البديع ، وانطلاقاته الشاعرية إلى أوج الابداع ، ثم يتذكر واديه المصري الساحر ، واهرامات الجيزة ، ونهر النيل الخالد القائمة على شاطئيه أشجار النخيل ، فيصيح بلهفة العاشق المشتاق إلى الوطن وإلى الحبيب البعيد عن ناظريه :

قلتُ والنشوةُ تسري في لساني هاجت الذكرى فأينَ الهرمانِ ؟
أينَ وادي السحر صداح المغاني أينَ ماء النيلِ ؟ أينَ الضفتانِ ؟

آهٍ لو كنتَ معي نختالُ عبرَهْ
بشراعٍ تسبحُ الأنجـــم إثرَهْ
حيث يروي الموجُ في أرخم نبره
حُلمَ ليلٍ من ليالي كليوبتره

أين من عينيَّ هاتيكَ المجـالي يا عروسَ البحر يا حلمَ الخيالِ

السيرانادا

« السيرانادا » كلمة ايطالية تعني اغاني الحب والغرام التي كان العشاق ينشدونها على معازفهم تحت نوافذ عشيقاتهم .

و « سيرانادا مصرية » قصيدة ذات أربع مقطوعات حافلة بالوصف الدقيق ، واللفظ الانيق ، والمشاعر الوجدانية الصافية . وإلى محبي الشعر الرفيع المقطوعتين الأولى والثانية :

دنا الليلُ فهيّا الآنَ يا ربّةَ أحلامي
دعانا ملكُ الحبِّ إلى محـــرابهِ السامي
تعالي فالدجى وحي أناشيــــدِ وأنغـامِ

سرت فرحته في الماء والاشجار والسحبِ
ألا فلنحلم الآن ، فهذي ليـــلةُ الحبِّ

على النيل ، وضوء القمر الوضاح كالطفلِ
جرى في الضفةِ الخضراء خلفَ الماء والظل
تعالي مثله نلهو بلثم الوردِ والطلِّ

هناك على ربى الوادي ، لنا مهدٌ من العشبِ
يلفُّ الصمتُ روحينا ، ويشدو بلبلُ الحبِّ

خمرة نهر الرين

عندما زار الشاعر أوروبا ومرَّ بنهر الرين Rhin الذي ينبع من جبال الألب ، ويخترق سويسرا وفرنسا والمانيا الغربية ، استهواه ذلك النهر بغزارة مياهه وبما يحفل به شاطئاه من مغانٍ ومبانٍ جميلة ، فقال فيه قصيدةً رائعة سماها « خمرة نهر الرين » وأهداها إلى صديقة سويسرية من [برن] التقى بها هناك :

كنزُ أحلامكَ يا شاعرُ في هذا المكانِ
سحرُ أنغاميكَ طوًّا فُ بهاتيكَ المغاني
فجرُ أيامكَ رقّا فُ على هذي المجاني

أيها الشاعرُ هذا الرينُ فاصدح بالاغاني
كلُّ حيٍّ وجمادٍ ها هنا هاتفٌ يدعو الحبيبَ المحسنا
يا أخا الروح دعا الشوقُ بنا فاسقنا من خمرةِ الرينِ اسقنا

وبحر (الرمل) محببٌ إلى الشاعر يجد في تفعيلاته الثلاث اللحن الشجي ، واللفظ الحلو ، والجرس المطرب ، ويرى في مجزوئه ما يستسيغه السمع وترتاح اليه النفس . ومعظم الشعراء الوجـدانيين والغنائيين ، يختارون هذا البحر لمرونته ورشاقة حركاته .

اللمبارد الايطالي

تعتبر بحيرة « كومو » أجمل البحيرات في « اللمبارد » الايطالي . والحقُّ انها من أجمل مفاتن أوروبا ، وقد جذبت اليها كثيراً من الشعراء فالهمتهم أرق أشعارهم وأشجى أغانيهم . وقد زار الشاعر هذه البحيرة متنقلاً بين شواطئها ومدنها وأروع جبالها المسمى « البرونات » ووصف البحيرة بقصيدة أهداها إلى أديبة اميركية كانت معه فقال :

هيئي الكأسَ والوترْ تلك « كومو » مدى النظرْ
فاصدحي يا خواطري طويت شقة السَّفرْ
ودنت جنّةُ المنى وحلا عندها المقرْ
بابلٌ أم بحيرة أم قصور من الدررْ
أم رؤى الخلد في الحياة تمثلنَ للبشر
شاعرَ النيل طف بها غنّها كلَّ مبتكر

والحقيقة أن الشاعر جاءنا بالمعاني المبتكرة البارعة ، وأنشدنا أحسن ما ينطلق من أفواه الشعراء المولهين بمحاسن الطبيعة ، وبابتسامات الزهور وتغاريد الطيور ، وخرير السواقي المنسابة بين الحقول والبساتين ،

والمتعرجة على سفوح الجبال ، وعلى أكتاف الروابي والتلال .

ومن قصائده المترفة المحتمة ، قصيدة « القمر العاشق » ، فقد تخيّله الشاعر عاشقاً يرنو من عليائه إلى عذراءَ فيها طهر الزنبقة الناعسة فقال :

إذا ما طاف بالشرفة ضوء القمر المضنى
ورفّ عليك مثل الحلم أو اشراقة المعنى
وأنتِ على فراش الطهر كالزنبقــــةِ الوسنى
فضمي جسمكِ العاري وصُوني ذلكَ الحسنا

ومن قصائده الملاح في ديوانه الأول « الملاح التائه » قصيدة « مخدع مغنية » وفيها يقول :

شاع في جوّهِ الخيالُ ورفّ الحسنُ والسحر والهوى والمراحُ
ونسيمٌ معطرٌ خفقت فيـهِ قـــلوب ورفـــرفت أرواح
وهي في ميعة الصبا يزدهيهـا ضحكٌ لا تمـــلّهُ ومزاح
معبد للجمال والسحر والفتـ ـنة يُفـدى لقـدسهِ ويُراح
دخـــلتْ بي اليه ذات مساءٍ حيثُ لا ضجّـةٌ ولا أشباح
هتفتْ بي تُراكَ من أنت يا صاح فقلتُ المعذبُ الملتاح
شاعرُ الحبّ والجمال فقالتْ ما عـليهِ إذا أحبّ جُناح
واحتوى رأسيَ الحزينَ ذراعـا ها ومرّت على جبينـيَ راحُ

ومن قصائده البالغة العذوبة [حديث قبلة] وفيها يقول :

تسائلـني حـلوةُ المبسَمِ مـتى أنت قبلتني من فمي ؟
فقلتُ أعابثهـا بل نسيتِ وفي الثغر كانت وفي المعصمِ
فان تنكريها فمـا حيلـــتي وها هي ذي شعـلةٌ في دمي

فإن شئتِ ارجعتها ثانياً مضاعفةً للفمِ المنعمِ
فقالت وعضت بأهدابها إذا كان حقاً فلا تحجم
سأغمضُ عينيَّ كيلا أراك وما في صنيعك من مأثم
كأنك في الحلم قبّلتني فقلتُ وأفديك أن تحلمي

ولعلي محمود قصيدة لحمتها الفن وسداها الغزل الأخّاذ عنوانها « سارية الفجر » يقول فيها :

عبرت بي في صباحٍ باكرٍ فتنةَ العين وشغلَ الخاطرِ
شعرها الأشقر فيهِ وردةٌ لونها من شهوات الشاعر
وبعينيها رؤى حائرةٌ بين أسرار مساءٍ غابرٍ
أنت يا سارية الفجر اسمعي دعوةَ الروح البريء الطاهر
شاطريني ذلك المأوى فما أتقاضاكِ وفاءَ الشاكر
سوف يحويكِ فؤادٌ خافقٌ لكِ فيه همساتُ الذاكر

كان الشاعر متدفق الشعور ، ذا عاطفة تنبجس كالينبوع الثر النمير . عُرف ببراعته الفائقة في اصطياد المعاني العصيّة ، وانتقاء الالفاظ الملائمة لها . وكان يحلق كالنسر الجبار في أبعد أجواء الخيال، ويبهر الفصحى بما يرضيها ويثريها ويسرُّ اعلامها ومحبيها . وكانت كبريات الصحف المصرية كالرسالة والمقتطف والثقافة والدستور والمصور والاهرام والمقطم وغيرها من صحف الوطن العربي ، تفتح له صدورها مغتبطة مرحبة بنتاجه الغني بالفكر والفن والنغم الحلو والبيان المشرق السلسال .

وبالرغم من قصر حياته – إذ أنه لم يعش إلا سبعة وأربعين ربيعاً – قدّم إلى عشاق أدبه كثيراً من الزاد الادبي الشهي ، وأتحف المكتبة العربية بمؤلفات ذات قيمة أدبية عظيمة .

مؤلفات الشاعر

« الملاح التائه » و « ليالي الملاح التائه » و « أرواح شاردة » و « أرواح وأشباح » و « زهر وخمر » و « أغنية الرياح الأربع » و « الشوق العائد » و « شرق وغرب » وهو آخر دواوينه طبعه سنة ١٩٤٧ .

ويحتوي كتاب « أرواح شاردة » على دراسات أدبية للشاعرين الفرنسيين « بول فيرلين » و « شارل بودلير » . وعلى دراسات في الأدب الانكليزي . فقد كان علي محمود طه واسع الثقافة ، متقناً للغة الانكليزية وملماً بالفرنسية ، وقد ترجم عدداً من القصائد المنظومة بهاتين اللغتين ، منها قصيدة « القبّرة » للشاعر الانكليزي « شيلّي » وترجم قصيدة « البحيرة » (١) لشاعر الحب والجمال « لامرتين » ومطلعها :

ليتَ شعري أهكذا نحن نمضي   في عباب إلى شواطئ غمضِ

وترجمها كثير من الشعراء ، في طليعتهم الشاعر اللبناني الدكتور نقولا فياض ومطلعها :

أهكذا تنقضي دوماً أمانينا   نطوي الحياةَ وليل الموت يطوينا

ونحن نرى أن الدكتور فياض أحسن من عرّب هذه القصيدة ، لأنه كان شاعراً مبدعاً ومتعمقاً في العربية والفرنسية .

وخلاصة ما يقال في علي محمود طه ، إنه شاعر مجدّد ، حلّق في سماء الابداع وأطرفنا بخير ما عرفه الأدب العربي المعاصر ، من شعر وجداني وغنائي ، رفعه إلى مستوى فحول شعرائنا الخالدين .

---

(١) هي بحيرة ليمان في جنيف .

الشاعر صالح جودت



الشاعر صالح جودت

رأيتُ صالح جودت أولَ مرة ، في الندوة الادبية التي كانت تعقدها في مساء كل يوم ثلاثاء ، الشاعرة الرسامة الموسيقية السيدة شريفة فتحي حرم المهندس الدكتور كمال الدين سامح الاستاذ بكلية الهندسة بجامعة القاهرة ، وكريمة القانوني المستشار محمد فتحي ، استاذ علم النفس الجنائي في تلك الجامعة نفسها .

كان بيت السيدة شريفة ، في شارع أحمد نسيم - البناية رقم ٤ القريبة من حدائق الاورمان ، ومن المنزل الذي كنا نسكنه في أيام الوحدة بين مصر

وسورية في شارع المساحة البناية رقم ١٢ بالدقي . وكان واسطة التعارف بين تلك الشاعرة وبيني ، ابن حلب البار ، وأمير الكمان ، الاستاذ سامي الشوا ، صديق محمد فتحي والد شريفة .

كان الاستاذ محمد ، بارعاً في العزف على « الطنبور »(١) وخبيراً بعلم الاصوات والمقامات . وكان يحمل طنبوره إلى الندوة ليشنف به أسماع الحاضرين ، يرافقه سامي الشوا بالعزف على الكمان ، وترافقهما بالعزف على البيان السيدة شريفة ، فتخلب الالباب ، وتنشرح الصدور ، ويعمّ الطرب .

وكان من رواد الندوة الفتحية ، علي الجندي الاستاذ بدار العلوم وعزيز أباظة « باشا » وأحمد رامي وصالح جودت وعبدالله شمس الدين صاحب نشيد [الله أكبر] وعادل الغضبان مدير القسم الأدبي بدار المعارف وحنيفة فتحي الروائية المعروفة وأخت شريفة من أبيها لا من أمها والشاعر المذيع الممثل أحمد خميس والدكتور أحمد موسى مدير البعثات وكريمته السيدة ليلى وغيرهم من أعلام الفكر والموسيقى في عاصمة وادي النيل .

ودعتني السيدة شريفة لحضور ندوتها ، فلبيتُ الدعوة شاكراً ، وما كدتُ أتوسّط صالة الاستقبال ، حتى رأيت صالحاً وبجانبه الشاعر أحمد رامي وجميع من ذكرتهم هنا .

وكنتُ أتوق إلى معرفة الاستاذ صالح ، فهو بلا شك شاعر كبير ، ولكنه كان كالحرباء يتلوّن حسب الظروف ، ويتزلف للأقوياء ،

---

(١) الطنبور والطنبار من آلات الطرب ذو عنق طويل وستة أوتار من نحاس فارسيته طَنبور بفتح الطاء .

وذوي المال والجاه العريض ، حتى إذا ابتعدوا عن مراكزهم ، سلقهم بلسانه ، وقال فيهم أبشعَ شعر الهجاء .

وكان صالح في مقدمة من فصلتهم ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، فأبعدته عن الاذاعة وألقت به في الشارع . ربما لأن له أغنيات في الملك فاروق ، منها أغنية لحنها وغناها محمد عبدالوهاب ، وقد جاء فيها : « الفن من يعرفه إلاّ الفاروق اللي رعاه » ...

وإذا كان صالح قد تعرض للتطهير ، فعبدالوهاب قد عومل بمنتهى التكريم ، ولم ترضَ الثورة عن صالح ، إلا بعد أن تسلل خفية إلى « دار الهلال » - التي لم تكن قد اممت بعد - وصار يكتب في صحفها مقالات بامضائه أحياناً ، وبلا إمضاء في بعض الاحيان ، يتملق فيها العهد الجديد ،ويسب العهد القديم ، وقد غالى في تمجيد الثورة الاصلاحية ، وأشاد بوطنية الضباط الاحرار ، وعلى رأسهم قائدهم الملهم ، ومنظم حركاتهم جمال عبدالناصر .

وسرعان ما طويت صفحة التطهير ونسيَ الرئيس جمال الاساءة . فقد كان طيب القلب إلى أبعد حدود الطيب ، وكان كثير التسامح والتغاضي والغفران ، نائياً عن الحقد والتعصب والتفرقة ، مندمجاً في روح العروبة ومثلها العليا ، ساعياً بالرفق والمحبة ونكران الذات ، إلى توحيد أمتنا لتظلَّ دائماً خيرَ أمةٍ أخرجت للناس .

ولكن كيف يرضى الاستعمار ،بوحدة أمة تكاد تعدُّ مئة وخمسين مليوناً من البشر ، وتملك مواقع استراتيجية في غاية الأهمية ، وثروات معدنية وزراعية يسيل لها لعاب أقوى دول العالم وأكثرها غنىً .

كان صالح جودت شاعراً ، ولكنه كان ذا خلُق مريض ،

وصفات تبعده عن مواطن الرجولة وفضائل الانسانية . كان خصب القريحة طلق اللسان ، بيد أنه كان قاحل الوجدان ، لا يعرف لسانه الاستقرار على حال .

كان ديدنه التذبذب حتى في شؤون الأدب . فعندما أصدر الطبعة الاولى من كتابه « بلابل من الشرق » كان نزار قباني يحتل فصلاً من فصول الكتاب . فلما تغيرت الدنيا بعد ذلك ، وصدرت الطبعة الثانية والثالثة ، حذف الفصل الخاص بنزار .

صالح جودت في دمشق

التقيت كثيراً بصالح جودت تحت سماء القاهرة ، وكان رفيقه في كل مرة صديقه الحميم أحمد رامي .

وكان صالح عضواً في لجنة الشعر بالمجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب بالقاهرة (١) وكنت عضواً في اللجنة نفسها بدمشق .

وعندما أقيم مهرجان الشعر الدوري الثالث بدمشق ، ابتداءً من يوم السبت ٢٣ ايلول ١٩٦١ لغاية يوم الاربعاء ٢٧ من الشهر نفسه ، تصدّى بعض الشعراء والخطباء لما يسمونه الشعر الحر الطليق من الوزن والقافية ، كما تصدوا للشعر الرمزي السيريالي وقالوا إن هذين النمطين دخيلان على تراثنا ولغتنا ، لا يحقّ لمثقف أن يدعوهما شعراً لخلوّهما من

---

(١) أنشىء المجلس الأعلى في القاهرة بتاريخ ٢٥ يناير- كانون الثاني ١٩٥٦. وفي عهد الوحدة أنشىء في دمشق ، وانتخبت عضواً فيه عن حلب منذ تأسيسه إلى أن استعيض عنه باتحاد كتاب العرب . ودامت عضويتي في المجلس خمس عشرة سنة متوالية .

الوحده الموسيقية ، والايقاع الفني ، ولبعدهما عن الوضوح وعن عمود الشعر ، ومقوماته وقواعده .

اشتراكنا في مهرجان الشعر الثالث

اشتركت في مهرجان الشعر الثالث ، والقيت فيه قصيدتي « قبس من الصحراء » وألقى صالح جودت قصيدة رائية تعرّض فيها لأولئك الخارجين على التفعيلات والقوافي والاصالة العربية في الشعر ، وقال يخاطب أبا عبادة البحتري ، وكان موضع التكريم في المهرجان :

نردُّ زمانك يا « بحتريُّ » ونعلي مكانك يا منبرُ
ونتلو من الشعر ما يُستطابُ ونسمعُ منه الذي يسكر
يقولون جاءوا بشعر جديدٍ يجبُّ القديمَ الذي نُكبر
تفاعيله يزدريها الاطارُ ومبناهُ تنكرهُ الأبحر
أجل ليس يُوزنُ سقطُ الحجارةِ ، بل يوزنُ الدرُّ والجوهر
وما الشطران سوى المقلتين وفاقدُ إحداهما أعور

وقال في ختام هذه القصيدة البديعة :

فيا ناصرَ الله إنا خففنا اليكَ فمرنا بما تأمرُ
وصلِّ لربكَ واصعد بشعبكَ وامضِ وصاحبُكَ الأبترُ

وتجاوبت الجماهير مع هذا القول الرصين ، يؤيدونه ، ويرون رأي الشاعر في المحافظة على القواعد العروضية التي وضعها الخليل ، والتي تمسّك بها فحول شعرائنا العرب منذ أكثر من ألف سنة إلى يومنا هذا .

إن التمسك بأصالة لغتنا وشعرنا حسنة نذكرها لصالح جودت ،

ونعود فنعلن أنه شاعر جزل القول ، وكاتب مشرق الديباجة نضيد البيان ، ولكنه مع الأسف ، مضطرب العاطفة مهزوز المبدأ ، وفي مجلة « الضاد » نموذجات جيدة من شعره . ففي القصيدة التي ألقاها في حفلة إزاحة الستار عن تمثال المؤرخ الثقة عيسى اسكندر المعلوف يقول :

ناداكَ لبنانٌ فقمْ لندائهِ أوما جعلتَ الروح بعض فدائهِ
ناداكَ فانهضْ للوفاءِ وحقّهِ وأحمل شجونكَ في سبيل قضائه
وإذا عييتَ من الجمال ودائهِ لخلود ذكركَ أن تموت بدائه
ومررتُ بالبيتِ الذي فاض الشذا من آل معلوفٍ على أبهائه
العبقريةُ في رؤوس رجاله والألمعية في قلوب نسائه
حملوا لواءَ الأرز وانطلقوا بهِ غرباً فكانوا الغرّ من شعرائه
تخذوا بأندلسَ الجديدة مهجراً ينهلُ عطرُ الشوقِ في أجوائه
بعثوا بهِ المجدَ القديمَ وأسسوا صرحاً أعزَّ عليه من حمرائه
ما سرُّ لبنانٍ ؟ أشمُّ جباله ؟ ما سحرُ لبنانٍ ؟ أطيبُ هوائه
لا والذي خلقَ النهى ، أنا لا أرى لبنانَ إلاّ في أجلِّ روائه
طالعت تمثالاً يفيض جلالةً ويضوعُ عطرُ المجد في حصبائه
قالوا تخلدهُ بشعركَ قلتُ هلْ تهبُ النجومُ البدرَ سحر ضيائه
إني لألتمسُ الخلودَ بذكرهِ وأتيهُ في شرف النهى برثائه
هذا بتولُ العلم في محرابهِ وسميُّ عيسى في جليل سمائه
هذا شريكُ الأرز في أمجاده هذا أبو الثالوث من شعرائه
هذا أبو [فوزي] الذي أفضى بنا للعالم المجهول في إسرائه
ما ماتَ من ترك الحياة مخلداً ليعيش بعد الموت في أبنائه

وتقع القصيدة في سبعة ٍ وسبعين بيـتاً ، وكلها على هذا الطراز من الرقة والانسجام .

الشاعر يساهم في تكريم خليل مطران

ويوم احتفلت بعلبك ، بازاحـة الستار عن تمثال شاعرها الخالد خليل مطران ، ألقى صالح جودت قصيدة جاءت في ثمانين بيتاً ، هذا مطلعها وبعض أبياتها :

لا بانجيـــله ِ ولا قرآنـه ْ　　بعثَ اللهُ شاعراً في زمانـه ْ
جلّ شأنُ الاله ِ ما علم الشعرَ　　نبياً أو بثّــه ُ في لسانه
فانجلت حكمةُ السماء عن الشعر ،　　وفــضّ الحجاب عن برهانـه
وأتى الشاعرُ الذي دينهُ الحبّ　　يضـمّ القـــلوبَ في ديوانه
التحياتُ يا بعلبكُ عطرٌ　　لابنك البكر في ضحى مهرجانه
جاءك ِ اليوم يا بعلبكُ شوقاً　　وسراةُ القريض في ركبانه
رضي الله عنه في منزل الخلد ِ　　رضاءَ النبيّ عن حسّانـــه

هذا صالح جودت في تألقه الفني وشاعريته وطول نفسه ووضوح جملته ، فماذا عن صالح المالىء الخداع ؟

لقد كان عنده لـكل لحية ٍ مسئول مشط ، ولـكل ثوب ذي حول وطول فرشاة ، ولـكل حاكم قوي كلام معسول ، وقلم تحت الطلب ، حـــتى إذا حُلقت تلك اللحية ، وخُلع صاحب ذلك الثوب ، وعزل الحـاكم الآمر الناهي ، انقلب عليهم ، وتقرب من خصومهم ، بالـكلام الحلو والمديـح الـكاذب .

في العهد الملكي

في عهد الملك فاروق ، كان صالح جـــودت ملكياً أكثر من الملك ، وكان يُسبّح بحمده رغـم ما كان يقاسيه الشعب المصري من فقر ومرض وظـــلم الاقطاع . ولو قُدّر لشاعرنا أن يطلع على خطة الضباط الأحرار التي كان يتزعمها جمال عبدالناصر ، لأسرع صالح الى مبنى الاركان وأفشى السرّ ، ولو بقيت مصر تئن تحت نـير العبودية ، فحسبه أن يتنعّم هو ، وأن يذهب الشعب إلى الجحيم . . .

ولـكن مفاتيح السر كلها ، كانت بيد قوية وأمينة وحريصة على نجاح الخطة . وكان جمال يعرف انتهازية جودت ، ويعلم عداءه للثورة ، وتقربه من حاشية الملك فاروق ، ولهذا نحّته الثورة فور قيامها ، وحطمت قلمه الذي يُباع ويشرى بعرَض ٍ تافه من أعراض الحياة .

شيء عن الثورة

عندما حدّد جمـال ساعة الصفر ، علِمَ أنَّ المخـابرات كشفت الخطـة ، وكان من المفروض أن تقف جميـع العمليات التي سيقوم بها الضباط الأحرار مساء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وبذلك تقف الثورة ، ويبقى النظام الاقطاعي ، وتستمر فوضى الحـكم . . .

يقول أنور السادات ـ وكان مع حرمه في السينما ـ عند قيام الثورة والسيطرة الـكاملة على القوات المـوالية للملك . يقول السادات ما نصه بالحرف الواحد : « وهنا تتضح شخصية جمال كقائد .. إنه لا يتراجع.. إنه يصمد . . يقرر هذا بعد أن علم باجتماع القوات والوحدات لمواجهة الثورة وإخمادها . وبعد أن عرف هـــذا كله قرر القبض على هؤلاء القادة في مبنى رئاستهم ، وبهذا وفّرَ جهوداً ضخمة في الرجال والوقت

كانت ستبذل للقبض على هؤلاء القوّاد في منازلهم كل على حدة .

لقد اصطاد جمال عصافير عديدة بحجر واحد . . . أما الحجر فكان عبارة عن مجموعة من الجنود فوجئ جمال بهم ليلة الثورة وهم يتقدمون تحت رئاسة ضابطهم اليوزباشي محمد شديد ، نحو مراكز تجمع قوات الضباط الأحرار . وظن جمال أن تلك القوة أوفدتها رئاسة الجيش كمقدمة للقوات التي ستحشدها لاخماد الثورة .

وتتضح الحقيقة ، ويعرف جمال أن اليوزباشي [شديد] جاء بتلك القوة التي تعمل تحت رئاسته من تلقاء نفسه ، وبلا أوامر من أحد ، عندما علم بأنباء الثورة قرر أن يشترك بجنوده في المعركة قبل بدئها بساعة .. وكانت تلك المفاجأة ، مكملةً لمفاجأة كشف المخابرات للخطة، واجتماع حسين فريد في مبنى الرئاسة .

واتخذ قرار في الحال بعد وصول قوات القائد شديد ، بأن تتوجه القوة نفسها برئاسة عبدالحكيم عامر ، وتحتل مبنى رئاسة الجيش، ثم تلقي القبض على القادة أثناء اجتماعهم العاجل . وفعلاً قام عبدالحكيم عامر وهو يشهر مسدسه ، وتقدم الجنود ، ثم اقتحم بهم مبنى الرئاسة، وانتصر التنظيم في المعركة الأولى ، وكانت أول معركة حاسمة تكسبها الثورة . وقد قتل في تلك المعركة اثنان ، وجرح أربعة من الفريقين .

اللواء محمد نجيب لا يعلم

بدأت الثورة اذن ، واللواء نجيب لا يعلم ، وانطلقت رصاصات عبدالحكيم عامر حول مبنى رئاسة الجيش ، وسقطت القلعة المنيعة بقوادها . وكان بين الذين وقعوا في قبضة الثورة في لحظاتها الأولى ،

رئيس هيئة أركان الجيش بلحمه ودمه (١) .

بعد أن نجحت الثورة ، بنحو ثلاث ساعات ونيف ، عرف اللواء محمد نجيب بها - وكان في أثناء ذلك يستريح في فراشه - وأدرك أن في الجيش المصري تنظيماً اسمه تنظيم الضباط الاحرار ، وأن قيادة ذلك التنظيم ، سيطرت في البلاد المصرية كلها على جميع القوات المسلحة ، وأن جمال عبدالناصر هو قائد ذلك التنظيم ، وواضع خطته الناجحة .

الشاعر الانتهازي

وكان الشاعر الانتهازي صالح جودت ، قد انحاز إلى الثورة ، وبدأ يطبّل لها ويزمر ، ويشيد بفضل جمال عبدالناصر ، وشجاعة الضباط الاحرار ، ويندد بمساوىء العهد البائد ، ويقول إن جمالاً لم يصنع هذه الثورة الاصلاحية الكبرى فحسب ، بل صنع معجزةً حولت مصر من العبودية إلى الحرية ، ومن الاقطاع الى الانتفاضة الشعبية العارمة ، وجعلت الاجراء شركاء في الربح الحلال ، والفلاحين الفقراء ملاكين للأرض يستغلونها بعرق جباههم وكدّ أيامهم .

وفي يوم ١٦ ابريل - نيسان ١٩٦٠ عاد الرئيس جمال عبدالناصر من رحلة إلى الهند وباكستان ، فخرجت الامة لاستقباله بصحراء الماظه في يوم قائظ ، فأنزل الله المطر عند نزول الرئيس من الطائرة ، فاستغل جودت هذه الظاهرة ، ووجهَ إلى جمال هذه التحية الطيبة بقصيدةٍ عنوانها « تحية العائد » :

---

(١) عن كتاب [قصة الثورة كاملة] لأنور السادات - كتاب « الهلال » في ٥ يونيو ١٩٥٦ .

يا مرحباً بالمودِ والعائـد سلمتَ للعربِ أبا خالدِ
سلمتَ للدعوةِ مبرورةً لمَّتْ شتاتَ الوطن الواحد
انظرْ ترَ الأرواح يوم اللقا مشبوبةً من شوقها الزائد
انظرْ ترَ الصحراء كيف ازدهت وكيف باتت كعبةَ القاصد
احتشدتْ في حرّها أمةٌ تدعو من الأعماق للقائد
مرفوعةَ الهامات نحو السما كأنها تعويذة الراصد
حتى اذا أهللت جاد الحيا تحيـةَ الرحمنِ للقـائد
تستقبل العائد من أمةٍ رأته في تاريخها الصاعد
رأته في [غاندي] نبي الفـدا وفي [جناح] البطل الرائد
رأته في [نهرو] ودعواتهِ الى الحيـادِ الطيب الرافد
رأت بهم كيفَ يُشاد العُلا وكيفَ تبدو صحوةُ المارد
وكيف يغدو السلم في نهجهمْ ناراً على المستعمر الحاقد
وكيف تغني قوة الروح في دعوتهم عن قوة الساعد
سلمـتَ للدنيا أبا خالدٍ تُطربها من لحنكَ الخالدِ

وبقيَ صالح جودت قابعاً في زاوية المهالثة ، متقنعاً مسحَ الجوخ، طيلة حكم جمـــال . وقد سمعته مرةً يقول : « إن جمال عبدالناصر أعظم بطل أنجبته العروبة على مرّ الأجيـال ، وحسبه فخراً أنه وحّدَ دولتين عربيتين قويتين ، فجمع بذلك على صعيد واحد ، أكثر من نصف الأمة العربية ، وهذه معجزة لا يحققها إلا من اختارهم الله لخير أمتهم وسعادة شعوبها » .

ولما بدأت الوحـــدة السورية ـ المصرية تعطي ثمارها ، وتبدي تفوّقهـا على الصعيد العسكري ، بدأت الخيانـــة بتدبير من المخابرات الاميركية ، فهيأت انذالاً خونـــة جبناء طعنوا جمالاً من الخلف في

الصباح الباكر من يوم ٢٨ ايلول ١٩٦١ ، وأعلنوا بكل قحة ، الانفصال عن الشقيقة الكبرى مصر . وكان المشير عبدالحكيم عامر وقتئذٍ في فراش غانية من بائعات الهوى ، والحشيش قد ذهب برشده . ولما صحا من نومه ، كان آخر من علم بالانقلاب المروّع ، وكان المسئول الأول عن هذه الكارثة القومية .

كان الانقلابيون من الخبث والدهاء على جانب كبير ، فألقوا في روع الناس ، أنّ قائد الانقلاب هو عبدالحميد السراج ، وقد ملّ سيطرة المصريين فعمد إلى الاطاحة بحكمهم والتخلص منهم .

وبالفعل فقد عرض الكزبري والنحلاوي على السراج أن يتزعم الانقلاب بعد نجاحه ، فرفض ذلك بمنتهى الاباء ، وقال للخونة : « أنا عربي وحدوي ، ولا أرضى عن الوحدة بديلاً » ...

ولم يعجب الخونة هذا القول ، فسيقَ السراج إلى سجن المزة ، وظل فيه حتى انقذ بقدرة قادر ودوّخ ساجنيه . . .

صالح جودت باقٍ على ولائه

ما دام جمال عبدالناصر متسلماً زمام الحكم في مصر ، فصالح جودت موال له . وكان يسميه « العملاق » تزلفاً وتملقاً . وفي قصيدته التالية كل المصانعة والمحاباة :

انظرْ وسلْ من ذلك العملاق من أبناءِ شعبي

متأنق الفودينِ رغم شبابه بأجلّ شيبِ

متألق العينين بالاقدام لا يعنو لخطب

متدفق الجنبين بالايمان لا يخشى لريبِ

متشبثاً بقضيةِ الأحرار في سِلمٍ وحربِ
متغنياً بكرامةِ الانسان في شرقٍ وغرب
يخطو فتلحظه عنايةُ ربهِ من كل صوب
ينهي ويأمرُ في الزمانِ فليس يرفضُ أن يُلبي
ويشير للنيلِ العنيدِ فينحني دون المصبِّ
ويترجم الآمالَ والرؤيا إلى عملٍ ودأب
ويجلهُ الثوارُ إجلال المخطط والمربي
هذا جمالُ فديتهُ بجوارحي وشغاف قلبي
ومشى اليه النصر مؤتلقَ الخطى ورعاهُ ربي

شاعر الثورة

وفي حفل شعبي كبير أقامه الاتحاد القومي بميدان الجمهورية احتفالاً بمرور ثلاثة أعوام على وحدة مصر وسورية في فبراير [شباط] ١٩٦١ ألقى صالح جودت قصيدةً طويلة نذكر مطلعها وأحسن أبياتها :

اذنَ الحقُّ ونادانا الفداءْ   شاعرَ الثورة قُمْ لبِّ النداءْ

لقد سمى نفسه « شاعر الثورة » ذلك المخلوق الذي كان قبل الثورة بأيام يعفر جبينه على مواطىء أقدام الملك فاروق ويدعوه حامي الاسلام وراعي الأدب والفن . وهذه كتاباته تشهد عليه ، وتشير بألف أصبع إلى عدائه السافر لكل اصلاح . فقد كان جودت حشرةً تقتات من نفايات الاثرياء وتعيش على فضلات موائدهم .

وها هو صالح جودت يتابع قوله :

اذنَ الحقُّ وما الحق سوى   فرحة العرب بميعاد اللقاءْ

أنا ناديت فلبـاني أخي ... من ربوع الشام مهدِ الأوفياء
نحنُ شعبٌ واحدٌ فرّقهُ ... هاتفُ السوء وجهلُ الزعماء
نحن شعب هيّنٌ في جسمه ... كلُّ جرحٍ ، غير جرح الكبرياء

إلى أن يقول بعد عدة أبيات :

ناصرَ الثورةِ حيّـاك الحيا ... وحباكَ الله ظـلاً وأفاء
أنا أدعو لك في الشهر الذي ... تتجلّى فيه أبوابُ السماء(١)
أن يفيكَ الله بالظـل كما ... ظلل المختـار في غار حراء
أيهـا الذائدُ عن أمّتهِ ... أيها الباعث عهـدَ الخلفاء
قسماً لولا التقى يعصمني ... قلتُ هل عاد زمان الانبياء

وفي هـذه القصيدة نفسها ، يتنكر لولي نعمته السابق فاروق ويتساءل :

أينَ من عهدك عهدٌ ذاهبٌ ... غاب فيه الخير واستحيا الحياءْ
وتجرّى في حمـانا ملكٌ ... يخرقُ الأرض ويمشي الخيلاء
فهو في طاغوتـه يحكمنـا ... مثلمـا يحكم فيه السفراء
شاءَ ما شاءَ ولم يوحَ لهُ ... ساعة الصفر بأن الله شاء (٢)

وراح يمالىء الثورة طيلة قيامها ، حتى إذا طعن الانفصاليون جمالاً في ظهره ، ومزقوا ميثاق الوحـدة الرائدة ، أخذ صالح يعاتب دمشق عتاب الأخ اخاه . وهذا بعض عتابه :

---

(١) شهر رمضان المبارك

(٢) من ديوانه « أغنيات على النيل » نشر دار مصر للطباعة ١٩٦٢ صفحة ٣ و ٧ .

لـكم آذني حبّك المرهقُ ... فسامحك اللهُ يا جلّقُ
عشقتك رغم مدى الانفصالِ ... وكم يتحملُ من يعشق
عيناً بقـــبر [أبي خالدٍ] ... وبالدمع من حوله يهرق
أيا اخوةَ الشامِ إنّ العتابَ ... لصفو ضمـــائرنا أليق
فماذا جنيتم ؟ وماذا جنينا ؟ ... وماذا جنى الغضبُ الأحمق ؟
وقلتمْ لنا ما يسرُّ الفؤادَ ... وقلنا الذي بالهوى يخفق
فكيف نبدّل هذا الحديثَ ... بليلٍ تنكبهُ المنطق
وكيف صحونا على طلقاتٍ ... صدور اليهود بهـا أليـــق
ووالله لولا دجى الانفصالِ ... وما جرّهُ ليلهُ الاخرق
لما أطمع الدهرُ فينا اليهودَ ... ولا حققوا طيفَ ما حققوا

والقصيدة كلها على هـــذا النمط من العتاب الاخوي والتنديد بالانفصال الذي قامت به فئة مأجورة قاومها الوحدويون الشرفاء مقاومة لا هـــوادةَ فيها ولا لين ، إلى أن انقضّ جيشنا الباسل على معاقل الكزبريين والنحلاويين وأتباعهم فدكّهـا وغسلَ وصمة عار الانفصال .

وعندما استأثرت رحمـــة الله بجمال عبدالناصر في اليوم الثامن والعشرين من شهر ايلول ١٩٧٠ . ومن غرائب المصادفات ، أنه كان يوم الانفصال في نفس ذلك اليوم المشئوم قبل تسعة أعوام ، رثاه جودت بقصيدة جعله فيها خامسَ الخـــلفاء الراشدين . وهـذا مطلع القصيدة وبعض أبياتها (١) :

أمعَ الاسراءِ نادتْهُ السماءْ ... كدتُ أن أحسبهُ في الانبياءْ
علتِ الطائرةُ الثكلى بهِ ... فتخيلتُ بُراقـاً في الفضاء

(١) مجلة [المصور] العدد ١٤٠١ عام ١٩٧٠ ـ عدد أبيات القصيدة ٧٤ ـ

كدت أن ألمح في معراجهِ طيف جبريل يحيي الشهداءْ
وتمثلتُ مسيحاً صاعــداً أفمـا كان مسيـحَ الزعمـاء
يحمل الآلام عنهم ويرى أنه الفادي إذا عزّ الفداء
صرعته محنة القتلى على ساحة الاردنّ والجوعى الظماء
ذبحتـه نكبة العرب التي جددت في الناس ذكرى كربلاء
نحنُ لولا الموتُ قلنا إنه كان كالأقدار يقضي ما يشاء
لو سئلنا فديةً في دمهِ لافتدته كلُّ نفسٍ بالدماء
كان كالاهرام مجــداً وعلا كان كالنيل انطلاقاً ووفاء
كان في تاريخنا أكرمَ من كرّم العلمَ وزكى العلمـاء
وحمى الدين ونادى بالتقى في زمانٍ قل فيه الاتقياء
واصطفاه اللهُ للعربِ فمـا كان إلاّ خامساً في الخلفاء
يا أبا الشعب وباني عزّهِ كلنا بعدكَ في اليتم سواء
قم تجدْ في كل بيت مأتماً وعلى كل طريق برحـاء
ليس فينا غير من خر ومن غص بالبلوى ومن شقّ الرداء

صالح جودت يقف شعره على رثاء جمال وتعزية الامة

ووقف صالح جـودت شعره ونثره سنةً كاملةً على رثاء جمال عبدالناصر ، وعلى تعزية حـرمه أم خالد ، وعلى مسح الدموع السخينة المتدفقة من عيون العروبة ، فلنسمعه في قصيدته [إلى شريكة المجد .. أم خالد] يخاطبها بقوله (١) :

لكِ يا من جرحها أعمق جرحٍ في الايامى

---

(١) تقع القصيدة في ٨٤ بيتاً . انظر مجلة [المصور] العدد ٢٤٠٤ عام ١٩٧٠ ص ٤٦ .

نسأل الرحمن صبراً وعزاءً وسلاما
لست في فقدانه وحدكِ وجداً واضطراما
كلنا مثلكِ يا أختُ ثكالى ويتامى
ليس فينا منذ يوم الخطب من جفناه ناما
كلنا نبكي ولا ننفعُ بالدمع الأواما
كلنا جرحى ولا نعرفُ للجرح التئاما
أفما شاهدت يوم الهول كالحشر ازدحاما
كان أقسى من ضحى النكسة شؤماً وانهزاما
كل نفس فقدت في يومه النصف التؤاما
وتمنت في حنايا النعش لو نامت .. وقاما

ولصالح جودت في الزعيم العربي الراحل قصائد أخرى منها قصيدة منشورة في الصفحة ٤٨ من عدد مجلة « المصور » رقم ٢٤٠٠ الصادر بتاريخ ٩/١٠/١٩٧٠ ومطلعها :

يا حبيبَ الشعب أبكي أم أغني والأسى أكبر مني
والشجى أعمق من صوتي ولحني كيف أبكي وأغني؟
كنتَ للأمة هدياً
كنت تستنبتُ فيها مثلاً للخيرِ عليا
كان في صوتك دنيا
تملأ الأسماعَ والأبصار إيماناً ووعيا
كنت إلهاماً ووعيا
ترسم الدربَ لشعب شاء أن تحيا ليحيا

وهناك في عدد خاص صدر من مجلة « الهلال » في شهر تشرين الثاني ١٩٧٠ ص ٣٠ قصيدة عنوانها « بعد الوداع » مؤلفة من ٥٢

بيتاً جاء فيها :

هوى الذي كان ارتفاعَ السها ... وانهارَ من كان كشمِ القلاعْ
إرادهُ الله قضت أمرهـا ... فيننا فقلنـا يا جمالُ الوداع
جمال قد أرسى لـكم نهجَـهُ ... ونهجه أولى بكل اتبـاع
مسيرة الثورة لا تنتهـــي ... أما نمى الملاح في الغيب ناع
فكلنـا مـــلاحها كلنا ... من غرس هذا العبقري الشجاع

صالح جودت يتنكر لجمال ويمالىء أنور السادات

وحين تسلَّم أنور السادات مقاليد الحكم ، واعتلى كرسي الرئاسة، بات على صالح جـــودت أن يصانعه ويمـالئه ويصوغ له آيات المديح والاطـراء ، ويندد باولئك الذين حاولوا أن يبعدوا زوج [جيهان هانم] عن التـلاعب بمقدرات الثورة المصرية . وفي قصيدة جـــودت المنشورة في الصفحة ٤٣ من العدد ٢٤٥٠ الصادر من مجلة [المصور] عام ١٩٧١ يقول :

وابتنوها فتنة لولا فتى ... أسمرُ الجبهةِ مأثورُ المضاءْ
بالغُ الهمة في أعراقهِ ... من دمِ السادات نبلٌ ووفاء
قام للثورة يستنقذهـــا ... من أيادي الـكافرين الجبناء
باركَ الله لنا في عهـدهِ ... وجـلا النصر له خير جزاء

عودة الوعي

حين أصبح السادات [فرعـون مصر] والآمر والناهي فيها ، لا يعارضه معارض ، ولا يحول دون مطامعه وغطرسته وعنجهيته حامل قلم ، ولا حامل رشاش ، عاد الوعي إلى بعـض الأدباء الصغار النفوس

نذكر منهم الآن : صالح جـودت وتوفيق الحكيم وعلي أمين ومصطفى أمين وأنيس منصور وأحمـد حمروش والدمرداش أحمد ، وقد عرفنـاهم بوجدانهم المريض ، وأقلامهم المأجورة ، وصيحتهم المسعورة . عرفناهم حين كنا تحت سمـــاء القاهرة يسبحون بحمد عبدالناصر ، فيقول لهم البطل الأسمر : سبّحوا بحمد الله تعالى ، وأخلصوا للثورة ، واعمـلوا على خدمة الشعب والوطن ، وصونوا أهداف الوحدة .

عبدالناصر الانسان

كان جمال عبدالناصر انساناً مثاليـــاً ، يمتاز بالتسامح وطيب القلب . ولم يكن كخليفته السادات ديكتاتوراً تسيره امرأة ، وتعلمه أن يتكبر على شعبٍ هو واحد منهم .

السادات لم يشترك في الثورة

لم يشترك أنور السادات في الثورة المصرية عنـد قيامها في ليل ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ . فأين كان فى ساعة الصفر ؟ كان مع حرمه المصون في السينما يتفرجان على أحد الافلام ... » وكان كل واحد من الضباط الاحرار يحتلّ مكاناً معيناً في أرض العملية ، وكل واحد كان عليه تنفيذ جزء من الخطة . . . ولعل جمال عبدالناصر كان الوحيد الذي ليس له مكان يستقرّ فيه . . كان يطوف بأرض العملية كلها ... وبعد أن سقطت رئاسة الجيش ، وقبض على رئيس هيئة أركان الحرب وقواده ، كان جمال قد انتهى من طوافه ، واطمأن على نتائج الضربة الأولى فتوجه إلى مبنى رئاسة الجيش وجلس في المكتب » (١) .

---

(١) مجلة الهلال عدد يونيو (حزيران) ١٩٥٦ ص ١٩ .

محمد نجيب لم يكن بين الضباط الأحرار

وهكذا كان جمال عبدالناصر قائد الثورة ، والمخطط لها ، والمحدد وقتها ، والمحتفظ وحده بأسماء جميع الضباط الاحرار ، ولم يكن محمد نجيب بينهم ، ولا على علم بحركتهم وتحركاتهم ، إلا بعد أن انتهى كل شيء بنجاح منقطع النظير ، وسيطر الجيش الحر ، على جميع ثكنات وادي النيل ، وعلى كل المواقع العسكرية ، والأماكن الستراتيجية ، من أقصى مصر إلى أقصاها .

مجلة (الهلال) ومجلة (المصور) في خدمة السادات

قويت شوكة السادات ، بعد أن دعمته الصحافة المصرية ، وبعد أن أصبح لصالح جودت شأن مرموق في دار الهلال . وقد كتب جودت في عدد « الهلال » الصادر في شهر مارس (آذار) ١٩٧٤ ص ٤ : « ... لقد جرب الحاكمون فينا أساليب كثيرة ، منها الارهاب والكبت وتحديد الاقامة ومصادرة الممتلكات وإغلاق النوافذ ».

ويتابع صالح جودت كلامه قائلاً : « وجاء الرئيس أنور السادات ، فحكَّم القانون ، وأطلق الحريات ، وأمَّنَ الناس على أرواحهم وأعراضهم وأرزاقهم ، وفتح جميع الأبواب والنوافذ على العالم ، فبدأنا نستاف نسيم الحرية ، ونتذوق معنى الحياة ، ونطهر الأرض ، ونتطلع إلى المستقبل بابتسامات مشرقة » .

وفي العدد ٢٥٨١ من مجلة « المصوّر » مقال لصالح جودت عنوانه [عندما نعيد كتابة التاريخ] يقول فيه : « ... بعد أجيال طويلة من الحجر الفكري ، نحسُّ بحاجة إلى إعادة كتابة التاريخ المصري تصحيحاً

لسيرة التاريخ الحق ، وتقويماً لما جاء في عشرات الكتب التي تدرّس لأبنائنا الآن في المدارس والمعاهد والجامعات » . ويستطرد فيقول : « إني لم أقصد أن أنهش في جسد زعيم راحل ، فان ما كان قائماً لدينا هو تجربة لها ايجابيات ولها سلبيات ، وأني أنهش في جسد هذه السلبيات التي أودت بنا إلى الحضيض سنة ١٩٦٧ » .

ولم يقف ذلك المخلوق عند هذا الحد من « النهش » بل يزيد قحةً فيقول : « نحن نعيش الآن جمهوريتنا الثانية ، جمهورية الحق والعدل والطهر التي يستطيع المؤرخ الأمين في ظلها ، أن يعيد كتابة التاريخ ، وهو آمن على نفسه وبيته وعرضه وعلمه باذن الله » ...

ثورة الاقلام الحرة على الكاتب المنافق

دفع صالح جودت ثمن نفاقه غالياً جداً ، ومرّغ ما بقي من كرامته في وحول الخسة والعار ، واتجه اليه مئات الألوف من محبي عبدالناصر باللوم والتأنيب والنقد المقذع ، فقال له صديقنا الشاعر والقاضي الكبير المتقاعد الاستاذ فوزي الرفاعي : « هل كنت كذاباً ومنافقاً وأنت تبكي وتبكيني معك حين قلت :

واصطفاهُ الله للعرب فما كان إلا خامساً في الخلفاء

لقد نهشت جسد عبدالناصر ، ذلك الزعيم ، الذي رفع شأنك ، وصان أدبك ، ونسبت اليه ما هو براء منه . لقد بذل نفسه ليطفىء ما شبَّ من نار المحن بين أخوتنا في الأردن وفلسطين ، فماذا فعل معلمك السادات ؟ لقد ذهب إلى القدس وارتمى في أحضان العجوز غولدا ماير ، وأذعن صاغراً لأمر اميركا ، وعقد اتفاق كامب دافيد ، وخان أقدس قضية عربية من دون خجل ووجل .

ولو شئنا أن نعدّد أسماء من بصقوا في وجه هذا المنافق وأمثاله من المشعوذين ، لملأنا كتاباً ضخماً ، ولكن حسبنا أن نستشهد بكلمة صغيرة في فحواها ، كبيرة في معناها قالتها في الشاعر المتقلّب ، كوكب الشرق أم كلثوم .

وفاء كوكب الشرق أم كلثوم لعبدالناصر

كانت السيدة أم كلثوم ، شديدة الاعجاب بعبدالناصر ، وكانت تراهُ مثالاً عالياً للرجولة الحقة ، والاخلاص المتين للعروبة والوحدة .

وقد جاء في مجلة الاذاعة والتلفزيون المصرية ما يلي : « عندما أعلن عبدالناصر تنحيتهُ عن رئاسة الدولة ، وأعلن مسؤوليته الكاملة عما حدث ، كانت أم كلثوم أوّلَ من هرعت إلى منزل البطل وعسكرت فيه .

« وعندما ثارت جماهير الشعب ، واحتلّت شوارع القاهرة ، كانت أمُّ كلثوم منهمكةً في تسجيل أغنيتها :

إبْقَ فأنت الأملُ الباقي لغدِ شعبِ

من نظم صالح جودت كانت قصيدةً جيدة لشاعر رديء ، كان شعره في عبدالناصر مجرّد استرزاق وأكل عيش . وعندما مات عبدالناصر ، كشف الشاعر الارزقي عن هويته الحقيقية وهاجم عبدالناصر وهو ميت ، وهو - أي صالح جودت - طالما لعق حذاءه وهو حي . وعلقت أم كلثوم على موقف صالح جودت قائلة : [دا مش شاعر . دا داعر] (١) .

---

(١) مجلة الاذاعة والتلفزيون المصرية العدد ١٨٥٦ عام ١٩٧٠ ص ٤٧ .

نبذة من حياة صالح جودت

ولد صالح جودت في ١٢ ديسمبر ـ كانون الأول ١٩١٢ ، وتخرج من كلية التجارة بجامعة فؤاد الأول [القاهرة الآن] . وبعد تخرجه عيّن موظفاً في بنك مصر ، ثم محرراً بمجلة الصباح ، ثم موظفاً بادارة اعلانات جريدة الاهرام . وقد اسندت اليه رئاسة تحرير مجلة [الراديو المصري] . وقد فصل في التطهير الذي أجرته حكومة الثورة عام ١٩٥٢ . ولما عفا جمال عبدالناصر عنه أصبح محرراً في دار الهلال ثم رئيساً لتحرير مجلة « الهلال » و « لكتاب الهلال » و «لروايات الهلال». وفي هذه الفترة أصدر مجلة « الزهور » كملحق لمجلة الهلال لتعنى بآثار الشباب .

هيئـات انتمى اليها

انتمى إلى جماعة « أبولو » التي أنشأها الدكتور أحمد زكي أبو شادي، واختير عضواً في لجنة الشعر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

دواوين أصدرها

أصدر ستة دواوين هي « ديوان صالح جودت » عام ١٩٣٤ و«حكاية قلب » عام ١٩٦٥ و « ليالي الهرم » و « ألحان مصرية » ١٩٦٨ و «أغنيات على النيل » ١٩٧٢ و « الله والنيل والحب » ١٩٧٥ .

روايات أصدرها

أصدر خمس روايات هي : « أولاد الحلال » و « وداعاً أيها الليل » عام ١٩٧٢ و « بنت أفنديىنا » و « الشيّال » و « كلنا خطايا » . وترجم رواية « العجوز والبحر » لأرنست همنغواي .

واصالح جودت دراسات عديدة مثل «بلابل من الشرق» ودواوين كثيرة حققها وشاركه في بعضها أحمد رامي ، وفي بعضها الآخر محمد ناجي وأحمد عبد ، فضلاً عن كتب راجعها قبل طبعها ، وعن مؤتمرات أدبية ومهرجانات شعرية اشترك في عدد كبير منها ، واشتركتُ معه ومع سواه في بعضها الآخر . وقد طاف بالعالم وأصدر كتاباً عنوانه « رحلة قلم طائر » .

وفاتـه

توفي بسرطان الرئـة في ٢٣ (حزيران) ١٩٧٦ بعد أن عاش على ظهر هذه الأرض ، أربعاً وستـين سنة ، كان يميل في خلالها مع كل ريـح قوية ، ويجعل فكره وقلمه في خدمة أصحاب النفوذ والسلطان . ولو كان صالح جودت ، متينَ الخلق ، ثابت المبدأ ، وحدويَّ النزعة ، لـكان له شأنه الرفيع في عالم الحق ، ودنيا الأدب .

للعبرة والذكرى

بعد أن أدركت صالح جودت الوفاة ، تطوّع زميل له في جماعة « أبولو » بتأليف كتـاب عنه ، وتوجَّه إلى السيدة أمينة السعيد رئيسة مجلس ادارة دار الهـلال وقتئذٍ ، وقدم لها الكتاب لنشره في سلسلة «كتاب الهلال» فما كان من الاديبة الكبيرة السيدة أمينة ، إلاَّ أن تعوذت بالله وقالت مستحيل أن أنشر شيئاً عن هذا الرجل فابحث لنفسك عن ناشر آخر ...

وطبعاً لم يهتدِ المؤلف إلى ناشر آخر ، حتى بعد أن تركت أمينة السعيد دار الهلال وتولاّها غيرها ...

الفهرست

أنجزت أسرة الضاد طبع هذا الكتاب

في شهر تشرين الأول ١٩٨٨

صمم الغلاف الفنان القدير الموهوب

الأستاذ آكوب ميخائليان

المؤلف في سطور



★ صاحب مجلة « الضاد » ومدير تحرير مجلة «الكلمة» .
★ درّس اللغة العربية والأدب والتاريخ في أكبر معاهد حلب .
★ شارك منذ صغره في مكافحة الانتداب الفرنسي ، وانتخب عضواً قيادياً في مجلس ادارة الحزب الوطني بحلب .
★ انتخب في عهد الوحدة عضواً في مجلس الأمة الاتحادي بالقاهرة ، وعضواً في لجنة الدستور، وعضواً في لجنة الشعر التابعة للمجلس الأعلى بدمشق .
★ عضو في اتحاد الصحفيين ، وفي اتحاد الكتاب العرب ، وفي اتحاد الجمعيات الخيرية في محافظة حلب ، وفي عدد من الجمعيات الاجتماعية والانسانية والأدبية .
★ لُحنت كثير من قصائده وأنشدت من كبريات الاذاعات العربية والاوروبية والاميركية .
★ نوّهت بأدبه موسوعات عربية وأجنبية عديدة ، وترجمت بعض آثاره إلى بعض اللغات الحية .
★ زار كثيراً من الاقطار العربية وتركيا وسويسرا وفرنسا وايطاليا وهولندا وكندا والاميركتين
★ اشترك في مؤتمرات دولية ومهرجانات شعرية كثيرة .
★ أقيمت له حفلات تكريم في القاهرة وبيروت وبغداد والكويت وحلب وفي العديد من مدن فنزويلا .
★ يحمل وسام الاستحقاق السوري و وسام « القدس » و وسام مار افرام السرياني برتبة فارس ودبلوماً في الصحافة .
★ قابل عدداً من رؤساء الجمهورية وصادق نخبة من أقطاب الفكر والأدب .
★ من انتاجه : ١ - « خيوط الغمام » شعر ٢ - « حصاد الذكريات » شعر ٣ - «الزفرات» مجموعة قصص قصيرة ٤ - «في حمى الحرم» ٥ - « وضوح الاملاء » ٦ - « المنذر ملك الحيرة » ٧ - « من أعلام العرب في القومية والأدب » ٨ - « سفراء بدون تكليف رسمي » ٩ - « قطاف الخمسين » ١٠ - « حلبيات » ١١ - « عشت مع هؤلاء الاعلام» وعنده ثلاثة كتب تحت الطبع ونحو ٣٠ مؤلفاً مخطوطاً .

مطبعة الاموي حلب - خان الحرير
☎ ٢٣٧٢٧٨١